

الرحلة...

إلى بلاد الأشواق

”شرح القصيدة الميمية“

للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن سنيّ الجوزية

٦٩١ - ٧٥١ هـ

عرض وتحليل
مصطفى عرلحي

معهد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

قسم النحو والصرف والعروض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله تعالى فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن صلتى بالإمام ابن القيم وكتبه عميقة وبعيدة .

وإنها لتزداد على مدى الأيام عمقاً وبعداً .

فمنذ قراءتي الأولى لكتابه المتع « الوابل الصيب من الكلم الطيب » أدركت أنني أمام عالم متبحر . . . وأديب متفنن .

لقد كان من حسن حظي أن وقع في يدي كتاب الوابل الصيب فأعجبني العنوان وشعرت بما يحوى من صورةٍ خلاصة تغلغل في إحساسي وأحدثت شعوراً يشبه ما أحدثه في نفسي كتاب آخر كنت قد قرأته في هذه الفترة المبكرة وهو كتاب « التصوير الفني في القرآن » للأستاذ « سيد قطب » .

وعشت هذا الإحساس العميق ، مع صفحات كتاب « الوابل الصيب من الكلم الطيب » أنتقل من صورة إلى صورة . . . في صحبة أديب حاذق وعالم متبحر ، فبحثت عن كتب ابن القيم أنهل من معينها العذب الجميل .

ثم قرأت بعد ذلك شيئاً من « القصيدة الميمية » (الرحلة إلى بلاد الأشواق) في مقدمة كتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » أذهلتني روعتها واستمتعت بها أيما استمتاع واستغرقت في صورها وظلالها وأبحرت في أشواقها . . .

ثم نشأت فكرة تقديم شرح مبسط لهذه القصيدة الجليلة . فعزمت على ذلك . ولكنه كان عزم العاجز المتردد . حتى عرضت عزمى على أخى الفاضل « شرف حجازى » صاحب دار الكتب السلفية بالقاهرة . فوجدت منه التشجيع ، وأطلعنى على نص كامل للقصيدة من مجموعة بعنـوان :

(أربح البضاعة فى معتقد أهل السنة والجماعة) جمعها على بن سليمان آل يوسف .

وقد أثار النص كاملاً للقصيدة أشواقى ، وهز مشاعرى ؛ فأقدمت على الفور . على هذا العمل الجليل ، مستعيناً بالله سبحانه . . وعلى الله قصد السبيل .

وكان لابد من هذا التساؤل :

إذا كانت القصيدة - : كما سنرى - في هذه القمة من الروعة والبيان ، وعلى هذا الثراء من الصور والظلال ، والغنى بالمشاعر الإنسانية والأشواق النورانية . . فلماذا لم تُعرف في تاريخ أدبنا العربي وعلى مستوى أدبائنا ، ومدارسنا وجامعاتنا ؟

إن القصيدة بالمقاييس الفنية السليمة ، وبالمعايير الإنسانية السديدة آية في الفن . . وساحة للجمال . . ومعرض للأشواق والمشاعر الإنسانية السامية .

فلماذا لم تفتح لها الأبواب في تاريخ أدبنا العربي . . تلك الأبواب التي تفتح لقصائد دونها بمراحل في مقاييس الفن . . والإنسانية ؟

وقد يظن ظانٌ . . أن السبب هو أن القصيدة قصيدة دينية تتحدث عن الجنة والزهد .

ويقينا ليس هذا هو السبب . . فتاريخ الأدب العربي يعرف نماذج لشعر الزهد .

ولكن العجيب أن هذه النماذج التي يعرفها لشعر الزهد أردأ وأقل فناً من قصيدة الإمام ابن القيم « الميمية » . . كما أن القصيدة ليست من هذه المنظومات التي اشتهرت تسميتها بالدينية . . إنها قصيدة قصيدة أشواق ومشاعر ، وسيقف القارئ بنفسه على ثراء القصيدة . . وسيحلق معها في أرق الآفاق . ولهذا قدمت بفصل لتعليل هذه الظاهرة الخطيرة ، مستفيداً من دعوة السيدة الجليلة « بنت الشاطئ » لتحرير

تاريخنا الأدبي من الانحرافات . . والمقاييس الباطلة ، وإقامته على
أسس سليمة وقواعد صحيحة .

ولأن القصيدة الميمية أنموذج فريد وجيد ، ودعوة بالغة إلى السمو
بالفن إلى آفاق عالية ومشارف سامية بالاستفادة من طريقة القرآن
في الصور والظلال والاقتراب من النفس الإنسانية لكل ذلك ؛ تحدثت
عن دعوة الأستاذ « سيد قطب » للخروج بالقصيدة العربية من واقعها
المتخلف المزرى . . إلى الآفاق العليا . . الخروج من الظلمات إلى النور .
وهذه هي القصيدة أمامنا . . دعوة صريحة وحثيثة لبأوغ أرق
الآفاساق .

وتحدثت في جو القصيدة عن العلاقة الوطيدة بينها وبين حياة
ابن القيم وأشواقه وأفكاره في سائر كتاباته .

وتبين لي - كما سيرى القارئ - إن شاء الله - أن القصيدة تعبير
صادق عن صاحبها ، تكشف لنا عن مشاعر إنسان محب . . . يعاني
مشاعر الاغتراب والبعد عن المحبوب وديار المحبوب . . فيقوده الشوق
إلى هذه الرحلة المثيرة . . « الرحلة إلى بلاد الأشواق » .

وفي استعراض عام للقصيدة . وقفت أمام صورها المذهلة وعشت
مع ظلالها الموحية الثرية .

وبينت بعد هذا مدى اهتمام ابن القيم بالصورة والظلال ومدى
إدراكه إلى قيمة الصورة والظلال في اللغة بعامتها .

ولقد قادني هذا إلى تتبع آثار هذه الطريقة في كتابات ابن القيم ،
فشبت بيقين أنه رائد لهذه الطريقة الفريدة .

ثم أوضحت هذه الطريقة من كلام الأستاذ « سيد قطب » ليكتشف
القارئ بنفسه كيف أن ابن القيم هو الرائد الحقيقي لطريقة الصور
والظلال على المستويين : النظري ، والتطبيقي .

* * *

وفي الشرح التفصيلي للقصيدة ، بدأت بتفسير بعض المفردات من
معاجم اللغة . بعد تقسيم القصيدة إلى مقاطع يحمل كل مقطع منها
عنواناً خاصاً ، واهتممت بالإشارة إلى ما يقتبسه الإمام ابن القيم من
آيات وأحاديث مع تفسير الآيات وشرح الأحاديث من كلام أئمة
التفسير والحديث .

كما اهتممت بشرح بعض مقاصد القصيدة بالرجوع إلى كتب
الإمام ابن القيم نفسه حيث فصل فيها ما أجمله في القصيدة .

ثم بعد هذا إشارات مختصرة لبعض الصور البلاغية والتعقيب
ببعض الفوائد .

وفي الختام تلخيص لبعض نتائج البحث وإشارة إلى أهم أغراض
الرحلة .

وعلى الله قصد السبيل . . .

الدعوة إلى تصحيح واجهة تاريخ الأدب العربي

أغتم هذه المناسبة العظيمة - مناسبة تقديم وتحليل قصيدة الإمام الجليل ابن القيم « الميمية » . تلك القصيدة الغنية بالمشاعر الصادقة ، والحافلة بالأشواق السامية ، والزاهرة بالآيات الفنية العالية ، كما سيرى القارئ إن شاء الله أثناء عرض القصيدة .

أغتم هذه المناسبة بدعوة لا بد منها ولا غنى عنها إن أردنا الخير لأنفسنا ولأدبنا . . ولحقيقة وجودنا . وإن صدقنا العزم على النهوض من واقعنا المزرى لنخلق في آفاق عليا .

إن تاريخ الأدب العربي في حاجة ماسة إلى تصحيح وتنقيح ، بل إنه في أمس الحاجة إلى إعادة كتابته من جديد وإقامته على أسس سليمة وقواعد صحيحة .

إن الحالة التي وصل إليها هذا التاريخ الأدبي للعرب - ككل ما يتصل بالعرب الآن - حالة مزرية تبعث في كثير من الأحوال على السخرية . . والاشمئزاز !

ولتصوير تلك الحالة المزرية التي وصل إليها الدرس الأدبي أقدم الصورة الصادقة التي عرضتها السيدة الجليلة الدكتورة « بنت الشاطئ » في كتابها القيم « قيم جديدة للأدب العربي » (١) ، وقد أرادت أن تجعل

من كتابها هذا، دعوة صادقة « لتحرير الدرس الأدبي من بعض قيم خاطئة ومقاييس منحرفة ، احتكمت فيه زماناً وسيطرت ولا تزال تسيطر على فهمنا لتراثنا الأدبي ، وتوجه ذوقنا له ، وإدراكنا لوظيفته في الحياة ومكانه فيها » أ هـ .

* * *

وقد بينت أهمية هذه الدعوة ووجوب الإصغاء إليها . . تقول :
« . . . والعربية قد كان لها من قديم أكثر مما كانت لغة أخرى للناطقين بها ؛ وذلك بحكم اتصال العربية ، لغة المعجزة الدينية ، بالعقيدة التي نعرف سلطانها على الوجدان ، ومكانها في الصراع التاريخي المرير ، بين العربية وأعدائها : من شعوبية وتتر ، وصليبية واستعمار » (١) .

« . . . ومستقبلنا بلا شك معركة فكرية ، بعد أن انقضى عهد الاستعمار العسكري (٢) ، ولا مفر لنا من خوض هذه المعركة ؛ لأن وجودنا الكريم لا يحميه إلا صون مقوماته المعنوية » .

« وهنا يأخذ الأدب دوره في نضالنا الجديد ، حارساً لمعنوياتنا ، وكما لا ذ أسلافنا باستنقاذ تراث العربية الأدبي والفكري في صراعهم مع الشعوبية ، وكما حموا به العربية ديناً ودولة في مهبط الأعصار التتري ، نلوذ به اليوم لحماية وجودنا ، في مهبط تيارات الغز الفكري » اهـ

وكيف ينهض الادب بهذا الدور الجليل ؟

(١) ولا يخفى أن قائمة أعداد هذه الأمة ولغتها وأدبها تزداد يوماً بعد يوم .

(٢) الواقع يؤكد أنه لم ينقض ، وأنهم ما يزالون يستخدمونه بحدة وشراسة .

تقول الدكتور « بنت الشاطىء » :

« . . . ولن ينهض الأدب بهذا الدور الجليل فى المعركة ، ما لم نتحرر من الرواسب التى شوهت تراثنا الأدبى ، وما لم ننج فى ذوقنا له من سيطرة الأذواق التى ورثناها من مخلفات عهود الضعف والانحطاط ، بل لن تقوم للأدب العربى فىنا قائمة ، ما لم نلغ الأسوار التى عزلت أبنائنا - وأجيالاً قبلهم من أجمل ما لنا من تراث فى ولم نمح الظلال التى حجبت عنهم بهاءه ، حين فرضت عليهم نماذج بعينها من الشعر راجت فى ظل الطغيان ، وأشخاص بدواتهم ، من الشعراء والكتاب ، يدينون بشهرتهم وذيوع صيتهم لتعلقهم بركاب الحطام أيام كانوا فى عزلة من الشعوب ، وإلى تمرغهم فوق « بلاط » الأمراء والسلطين ، أيام كان هذا البلاط يكم أنفاس الرعايا المحكومين ويهدر ما لهم من حقوق وحرمانات . . . » ا هـ .

* * *

رأينا إذن كيف تشوه تاريخ الأدب العربى ، وكيف ترتب على هذا التشويه مفاسد ومفاسد .

فكان أن حرمانا من كثير من الأدب الصادق الذى يعبر عن حقيقتنا وأشواقنا ورسالتنا فى الحياة .

وكان أن ابتلينا بنماذج منحرفة ، لا تعبر عن أصالتنا وإنما هى دخيلة علينا ، كأشعار المديح الكاذب ، والمجون القبيح .

ورأينا إذن أن الدعوة صادقة ، وأنها كانت كفيلة - وهى صادرة

من أستاذة كبيرة لها شأنها في حياتنا الثقافية والفكرية ، بأن تتآزر الجهود لإحيائها والقيام بها وبنصرتها . . ولكن يبدو أن هناك من لا يريد الخير لهذه الأمة .

* * *

تقول السيدة الجليلة :

وهذه المحاولة تكشف عن أمثلة من انحراف الفهم لتراثنا الأدبي وضلال المقاييس في ذوقه ونقده وتقويمه . وتلتبس له قيماً جديدة محررة من الشوائب الدخيلة والرواسب المتخلفة .

ولست أدعى أنني بهذه المحاولة وفيت بما يجب للموضوع من إحاطة وشمول « اه .

وحتى لا يبادر أحد ويظن أن المسألة ، مسألة هدم لمجرد الهدم تقول : « وأنا أشتغل بهذه المحاولة في الجامعة من زمن ، أريد بها أن نستخلص لأدبنا العربي قيماً جديدة نابعة من تراثنا الأصيل ، دون التزام بالقيم وبالأحكام التي ذهب إليها نقاد سلفوا ، نظروا في هذا التراث بذوق عصرهم ، وحكموا عليه بعقلية زمانهم ، وقوموه بموازين بيئاتهم ومجتمعهم ، ثم تركوا أحكامهم وقيمهم للعصور من بعدهم ، فتناقلها الدارسون منا جيلاً بعد جيل ، وصار لها من حرمة القديم وطول العمر وسلطان الإلف ، ما أضفى عليها مهابة ترد عنها محاولات التجديد (١) ، وتحميها ممن يجروون على معاودة النظر فيها بعقلية متحررة وذوق حديث « اه .

(١) هذا رغم صيحات مدعى التجديد في شتى المجالات .

نعم إنه الهدم الذى يسبق البناء .

ولكن المجال هنا فى حاجة إلى تنبيه . إننا لا ندعو إلى التحرر من موازين قديمة فاسدة ، وقيم بالية منحرفة فى تاريخ الأدب العربى لنترمى فى أحضان تقليد أجنبى رخيص ؛ لأننا فى هذه الحالة نكون قد استبدلنا شراً بشر .

والسيدة الجليلة بنت الشاطىء منتبهة إلى ذلك تماماً إذ تقول :

« حين أحاول أن أستحدث قيماً جديدة للأدب العربى ، أجد من الضروري أن أعود إلى قديم لنا بعيد . لكى أستمد لأدبنا مفهوماً نابعاً من أصوله النقية ، وقيماً حرة لا ينكرها أدب العربية فى جوهره الصافى الأصيل . وكثير منا يشفقون من مثل هذه العودة ويريدون لنا - بحسن نية (١) - ألا نشغل بـماض عن حاضر وألا ننصرف عن حياتنا هذه التى نحيهاها إلى حياة قديمة سلفت وانقضت .

ولست أقول هنا إن مثل هذا المذهب إثم وخطيئة ، فليس المجال مجال وعظ خلقى ، لكنى أقول إن وعينا لذواتنا يقتضى حتماً أن نعرف ماضيها (٢) ، وإن حياتنا اليوم لا يمكن أن تقوم إذا بترت منها أصولها .

وإذا كانت دراسة التاريخ القديم لأمة ، ضروري ، لا يسهل أن نتصور إمكان الاستغناء عنها ، فكذلك الأدب ؛ لا يجزئ واعٍ

(١) وفى أحيان كثير بسوء نية ؛

(٢) وأن نبحث عن الجوانب المضيئة المشرقة فيه .

على الزعم بإمكان الاستغناء عن معرفة قديمنا منه ، لا لكونه تسجيلاً وجدانياً لتاريخنا فحسب ، ولكن — كذلك — لما له من أثر في تكوين ذوقنا ووجداننا ، على مرّ العصور وتتابع الأجيال » اهـ .

« هي إذن رجعة لا بد منها إلى أدبنا الأول ، وعودة لا مفر منها إلى قديمنا الأصيل ، نرد بها على أدبنا ما سلبته إياه عصور الانحطاط والضعف ، ونلتمس لمزاجنا الأدبي الحاضر ميراثه النقي ، ونهتدي به إلى الشوائب الدخيلة التي جمحت ذوقنا الفني لأدبنا ، وأصابنا منهاج الدرس الأدبي بما يشبه العقم والشلل » اهـ .

وقد حدثتنا السيدة عائشة عبد الرحمن عن بعض هذه المقاييس الفاسدة والقيم المنحرفة التي تحكممت ولا تزال في تاريخنا الأدبي .. وهذا أوان التفصيل .

١ - الشعر تجارة العرب

هذا أول المقاييس الفاسدة التي نظرت إلى الشعر والأدب عموماً نظرة مادية تجارية عقيمة . لا على أنه أداة الإنسان في التعبير عن مشاعره وأشواقه وتجاربه . بل تنظر إليه وتقومه بميزان التجار وللأسف كانت هذه نظرة نقاد العرب . يقولون للشاعر : تكلم في هذا الموضوع لأنه سيعود عليك بربح أكثر ، وتكلم فيه بهذا الأسلوب لتظفر بالربح الوفير . وإياك أن تتحدث عن كذا فإنه سيثير عليك حفيظة الحكام .

كل هذا دون مراعاة مشاعر الأديب وأشواقه وتجاربه .

ولنستمع لتعليق السيدة « بنت الشاطئ » على هذه المقولة المنحرفة :

تقول « .. كلمة تناقلها النقاد من قديم حتى وصلت إلى ابن رشيق في القرن الخامس الهجري فسجلها في كتابه « العمدة في صناعة الشعر ونقده » قيمة نقدية مقررة يمكن أن تفسر لنا كثيراً من الأحكام والمقاييس التي أقاموا عليها وزنهم للشعر وتصرفهم في أقدار الشعراء ومراتبهم . كما يمكن أن تفسر لنا كذلك اضطراب مقاييسهم وتناقض أحكامهم » .

والنقاد العرب خضعوا لهذا الحكم الفاسد ومثال ذلك :

(لم يجد ابن سلام مكاناً في طبقاته للشنفرى ، ولا لغير

الشنفري ، من هؤلاء الذين يمثل شعرهم نقاء الفطرة العربية وهيامها بالحرية ، ويعبر عن معاناة وجدانية ؛ ويعكس صورة أمينة لواقع حياتهم في صميم الجزيرة . لمساذا ؟

لأن هؤلاء (لم يكن الشعر عندهم تجارة قط ، وإنما كان متنفساً لشجنهم وراحة لقلوبهم المضناة بالغربة ، وتعبيراً عن وجدان مثقل بالهموم .

ولو شاءوا أن يتجروا بشعرهم لوجدوا لبضاعتهم مشتريين . ولكن فطرتهم العربية الحرة أبت عليهم أن يرضوا بهوان المساومة على ألسنتهم ومشاعرهم في سوق البيع والشراء ، وأن ينزلوا عن حريتهم التي لم تحتل ضغط عرف الأهل والعشيرة ، والتي اشتروها بغالى الثمن من غربة وحرمان وضياع .

فما موقف النقاد العرب إذن ؟

« لقد احتفوا أيما احتفاء ببضاعة التجار من الشعراء وحرصوا أشد الحرص على رواية الشعر الذي قيل في بلاط المناذرة والغساسنة ولم يكتفوا بأن يجعلوا « المديح » أهم أغراض الشعر بل زادوا فجعلوا المدح غاية القصيدة العربية بوجه عام .

« ويشهد تراثنا أن المدح لم يكن غاية القصيدة وعمودها إلا عند المتكسبين بالشعر .

« ولم يجهل النقاد أن المجتمع العربي الحر كان يأنف من التكسب بالشعر ويسقط من يجعل الشعر متجراً لكنهم في حديثهم عن التكسب بالشعر والأنفة منه قرروا أن مدح الملوك مفخرة . . ! وأن الذل لهم معفو ، وأن عطاءهم شرف .

« وقرروا - بناء على النظرة التجارية للشعر - أن الطمع أقوى مثيرات الشعر ودوافعه » .

ويحذر الناقد الشعراء الذين يتصدون لمعارضة السلطان الجائر بقولة حق ، يحذرهم فيقول :

« وأحمق الشعراء عندي ، من أدخل نفسه في هذا الباب أو تعرض له - يعنى للسلطان - وما للشاعر والتعرض للتخوف ، وإنما هو طالب فضل فلم يضيع رأس ماله .

هذه هي نظرتهم للشاعر وصاحب الكلمة : طالب فضل ومستجدي عطاء ، شحاذ بيباب الملوك ، تاجر يبيع الربح . فلم يضيع رأس ماله !

« الشعر نكد باببه الشر فإذا دخل في الخير ضعف ولان »

قاعدة فاسدة أخرى . ومقياس منحرف آخر قوّموا به الشعر !
لقد رأوا أن باب الشعر هو الشر ، فليس له مجال سواه ! فيا أيها
الشاعر كن شريراً فاسداً مفسداً ليكون لك مكان عندهم وإياك
والخير ، حتى لا يكون مصيرك مصير « حسان بن ثابت » رضى الله عنه .

« هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام
سقط شعره » وبرغم أن النقد الحديث لا يمكن أن يتقبل هذه المقولة
التي تتعارض مع طبيعة الشعر ، بوصفه تعبيراً صادقاً عن النفس
سواء كان بخير ، أو شر (وليس في مجال الشر كما تزعم المقولة
الفاصلة) .

برغم هذا فلا تزال النتائج العملية لتلك المقولة كما هي في
تقدير منازل الشعراء ، والافتتان بشعر المجون .

وليس هذا مجال مناقشة هذه المزاعم والتصورات الفاسدة .

وأما عدم تقديرهم لشعر حسان وأمثال حسان من شعراء الدعوة
من شعراء الدعوة الإسلامية فإنه تقدير لم بوضعهم في مكانة أسمى
من مقاييسهم المنحرفة .

وبالاطلاع على شعر حسان ترى أن شعر حسان الإسلامى ، أرقى فناً
وأصدق عاطفة (والمقياس هنا رقى الفن وصدق العاطفة وجمال

التعبير وليس بمقاييس تجارية ، ترى أن المديح أهم أغراض الشعر .
وليس بمقاييس باطلة ترى أن مجال الشعر هو الشر فحسب .

وقد علقت السيدة « بنت الشاطيء » على هذه المقولة الباطلة
بقولها في سخرية : (قالوا هذا ، فما لنا في الأمر حيلة ، ولا لنا من
أحكامهم مفر أو مخلص) .

وتقرر السيدة الفاضلة أن الشعر الصادق لا يسقط بالخير
بل يسمو ويرتفع : « ولقد عاش العرب طويلاً والأدب فنهم الأوحاد
ووسيلتهم التي لا نعرف أنهم كانوا يملكون سواها للتعبير عن وجدانهم ،
وجاء الإسلام بمعجزة بيانية ، فكانت هذه المعجزة آية تقدير لمكان
البيان فيهم ومنزلته عندهم ، بقدر ما كانت شاهدة أن الإسلام
لم يجيء ليعطل البيان ، بل أقر وظيفته في المجتمع ، وأبقى لذويه
ما كان لهم من قديم ، من شرف القيادة الوجدانية ، والتكلم بلسان
الجماعة » .

وكان التطور العظيم الذي حدث هو أن الإسلام أراد لشاعر القبيلة
أن يصير شاعر الأمة فلم يهدر بهذا ذاتية الشاعر ، بل أراد لها أن ترحب
فلا تعود محدودة بنطاق الأسرة والقبيلة .

« ولم يصير الشاعر في الوضع الجديد داعية مأجوراً ، فما كان
الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا أحداً من خلفائه رضوان الله عليهم
يستبيح لنفسه أن يفتح بيت مال المسلمين للشعراء . ثمناً لتأييدهم ،
بل ما كان الرسول ولا أحداً من خلفائه يعتبر هذا المال ملكاً له
يتصرف فيه كيفما شاء ، إنما هو مال المسلمين أمانة في أيدي النبي

صلى الله عليه وسلم والخلفاء ، ينفقون منه على خير الرعاية ومصلحة الجماعة طبقاً لحدود الله .

« كان الشاعر إذن ، يصدر عن عقيدة وإيمان ، ويهون عليه في سبيلهما أن يغضب عشيرته عند اختلاف الدين ، لا التماساً لأجر مادي كما كان يفعل المرتزقة من تجار الشعر ، بل ابتغاء رضا الله ورسوله » .

فلو سئلوا أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل عقيدتهم ، لما ترددوا في بذلها طائعين راضين ! » .
ولنتابع عرض مقاييسهم الفاسدة .

* * *

« تحكّم القصر فى تحديد صنف البضاعة الشعرية المطلوبة »

» .. وكما احتاج نظام القبيلة إلى الشاعر يؤيده ويحميه واحتاجت الأمة الإسلامية أول عهدا إلى تعبئة وجدانية يتولاها الشعراء .

- احتاج الوضع الملكى الجديد إلى الشعر يؤيده ويناضل عنه ويمكن له فى نفوس الجماهير .

وكان بيت المال فى أيدي رجال القصر وعملائه . وكانت سطوة السلطان تسندهم فراحوا ينتزعون التأييد ، إما بإغراء المال ، أو برهبة السلطان . ومن يومها بدا كأن القصر هو الدنيا .

أو هذا هو ما يمثله لنا التاريخ الأدبى .

« وكانت المنافسة بين شعراء البلاط على القربى والرضى لا تهدأ ولا تفتقر » .

« وكما كان القصر يتصرف فى منازل شعرائه ، ومراتبهم الشعرية ، ويوزع عليهم حظوظهم من الشهرة والرزق كان كذلك يتصرف فى شعرهم ويحدد لهم مجال القول » [صفحة ١٠٠] .

« ومثل تلك البيئة يروج النفاق والكذب والزيف ، ويدور الشاعر مع الريح » [صفحة ١٠٦] .

« وهان على الشعراء أن يدوروا بمعاذفهم يطربون الحكام ، بل هان على « الفرزدق » ، الذى زعموه أشعر طبقته ، إذا افتخر أن يجعل نفسه مضحكاً للمسيد الأمير ، ويعلن هذا على ملاء من القوم » [صفحة ١٠٨] .

ومن الطبيعى أن تنشأ عن هذه الانحرافات نتائج عملية :
« ونجم عن هذا الوضع شر كثير ، أصاب الحياة الأدبية إذ ذاك ، نتاجاً ونقداً ، ثم لم تستطع أن تنجو منه بعد ذلك :
فلقد تركز الاهتمام حول شعراء القصر الأيوى ، مع أن الحياة لم تكن بلاطاً فحسب » [صفحة ١٠٩] .

ومن هذا الشر الكثير أنهم أهملوا :
« بيئة أخرى فى مكة حول الحرم الأقدس ، وبيئة رابعة فى المدينة دار الهجرة حول مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومشواه تتشبه بمجد لها دينى ، وتغذيها ذكريات النضال المشهود ، وتضيئها وجوه كريمة ، من آل النبي صلى الله عليه وسلم والبقية الصالحة من صحابته . .

وكانت وكانت . . فى هذه الدنيا الواسعة العريضة التى يستحيل أن تحصرها جدران القصر الأموى فى دمشق ، وقصر عتبة بن أبى سفيان أو عبد العزيز بن مروان فى مصر ، وقصر أخيه بشر ، أو زياد بن أبيه أو الحجاج فى العراق ، أو نصر بن سيار فى خراسان .

لكن عيون المؤرخين والنقاد ، شدت إلى هذه القصور ، فلم تكذب تعرف من أمر الحياة الأدبية غير البضاعة الواردة منها ، الرائجة فيها ، ولم تكذب تحتفل بغير الشعراء الذين يصممهم البلاط بخاتمه » [صفحة ١١٢] .

ولم يكن هذا الذى أشرنا إليه من ضيق النظرة ، وانحصار الاهتمام بأدب السياسة هو كل ما أصاب الأدب من شرٍّ ونكر ، بل أصابه منهما ما هو أفدح حين احتكمت موازين السياسة فى أقدار الشعراء ومقاييس الأدب . ثم ظلت تسيطر على أذواق النقاد وتعطل تقديرهم » [صفحة ١١٤] . . . وما أصاب الحياة الأدبية من نكر ، أن موازين السياسة وحدها هى التى كانت تحتكم فى القيم الفنية للأدب وتسيطر على ذوق النقاد .

فالفنون الشعرية التى أجازها البلاط كانت تحدد مجال الشعر وأغراضه عند من حصروا الدنيا بين جدران القصر .

فلأن الساسة كانوا يحتفلون بالمدح والهجاء وجد من النقاد القدامى قوم يقولون . (كابن رشيق) (١) الشعر كله نوعان مدح وهجاء .

ولأن شعراء القصر كانوا يصدرون فيما يقولون عن رغبة أو رهبة جاء نقاد فحصرُوا فيهما مثيرات الوجدان وبواعث النشاط الأدبي وقرر آخرون (مثل ابن قتيبة) (٢) : « أن الطمع أول دواعي الشعر »

(١) ابن رشيق . العمدة ٧٨/١ .

(٢) ابن قتيبة الشعر والشعراء ٢٤/١ .

والرغبة عندهم ، لا تغنى غير الطمع فى عطاء ذوى المال ورضى أصحاب السلطان . بدليل أنهم حصروا مجالها الشعرى فى المدح والشكر أو كما قالوا : فمع الرغبة يكون المدح والشكر .

والرهبة فى حسابهم ، لم تكن تغنى سوى الخوف من سطوة حاكم أو غضب أمير بدليل حصرهم مجالها الشعرى فى الاعتذار والاستعطاف (٢) « [صفحة ١١٨] .

هذا على المستوى النظرى أما على مستوى التطبيق فتقول :

« وفى مقاييسهم أن مدائح « الكميت » فى بنى أمية أجود من هاشمياته مع تقريرهم أنه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى » (٣) .

ولا يرى « ابن قتيبة » علة لجودة مدائحه « إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على عاجل الآخرة » .

و « ذو الرمة » يؤخره عن الفحول أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع على ما نقلنا من كتاب الشعر والشعراء كأنما كان القصور فى المديح والهجاء - حيث يخون الطبع - جريمة لا تغتفر عند القوم ! .

وكأنما كان لا يكفيه أن يتفوق على كل الشعراء فيما يواتيه طبعه عليه من فنون القول ! .

وبقى أن نسأل : أين موضع « ذو الرمة » عندنا ؟ هل تزحزح

عن مكانه الذى حدده له « ابن سلام » « وابن قتيبة ، فى العصر العباسى ؟ .

هل فكر دارس منا فى العناية بتراثه الفنى ؛ ووزنه بمقياس غير ذاك الذى ورثناه من قدامى النقاد ؟ « صفحة ١١٨ ، ١١٩ .

نرى هنا كيف أن النقاد قد جعلوا من الشاعر مجرد دمية أو فى أحسن الأحوال مهرجاً يرضى الأمير تارة ويضحكة أخرى ، واستهانوا بمشاعر الأديب الصادق وحدوا من انطلاقاته وأشواقه ؛ فلم يجد لنفسه بينهم مكاناً .

كما نرى أن هذه النظرة قد بقيت كما هى لا تتزحزح حتى عند من يزعمون التجديد .

لقد أغلق التاريخ الأدبى - قديماً وحديثاً - أبوابه أمام الأدباء الصادقين وفتحها على مصاريعها لأصحاب المديح الكاذب من جهة . وأهل التهريج والمجون من جهة أخرى .

ونعود لعرض مقاييسهم المنحرفة .

« أعذب الشعر أكذبه »

وأضلتهم مقاييسهم النقدية ، فلم يدركوا أن الصدق الوجداني عنصر أصيل جوهرى فى الفن ، ولم يلفتوا إلى أن الشاعر حين لا يقول عن طبع ويصدر عن وجدان ، فقد ما به قوام الأصالة الفنية . « فأعذب الشعر أكذبه » عند من وصفهم قدامة بن جعفر بأنهم أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً . والآمدى يقول : الشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صدقاً . ومن فضائل الشعر عندهم « أن الكذب الذى أجمع الناس على قبحه حسن فيه ، وحسبك ما حسن الكذب واغتفر له قبحه كما قال ابن رشيق فى باب فضل الشعر . والغلو ميزة تحسب عندهم للشاعر كما قرر « قدامة » وبناء على ذلك فإن أشعر الشعراء هو أكثرهم جنباً وذلاً ومهانة .

« فمداراة السلطان واجبة ، والتصدى لمعارضته حق ، حتى لو كانت المعارضة دفاعاً عن مبدأ واستبسالاً فى سبيل عقيدة كما يقول ابن رشيق . وأحمق الشعراء عندى من أدخل نفسه فى هذا هذا الباب أو تعرض له - يعنى السلطان - وما للشاعر والتعرض للتحوف ؟ (١) وإنما هو طالب فضل فلم يضيع رأس ماله وكل شئ محتمل إلا الطعن فى الدول فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة ، فتعصب المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه أصوب وأعذر له من كل جهة » .

(١) من الخيف وهو شدة الجور والظلم مختار الصحاح ١٦٥ :

والخلاصة :

« أن الأدب لم يكن لينجو من نكر الحياة العامة التي أرادت له أن يتخلى عن عنصر الصدق الفنى الذى هو مناط فنيته وجوهر أصالته ، وعزلت الأدب عن مكانته الرفيعة من القيادة والسيادة ليكون ظلاً للسلطان وبوقاً للحاكم ، وداعية لكل مذهب وكل وضع . وتجارة لفئة من المرتزقة المأجورين » . [ص ١١٤] .

فإذا تساءلنا الآن فقلنا :

أى مكان إذن للأديب الصادق الذى لم يرض أن يكون داعية لطاغية أو مطرباً لأمير أو نديم خليفة أو مروجاً للهو والشر والمجون ؟ وهل يمكن لقصيدة سامية تحلق بأشواقها فى السماء أن تجد مكاناً وسط هذا الركام الذى أسموه ظلماً وافتراءً بتاريخ الأدب العربى .

« إن المقاييس التى احتفت بشعراء المديح وأبواق البلاط حيث لا مجال للصدق الفنى والحرية الوجدانية ، لا يمكن أن تعترف بشاعر وجد نفسه ، ووعى ذاته ، واعتز بكرامة عقله وفكره ولسانه فلم ينزل عنها لمشتر ، ولم يساوم عليها فى سوق النفعية والنفاق » [ص ١٤٥] .

إننا الآن نقول فى يقين - بعد أن زادت الرؤية وضوحاً : إنه لا بد من تحرير تاريخنا الأدبى من تلك الآفات لينطلق من ظلماته إلى النور .

وإني لأرجو أن يكون تقديمي وتحليلي لقصيدة سامية مضيئة
محلقة في أجواء السماوات العلى - لم تجد مكانها بالطبع في وسط
تاريخنا الأدبي .

أرجو بتقديمي لهذه القصيدة أن أخطو خطوة جديدة سديدة
للانطلاق من واقعنا الأدبي المتخلف إلى آفاق جديدة وقم سامقه .

لقد حُرم معظم الناس حتى المعنيون منهم بالأدب من أنوار هذه
القصيدة التي كان من الممكن أن تكون رائدهم إلى بلوغ أرقى درجات
الأدب والشعور .

لا أقول هذا صدوراً عن حبي للجسم للإمام ابن القيم ، ولا عن إعجابي
الشديد بقصيدته الرائعة بقدر ما هي الرغبة الصادقة لوضع نموذج
صادق لأولئك الذين وقعوا فريسة لأشباح لا تقدم للناس إلا السوء
ولا يحجبون عنهم إلا النافع المقيد ؛ هوى منهم أو فساد ذوق .

* * *

وكذلك لأن القصيدة تعتبر - بحق - تمثيلاً صادقاً واستجابة
حقيقية للدعوة جليلة أخرى ، رفع لواءها الاستاذ الناقد والكاتب
الإسلامي الشاعر الكبير « سيد قطب » .

فما هي هذه الدعوة ؟

وكيف تعتبر قصيدة « الرحلة إلى بلاد الأشواق » تمثيلاً صادقاً لها ؟

* * *

نستطيع أن نلخص هذه الدعوة بأنها المطالبة بأن يستفيد الأدب العربي من طريقة القرآن الأساسية - وهو كتاب العرب الأول « وتلك الطريقة الأساسية هي طريقة التصوير والظلال .

يقول الأستاذ « سيد قطب » تحت عنوان :

* * *

الصور والظلال فى الفن (١)

« لقد اختار القرآن الكريم طريقة التصوير والتخييل وجعلها قاعدة غالبية فيه للتعبير فى مواضع التأثير » .

« ومن العجيب أن يكون القرآن هو كتاب العرب الأول ثم لا يستفيد الأدب العربى من طريقته الأساسية شيئاً بعد نزوله ، وتيسيره للذكر فى أيديهم . إلا فلتات فى ديوان كل شاعر هى امتداد للتصوير فى الأدب الجاهلى وعلى طريقته لا على طريقة القرآن الرفيعة .

ويلعل « سيد قطب » لهذه الظاهرة بقوله :

« ولعل مرد ذلك إلى أن الحاسة الفنية عند أولئك الشعراء كانت أقل من أن تتطلع إلى هذا الأفق الرفيع فى ذلك الأوان » .

فإذا أضفنا إلى هذا التعليل للأستاذ « سيد قطب » خضوع الأدب العربى لتلك المقاييس المنحرفة التى سبق عرضها ومناقشتها ؛ كان ذلك كله سبباً لأن يقتل الإبداع قتلاً ، فضلاً عن أن يستلهم أو يقبس شيئاً من أنوار القرآن .

يقول الأستاذ « سيد قطب » :

« ونحن نجد القرآن بين أيدينا وهو يتبع فى التعبير طريقة التصوير الحى الذى يزيد مساحة المعنى النفسية ، ويحيله صورة حية حتى فى الأغراض الدينية البحتة .

بين أيدينا هذا الكتاب الكريم يتحدث بأبرع طريقة فنية في الأداء فلا ننتفع بها ، ونرجع في اقتباس طرق تعبيرنا إلى الشعر العربي ولا سيما في العصر العباسي ، حينما تأثر الشعر بالفلسفة والمنطق وبرزت فيه المعاني الذهنية بروزاً واضحاً ، ولولا أصالة الطبع في بضعة شعراء في هذا الوقت ، لقضت الطريقة الذهنية في الأداء على الطابع الفني تمام القضاء .

« إننى أدعو إلى تملّي طريقة القرآن في التصوير والتظليل . فهى أعلى طريقة فنية للأداء . وإذا كانت وجهة القرآن الدينية ، قد جعلت هذه الطريقة خاصّة بأغراض الدعوة الإسلامية ، فإن نقلها إلى عالم الأدب خليق بأن يرفع هذا الأدب إلى آفاق رفيعة لم يصل إليها حتى الآن .

فهلّموا إلى ذلك النبع الأصيل : نبع القرآن » (١) .

تلك إذن هى دعوة الأستاذ « سيد قطب » للاستفادة القصوى من اتباع طريق القرآن الغالبة وخصيسته الشاملة التى يتفرد بها القرآن ليرتفع بها الأدب عالياً .

وبعد :

فهاتان دعوتان :

الأولى : لتخليص الدرس الأدبي من عوامل الفساد والتشويه

وإخراجه من الظلمات إلى النور وقد رفعت لواء هذه الدعوة سيدة جليلة لها شأنها ومكانتها في مجال الدراسات الأدبية .

والثانية : دعوة حثيثة للاستفادة من طريقة القرآن الرفيعة في التصوير الحي والظلال المثيرة لمكامن الشعور في النفس والوجدان .

وقد رفع لواءها أستاذ وأديب وناقد كبير هو الأستاذ « سيد قطب » .

والآن . . . هل تجد هاتان الدعوتان طريقهما إلى الآذان ؟ .

إن طبيعة الأمور تحتم ذلك علينا جميعاً ولكن العوائق كثيرة فهل نتخطاها ؟ .

هل تبذل الجهود الصادقة وتتآزر الإمكانيات المخلصة لتحقيق هاتين الغايتين الشريفتين ؟

أم سيظل تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات ومحبو الأدب غارقين في نماذج شائنة للمديح الكاذب والمجون القبيح ، محجوبين عن أنوار *الأدب الصادق المحلق في آفاق السماء .

وتظل كتب الأدب حكرأ على تلك النماذج المنحرفة الناشئة عن موازين فاسدة حصرت الشعر في المدح والمجاء والمجون فإذا أفسحت مجالا ضيقاً لغرض آخر كالزهة مثلاً لم تقبل منه إلا نماذج عقيمة متجمدة ومتكلفة لا تعبر عن مشاعر صادقة وأشواق سامية كتلك التي نجد دلائلها في قصيدة :

« الرحلة . . . إلى بلاد الأشواق » ميمية ابن القيم .

وقبل أن نشرع في عرض القصيدة وتحليلها عشيئة الله نقدم بين يديها هذا الفصل في استكشاف جو القصيدة ومعرفة المشاعر التي سيطرت عليها وشاعت في حناياها . كما نفسر في هذا الفصل سر اختيارنا للاسم الذي سميناها به وهو : - « الرحلة إلى بلاد الأشواق » .

* * *

جو القصيدة وسبب التسمية

تسيطر فكرة الغربة والاغتراب على الإمام ابن القيم سيطرة تامة وتستولى عليه مشاعر هذه الغربة استيلاءً عظيماً . وشواهد هذه السيطرة وهذا الاستيلاء مبثوثة في معظم كتبه وفي حنايا شعره . وتلك جولة نتتبع فيها دلائل هذه الغربة معه .

ولنستمع إليه في البداية يعبر عن هذه الغربة في صديق ومعاناة يقول :

« إن الناس كلهم في هذه الدار غرباء فإنها ليست لهم بدار مقام . ولا هي الدار التي خلقوا لها . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل » (٢) وهكذا هو في نفس الأمر ؛ لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه جق المعرفة . . ولي من أبيات في هذا المعنى :

وحيّ على جناتٍ عدنٍ فإنها.....	منازلُك الأولى وفيها المقيمُ
ولكننا سبى العدو فهل ترى	نعودُ إلى أوطاننا ونسلّمُ
وأى اغتراب فوق غربتنا التي	لها أضحت الأعداءُ فينا تحكّمُ ؟
وقد زعموا أنَّ الغريبَ إذا نسأى	وشطّطَ به أوطانه ليس بنعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة	من العمر إلا بعد ما يتألّم .

(١) يعنى الدنيا .

(٢) الحديث رواه البخارى في صحيحه (٨/١١٠) باب قول النبي صلى الله عليه

وسلم : « كن في الدنيا كأنك غريب » .

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريباً ، وهو على جناح سفر
لا يحمل عن راحلته إلا بين أهل القبور ؟ (١) .

وهكذا نلمس شدة إحساس الشاعر ومعاناته من الاغتراب نثراً
وشعراً .

وإنه ليترقى في درجات شعوره بالغربة حتى يصل إلى درجة
لا يحملها علم ولا يظهرها وجد ، ولا يقوم بها رسم ولا تطيقها إشارة
ولا تشملها عبارة . وهي أشد الغربة (٢)

ويصف حالة هذا الغريب فيقول :

إن أبناء الدنيا لا يعرفونه ؛ لأنَّه ليس منهم . وأهل الآخرة
- العباد الزهاد - لا يعرفونه ؛ لأنَّ شأنه وراء شأنهم فهو يرى الناس .
والناس لا يرونه .

كما قيل :

تسترت من دهرى بظلِّ جناحه فعيني ترى دهرى وأيسر يرانى
فلو تسأل الأيام : ما اسمي ؟ لمادرت وأين مكاني ؟ ما عرفن مكاني

وهو يرى أن هذه الغربة ملازمة للإنسانية منذ بدء الخليقة فيقول :

(ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن
أحواله ، ولم يقل لأبيه « اخرج منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها) .

(١) مدارج السالكين (٢٠٠/٣ ، ٢٠١) مكتبة السنة المحمدية .

(٢) السابق (٢٠٥/٣) بتصرف يسير .

بل إنها وراء حكمة الكون التي من أجلها خلق الله آدم وذريته
 « فأراد الله سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه
 جنة الخلد ، وعلم سبحانه بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره ؛ قد
 يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس .

فإن النفس مولعة بحبِّ العاجلة وإيثارها على الآخرة ؛ فاقتضت
 حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذي أعدَّ له عياناً فيكون إليه
 أشوق وعليه أحرص وله أشد طلباً ؛ فإن محبة الشيء وطلبه والشوق إليه
 من لوازم تصوره ، فمن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به لم يكد صبر
 عنه (١) وهذا لأن النفس ذواقة تواقه فإذا ذاقت تاقّت فاقتضت
 حكمته أن أراها أباهم وأسكنه إياها ، ثم قصَّ على بنية قصته فصاروا
 كأنهم مشاهدون ، لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت
 له وسارع إليها فلم تُثنه عنها العاجلة بل يعدُّ نفسه كأنه فيها ، ثم سباه
 العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم الحنين إلى وطنه ولا يقرله قرار
 حتى يرى نفسه فيه .

كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
 كم منزل في الأرض يألوه الفتى وحينه أبداً لأول منزل

(١) سوف تجد صدى هذا الشعور الجارف في القصيدة .

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١٠/٩ - ١٠) .

ولى من أبيات بهذا المعنى :

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم»

هذا النص من كتاب مفتاح دار السعادة يبين لنا بواعث الغربة عند ابن القيم بعد أن عاش اللذة في المنزل الاول - بحسب تعبيره - وذاق حلاوتها فلما أهبط من منزله الاول (في صورة أبيه آدم) لم يفارقه الشوق ، ولم يغادره الحنين ؛ ولهذا فإنه دائم التطلع إلى دياره الأولى يتعلق بها أشد التعلق . ويكابد من أجل الوصول إليها المشاق والمخاطر .

وبهذا تنتقل مع الشاعر من مرحلة الشعور بالغربة ومعاناة الاغتراب إلى مرحلة الأشواق والحنين وهذا ما يعبر عنه في قصيدة أخرى فيقول :

منازلا كان يهواها ويألفها	أيام كان منال الوصل عن كُتِّب (١)
فكلما جُلِّيت تلك الربـوع له	يهوى إليها هوى الماء في صَبَب (٢)
أحيا له الشوقُ تذكّار العهودِ بها	فلودعا القلبَ للسُّلوان لم يُجِب (٣)
هذا وكم منزل في الأرض يألّفه	وما له في سواها الدهر من رغب (٤)
ما في الخيام أخو وجد يُريحك إن	بَثَّتْه بَعْضُ شَأْنِ الحُبِّ فاغترب (٥)

(١) كتب : قرب .

(٢) جليت : أظهرت . ويهوى إليها هوى الماء في صبيب يعنى يسقط إليها متدفعا كالماء المسكوب .

(٣) السلوان . دواء يسقاه الحزين فيسلو أى ينسى (لسان العرب ٢٠٨٥/٣) دار المعارف .

(٤) رغب : إرادة .

(٥) وجد : حزن . بثته : بث الخبر أى نشره (مختار الصحاح ص ٤٠) .

إن التجربة والمعاناة تلح على الشاعر إلحاحاً عظيماً . وفي هذه
الآبيات نلمس مدى الاشتياق والتعلق بالمنازل الأولى ومدى الشعور
بالاغتراب حتى إنه لا يجد من يبت إليه بعض شأن الحب ، الحب
العظيم الذى ملأ قلبه وفاض على جوارحه والشوق والشعور بالاغتراب
يقوده إلى الرحلة . . .

وأسر في غمرات الليل مهتدياً بنفحة الطيب لبالنار والحطب (٣)

ويقول : ولو تنقلت الروح في المواطن كلها والمنازل لم تستقر
ولم تطمئن إلا في وطنها ومحلها الذى خلقت له .

وإذا كانت الروح تحنُّ أبداً إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره
مقامه في السكنى وكثيراً ما يكون غير وطنها أحسن وأطيب منه ،
وهي دائماً تحنُّ إليه مع أنه لا ضرر عليها ولا عذاب في مفارقتها
إلى مثله .

فكيف بحنينها إلى الوطن الذى في فراقها له عذابها وآلامها
وحسرتها التى لا تنقضى . فالعبد المؤمن في هذه الدار سبي من الجنة
إلى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه
إلى داره التى سبي منها وفرق بينه وبين من يحب وجمع بينه وبين
عدوه . فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن وبدنه في الدنيا . وكلما أراد
منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحاً وإيلافه وطناً غيره
أبت ذلك روحه وقلبه كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم... وتبني الطباع على الناقل

ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار أين حل منها فهو في دار غربة.

وقد يأخذ الشوق والالتياح إلى بلاد الاشواق عند ابن القيم صورة أخرى . فنراه يهيم حباً وشوقاً بالبيت الحرام كما في كتابه القيم زاد المعاد (١) :

« ولقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص (أى تفضيل البيت الحرام على سائر البقاع) في انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد .

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس أى يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطراً (١) بل كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له اشتياقاً .

لا يرجع الطرف عنها حين ينظرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقاً ثم تزداد هذه اللوعة حدةً فيقول في عاطفة حارة :

« فله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم أنفق في حبها من الأموال والأرواح ورضى المحب بمفارقة فلذ الأكباد والأهل والأحباب

(١) المطبعة المصرية (٩/١) .

(١) الوطر : الحاجة والجمع أوطار، وقضيت وطرك إذا نلت بغيتك وحاجتك المصباح المنير ١٠٢٩ .

والأوطان مقدماً بين يديه أنواع المخلوف والمتالف والمعاطب والمشاق .
وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ويراه أو ظهر سلطان المحبة في قلبه
أطيب من نعيم المتحلية (١) وترفعهم ولذاتهم

وليس محباً من يعد شقاءه عذاباً إذا ما كان يرضى حبيبته (٢)

ونلاحظ أن طبيعة الشوق إلى بلاد الأشواق وإلى البلد الأمين
واحدة وإن اختلفت الصورة في كل منهما ؛ وذلك لأن الباعث إلى
الاثنين هو محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والقصيدة تجمع
بين الشوقين في براعة فنية وصدق .

ثم يأخذ الشوق عند الشاعر مظاهره العملية فنراه يعزم على مفارقة
دار الغربية ، راكباً مطايا الأمل ، مقتحماً المشاق في سبيل الوصول
إلى بلاد الأشواق .

« فالناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين وليس لهم حظٌّ عن رحاظم
إلا في الجنة أو النار . والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب
الأخطار ، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة إنما ذلك
بعد انتهاء السفر .

ومن المعلوم أن كل وطأة قدم (٣) أو كل آن من آنات (٤)

(١) تحلت المرأة : لبست حلياً أو اتخذت حلياً ، وتحلى بالحلى أى تزين ويقال
امرأة متحلية .

(٢) زاد المعاد (٩/١) .

(٣) وطأة قدم :

(٤) آن : وقت من أوقات السفر .

السفر غير واقفة ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل وإذا نزل ، أو نام ، أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير » (١) .

فلا بد من السفر وتخطى الصعاب . ولا بد من الاستعداد . إنها فكرة السفر إذن التي تلح على الشاعر بعد أن سيطر عليه الشعور بالغربة وبعد أن هزه الشوق إلى بلاد الأفراح . . . استمع إليه !

« الناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على من يسر بالنزول عليه . وطالب الله والدار الآخرة ، إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه فهذه همته في سفر وفي انقضائه .

« يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي * » . (٢)

ومما يؤكد لك مدى استغراق الإمام ابن القيم في شعوره بالغربة وتعلق أشواقه ببلاد الأفراح وعزمه على السفر أن تنظر في اختياره لأسماء كتبه فترى معظمها يدور حول هذا المحور : محور الرحلة والتشوق والسفر فكتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » يعرض لك في عنوانه القافلة يحدوها الحادى وهى تواصل المسير في شوق الوصول !

(١) الفوائد لابن القيم صفحة ١٩٠ . مكتبة الرياض الحديثة .

(٢) سورة الفجر الآيات ٢٧-٣٠ .

وكتاب « زاد المعاد » وثيق الصلة بالرحلة حيث الحاجة إلى الزاد .
وكتاب طريق المهجرتين ألفه لبيان وجوب الهجرة إلى الله
والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم . بما توحى الهجرة من مفارقة
الأوطان ومعاناة الأخطار في سبيل الوصول .

وكتاب « مدارج السالكين » يوحى اسمه بالرحلة والسير الذى
تقطع فيه المراحل حتى يصل السالك إلى أعظم الدرجات ، إذن فالرحلة
عند ابن القيم فكرة جوهرية نشأت عن شعوره الحاد بغيبته في الدنيا
وأثارها شدة شوقه إلى بلاد الأفراح والأشواق .

يقول ابن القيم :

« يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة . قد رُفِعَ لك علم
فشمِرْ إليه فقد أمكن التشمير » .

« فتعلق بحبل الرجاء وادخل في باب التوبة والعمل الصالح
إنه غفور شكور ، نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها وعرفه
طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها (١) ويصف حال الفقير الخالص
بكليته لله تعالى سبحانه فيقول : « مسافر في ليله ونهاره ويقظته ومنامه ،
لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه ، قد رفع له علم
الحب فشمِرْ إليه ، وناداه داعى الاشتياق فأقبل بكليته عليه ، أجاب
منادى المحبة إذ دعاه حى على الفلاح ، ووصل السرى (٢) في بيداء

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ٢٤٢ . دار الكتب العلمية .

(٢) السرى : جمع سرية وهى قطع الليل بالسير . المصباح المنير ٤٢٠ .

الطلب ، فحمد عند الوصول سراه ، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح (٣) .

وبعد أن تتبعنا تطور الفكرة من شعور باغتراب إلى شوق وحنين ثم إلى سفر ومسير . . . يقول :

« إن السير هو عمل المسافر . وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعائر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح . وبقي عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافراً في الطريق قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ، ومواصلة الشد ، والرحيل ، وعدّها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول ، فيحدث لها ذلك نشاطاً وفرحاً وهمة ، فهو يقول : يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقى . فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الأحبة فإن صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة وتلقّتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة ، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله لا تنقطعي (١) في المفازة فهو والله الملاك والعطب لو كنت تعلمين . فإن استصعب عليه فليذكر هاما أمامها

(٣) طريق المهجرتين وباب السعادتین ص ٤٨-٤٩ . المطبعة السلفية .

(١) الحديث لا يزال موجهاً إلى النفس .

من أحببها وما لديهم من الإكرام والإنعام وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء . فإن رجعت في إلى أعدائها رجوعها وإن تقدمت في إلى أحببها مصيرها وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها ، فإنهم وراءها في الطلب ، ولا بد لها من قِسمٍ من هذه الأقسام الثلاثة ؛ فلتختر أيها شاءت . وليجعل حديث الأُحبة حاديها وساقبها ونور معرفتهم ، وإرشادهم هاديها ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها ، وشرابها ، ودواءها ، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره ، ولا يغتر بكثرة المنقطعين ، فالَم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ؟ ! وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هي من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتلقون يهنئونه بالسلامة ، والوصول إليهم .

فيا قرة عينه إذ ذاك ويا فرحته إذ يقول :

« ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين » (١) .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع ، وذوب النفس ، وببطء سيرها ، فكلما أدمن على السير وواظب عليه غدواً ورواحاً ، وسَحراً ، قرب من الدار ، وتلطفت تلك الكثافة ، وذابت تلك الخبائث ، والأدران ، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته أنساً ، وكثافته لطافة ، ودرنه ظهارة (٢) .

(١) اقتباس من سورة يس الآية ٢٦-٢٧ .

(٢) طريق المهجرتين ص ١٧١-١٧٢ .

على هذا النحو . . . وبهذا الأسلوب العذب . . . والمناجاة الصادقة .
نتعرف روح ابن القيم ونكتشف شيئاً من أعماقها وأغوارها .

إنه يمدنا بتفصيلات نفسية دقيقة وعميقة . . نتدرج معه درجة
بعد درجة ونعيش معه ونعاين الطريق . . ومسارب الطريق حتى
تطوى المسافات وتبدو الخيام . . وبيناً حينذاك بالسلامة وفرحة
الوصول .

إنه يشركنا معه في سيره وطريق سفره . يتعهدنا بالنصائح
والتوجيهات التي لا يستغنى عنها مسافر . .

ألسنا جميعاً مسافرين كما يرى الإمام ابن القيم وذلك منذ أن
استقرت أقدامنا في هذه الدار . فنحن مسافرون فيها إلى ربنا . . ومدة
سفرنا هي أعمارنا التي كتبت لنا .

ورحلة السفر لا تخلو من مصاعب . . لا بد من تخطيها في صبر
ولا يعين على هذا الصبر إلا شعور بالمحبة التي هي مطايا المسافرين .
والشعور بالمحبة في غاية الأهمية في رصدنا وكشفنا لطبيعة السفر
عند ابن القيم . لأن المحبة هي الوسيلة والغاية في آن .

كل هذا وأعمق منه بكثير يلوح لنا ظاهراً أو خافياً من أسلوب
ابن القيم العذب الجميل . الذي ينفذ ويتغلغل في أعماق النفوس ..
ويستلب المشاعر .

إن الغربة التي أحسها الشاعر قادته إلى الشوق ثم حثه الشوق
على الرحلة والسفر كل هذا في شعور بالمحبة السامية القدر، الجلييلة الشأن .

وكما أن الشوق يأخذ عند الشاعر صورا عدة كالشوق إلى بيت الله ، والشوق إلى جنة الله والحنين إلى لقاء الله سبحانه ونعمة النظر إلى وجهه الكريم كذلك تأخذ المحبة صورا التي تلتقي في بؤرة واحدة وتصب في معين واحد .

فقد يهيم الشاعر حباً ببيت الله . . وقد يهيم حباً بالحدور العين فتراه يتفنن في وصف حسنهن والتشويق إلى الوصول إليهن فيقول :-

يا خاطب الحدور الحسان وطالبا لوصالهن بجنة الحيوان (١)

لو كنت تدري من خطبت ومن طلبت بذلت ما تحوى من الأثمان
أو كنت تعرف أين مسكنها جعلت السعى منك لها على الأجفان

أسرع وحث السير جهدك إنما مسراك هذا ساعة الزمان

ثم ينقلنا إلى جو الرحلة بعد التمهيد بذكر المحبة :

واجعل نعوت جماها الحادى وسر نحو الحبيب ولست بالمتوانى

بل إنه ليمزج حبه بالبيت الحرام ، ولذته بالطواف حوله

بحبه للحدور العين والجنان فيقول :

(١) الحيوان : اسم يقع على كل شىء حى ، وسمى الله عز وجل الآخرة حيوانا فقال : « وإن الدار الآخرة لى الحيوان » .

قال قتادة : هى الحياة (لسان العرب (١٠٧٧/٢) .

يا من يطوف بكعبة الحسن التي حُفَّتْ بِذاك الحجر والأركان (١)
ويظل يسعى دائماً حول الصفا ومحسر مسعاه كل أوان
ويروم قربان الوصال على منى والخيف يحجبه عن القربان (٢)
فلذا تراه محرمًا أبداً وموضع حلسه منه فليس بـ«سدان»
وهكذا يستعير مصطلحات الحج والطواف في هذا المقام مما يدل
على شدة تعلقه وعظمة محبته فيقول :

يبغى التمتع مفرداً عن حبه متجرداً يبغى شفيع قران
ويظل بالجمرات يرمى قلبه هذى مناسكه بكل زمان
والناس قد قضوا مناسكهم وقد حثوا ركائبهم إلى الأوطان
وَحَدَّتْ بِهِمْ هَمُّهُمْ وَعِزَائِمُ نَحْوِ الْمَنَازِلِ رَبَّةُ الْإِحْسَانِ
إنها الرحلة أيضاً ، وحث الركائب ، وحذاء الهمم ، وشحن
العزائم للوصول إلى منازل الإحسان .

رفعت لهم في السير أعلام الوصال فشمروا يا خيبة الكسلان
ورأوا على بعد خياماً مشرفات مشرقاً النور والبرهسان
فتيمّموا تلك الخيام فآنسوا فيهن أقمساراً بلا نقصان «
نحن إذن أمام شاعر ليس كأحد من الشعراء . إنه إنسان محب
صادق الحب لا يفتر لحظة عن إعلان هذا الحب بكل وسيلة

(١) الحجر : حطيم مكة وهو المدار بالبيت . المصباح ص ١٩٠ .

(٢) الخيف : هو مسجد الخيف بمكة . المصباح ص ٢٨٧ .

صديقة معبرة . إنسان له أشواقه وله طموحاته التي لاتحدها دنيا محدودة بل تتسع لها آفاق السماء .

وسوف يتضح لنا ذلك كله وأكثر منه في استعراضنا لقصيدته العظيمة التي أسميناها « الرحلة إلى بلاد الأشواق » .

والآن لعلنا قد وقفنا على سر تسمية القصيدة بهذا الاسم . وأدركنا أنها ليست غريبة على روح شعر ابن القيم ولا بعيدة عنه ، فهي تعبر عن قيمة أصيلة عنده وفكرة محورية قد تصلح أن تكون مفتاحاً لشخصيته الإنسانية العظيمة .

والشطر الأخير في العنوان المختار قد اقتبسته من تسمية ابن القيم نفسه لكتابه الذي ألفه في هذا الشأن .

« حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » على أن تعرف أن بلاد الأفراح ما هي إلا الصورة الرمزية والمعادل الموضوعى لأشواق الإمام ابن القيم إلى الوصول إلى أشرف الغايات وأعلى الدرجات . كما سنرى في القصيدة إن شاء الله .

وفي القصيدة سوف يأخذنا الشاعر إلى رحلة أشواقه يشركنا معه في رحلته ، يأخذ بأيدينا حيناً ، ويناجينا أحياناً ، ويحذرنا من مخاطر الطريق تارة ، ويصبرنا على مشاقه تارات . فيكون لنا نعم الحادى الأمين ، والدليل الصادق الذى يأخذ بيد قافلته المتعبة المتغربة إلى النجاة والوصول .

« القصيدة »

استعراض عام

« الرحلة إلى بلاد الأشواق » أو القصيدة الميمية لابن القيم قصيدة زاخرة بمشاعر الشوق والحنين والرغبة ، فوراء كل كلمة يقبع إنسان يعانى ويتألم ويشتاق ، والقصيدة كذلك غنية بصورها وظلالها : كلماتها مكثفة بإيحاءات جمّة تثير فى النفوس من المشاعر ما تثير ، صورها حية - تقدم لك المشهد فتتمثله أمامك حياةً كاملة فيها الحركة ، وفيها الدفء ، وفيها الجمال .

والقصيدة طويلة . . ولكنها متلاحمة ، متجانسة أحسن ما يكون التلاحم والتجانس ، تناسب فيها عاطفة عارمة قد تأخذ صوراً متعددة وأشكالاً متتابعة ولكنها - أبداً - لا تفقد وحدتها وتجانسها .

فمنذ مطلع القصيدة سترى أنك قد انتقلت من دنياك جميعاً إلى صحبة عاشق متم ، أضناه الشوق وعذبه الوجد

« إذا طلعت شمس النهار فإنهم..... أمارة تسليمى عليكم فسلموا »
تقرأ هذا البيت فإذا أنت معه بقلبك وكيانك . وإذا أنت تتأمل معه حركة طلوع شمس النهار التى يرتقبها الشاعر ارتقاباً فى هفة وانتظار . . لماذا ؟

لأنها هى علامة التسليم ، وآذان الوصول ، فلا يبقى لك إلا أن تنتظر مع الشاعر رد التحية والسلام ، ثم تقطع شوطاً مع الشاعر فتقف

على شئ من سر تشوقه وأسباب التبعاعه ، فإذا السرُّ محبةُ أسرة ، بلغت من القوة حداً يضعف القلب عن تحمله . وأى قلب ؟ إنه قلب محبٌ رقيق لا يتحمل مس القميص ، ولكن الله برحمته يلفظ بهذا القلب فيجعله يخضع ويستكين لصولة تلك المحبة فيتقدم في إذعان ودونما تلعم !

وقد ذلل الله سبحانه لتلك المحبة نفوساً - ومنها نفس شاعرنا - تأنف الذلة لغير تلك المحبة بل ترى المنايا أهون لها من أى ذلة لغير تلك المحبة العظيمة .

فيا أيها الأحباب هل تشفقون لحالى ؟ وهل تسمعون مقالى ؟ إنكم أنتم أحببنا فى كل حال من قرب الديار بعدها . وإنكم أنتم أحببنا فى كل حال من مغيب وحضور .

وكما كان طلوع شمس النهار أمارة التسليم ، فإن انتشار نسيمات الريح هى شهادة تلك المحبة والصباية والشوق ، بل إنها - أى نسيمات الريح - تقوم عن الشاعر بمهام عديدة فتتحمل عذابات تلك المحبة وتنشر أحاديث الوجد وأسرار الشوق ، فإذا واصلت السير مع الشاعر مرحلة أخرى ستشفق عليه وتأنى لحاله وأنت تراه يعلى نفسه ويخادعها بآمنيات التلاقى والوصال سالكاً فى سبيل هذا طرقات شتى من الوهم والتوهم والإيهام .

فهل يفلح فى هذا ؟

فليجرب وسيلة أخرى وليتبع طرفه وجهة الأحباب ، فيسائل

عنهم كل غاد ورائح . وليومئذ إلى أوطانهم في ترقب واستطلاع دائم .
وأخيراً فليجرب ذلك الدواء الأخير . . « الصبر » !
« وكم يصبر المشتاق عمن يحبه وفي قلبه نار الأسى تتضرم »
أين نحن الآن ؟

لقد وصل بنا الشاعر - في رحلته النفسية - إلى هذه الغاية فهل
يتروكنا عندها ؟

كلا وإنما ينقلنا فجأة إلى مشهد آخر يحسبه المتعجل بعيداً عن
الغاية التي وقفنا عندها ، ويراه المتأمل مناسباً لها كل المناسبة ،
ومكملاً لها في رحلة الصعود والارتقاء .
إنه مشهد الحبيب !

ويا له من مشهد زاخر بالحركة والدفء والحياة ! إنه تمثيل صادق
وحي لرحلة إلى الله ، تتعانق فيها المحبة مع التلبية مع الرضى .

ويبدأ المشهد بعرض صورة حية للمحبين وقد كشفوا رؤوسهم
وهم يهلون بالتلبية رضى ، ومحبة ، وقد فارقوا أوطانهم وغادروا
لذاتهم وجاءوا من الأقطار والفجاج في تسليم مطلق لرب العالمين .
إنها رحلة روحية تنسى فيها الآلام ويرتحل النصب كأن لم يكن له
وجـود .

ولكن إذا زالت آلام الجسد برؤية البيت الحبيب . فهل تزول
معاناة القلوب . ؟

فلله كم من عبرة مهراققة وأخرى على آثارها لا تقدم
وقد شرقت عين المحب بدمعها فينظر ما بين الدموع ويسجم

انظر إلى روعة التصوير ، ورسم المشاهد ببراعة فائقة ، فهذه عبرة
(دمة) تسيل لم يستطع صاحبها أن يكفكفها ، أما أختها فهي واقفة
على عينه لا تزال - لا تتقدم استحياء ، وهى كذلك لا تستطيع
أن تتأخر ، فتبقى فى عين المحب تستقبل أخوات لها حتى تشرق
عينه بالدموع .

وهذا يرسم لك مشهداً معبراً غاية التعبير ، إن المحب لا يذرف
الدموع هنا ولا يجهش بالبكاء ، إنه موقف نظر وتأمل لا موقف
عويل وبكاء فلم يقل إن الدموع تنهمر من عينه انهماراً وإنما صورها لنا
كما صور بين دمعته تسيل ، ودمعة تخجل وتستحي ، ولأن المحب هنا
لم يقصد للبكاء وإنما غلبته هذه العبرة المهرقة فكأنه لم ينتبه إليها !
ثم يريد أن ينظر ، فيرى المشاهد أمامه ولكن من خلال دموعه التى
يبدو وأنها زادت الآن جداً ، ويبدو أنه لم يعد يستطيع كفها عن السيلان .
وتخيل هذه الرؤية المنبهمة ، من خلال الدموع ، ترى البيت تتماوج
صورته من خلال طبقة الدموع الشفيفة ، وفتواصل العين معاينة البيت
حتى يزول ظلامها . وليواصل القلب الكثيب الطواف حوله حتى تزول
آلامه جميعاً ، ولن تشبع العين من المعاينة ، ولن يمل الفؤاد من الهيام
حتى تمتلئ العين حسناً ويزداد الفؤاد اشتياقاً « والشوق أعظم »

فإذا ساءلنا الشاعر وقانا : لماذا كل هذا الحب ؟ لأجاب على الفور

بقوله :

ولا عجب من ذا فحين أضافه إلى نفسه الرحمن فهو المعظم
كسائه من الإجلال أعظم حيلة عليها طراز بالملاحظة معلم

لقد عظم البيت في عين المحب لما علم بإضافته إلى الرحمن .
وكفى بهذه الإضافة شرفاً ، وكفى بها تعظيماً .

ولنواصل الرحلة .. رحلة أشواق ؛ معالمها المجسدة رموز لمعالم
طريق مضى ..

ويتخذ الشاعر من ذكر عرفات ، ومزدلفة ، ورمي الجمرات ،
والنحر وزيارة البيت العتيق ، وسيلة للتعبير عن أشواقه العارمة .
ونراه يلح في استدعاء هذه الرموز باعتبارها مظاهر محبته دلائل
أشواقه ..

والشاعر يربط هذا كله برحلته الروحية ربطاً وثيقاً ، فموقف
عرفات : تجسيد وتقريب لموقف العرض الأكبر - مع التنبيه على
أن يوم العرض أخطر وأعظم .

ويأخذ من الحديث عن وقوف عرفات مناسبة للحديث عن رحمة
الله عز وجل ، ومباهاته بعباده ، وإشهادهم بتعميم المغفرة ، والفضل
والعطاء .

ويقدم لنا - في هذا السياق - صورة مكثفة حية تملأ على النفس
أقطارها في مشهد رائع وجليل .

إنه بيت واحد في القصيدة ولكنه عرض متكامل لحالات شعورية
متدة تقف أمامها النفس في انبهار !

فكم من عتيق فيه كمل عتقه وأخر يستسعى وربك أرحمهم

أرأيتم . ؟ هذه صورة العتيق كمل عتقه الآن ، فلا تملك النفس هنا إلا أن تتساءل : كيف كمل هذا العتيق . ؟ ومتى بدأ ؟ وكم عانى صاحبه في الحصول عليه ؟

ولكن المشهد يرينا حركة تكميل العتيق الآن ويترك للخيال أن يتأمل المشهد من بدايته ، ويصمت حيث يكون الصمت أبلغ من الكلام ، وحيث تكون الإشارة أجدى من التفصيل .

وتلك صورته !

ولكن هنالك صورة أخرى ، لإنسان آخر لم يكمل عتقه بعد ولكنه ما يزال (يستسعى) بما توحى الكلمة من جد وكد ومعاونة ورغبة في الخروج إلى الحرية والنجاة ! ولا تملك النفس إزاء هذه الصورة إلا الترقب لحركة السعى (هل سيوفق في سعيه ويحظى بالنجاة ؟) ولا تملك إلا الشفقة بل تكاد تمد يدها لمساعدة هذا المسكين الذى أضناه السعى .

وهنا أيضاً يُترك للخيال أن يكمل بنفسه المشهد حتى نهايته !
وتلك صورة أخرى .

ولكن وراء هذا المشهد الحى المؤلف من الصورتين خلفية تدور أمامها الأحداث وتظل تلك الأحداث والصور بجوها الخاص .
رسم لنا الشاعر هذه الخلفية بكلمتين : (وربك أرحم) فتظل الرحمة - رحمة الله - هذا المشهد جميعاً ، وتكون وراء صورة العتيق الذى ظفر الآن بكامل حريته ، وأولاه ما ظفر بهذا ابداً ، وتكون مع الإنسان الآخر

الذى يستسعى ويعانى تأخذ بيده وتعد وتصبره حتى ينال الظفر
والنجاة !

* * *

ثم نواصل الرحلة مع الشاعر ولكن ليس قبل أن يعرض علينا
مشهداً طريفاً فيه ترويح للنفوس وإذهاب لبعض همومها ، إنه مشهد
الشیطان مغتاضاً ، حقيراً ، يحثو التراب ويلطم وجهه من شدة
المرارة والتحسر ، وما ذلك إلا لما (عاينت عيناه من رحمة أتت ،
ومغفرة من عند ذی العرش تقسم) وما له لا يبکی ویتحسر وقد خاب
سعيه . وانهدم بنيانه الذى قضى العمر فى بنائه - على رأسه ؟

وإليكـم الصورة نفسها لأنها - حقيقةً - تتأبى على الوصف والشرح

وما رأى الشيطان أعيظ فى الورى	وأحقر منه عندها وهو الأَم
وذاك لأمر قد رآه فغاضه	فأقبل يحثو التراب غيظاً ويلطم
وما عاينت عيناه من رحمة أتت	ومغفرة من عند ذی العرش تُقسم
بنى ما بنى حتى إذا ظن أنه	تمكن من بنيانه ، فهو محكم
أتى الله بنياناً له من أساسه	فخرً عليه ساقطاً يتهدم
وكم قدر ما يعلو البناء وينتهى	إذا كان يبنيه وذو العرش يهدم ؟

* * *

ولإنجاح هذه الصورة الكلية البارة لانموذج الشيطان عوامل
شتى . جعلت منها مسرحاً للمشاعر ومعرضاً للحركات .

فهذا الشيطان مغتاز أمامنا لا يرى أغيط منه ولا أحقر . لماذا ؟

لقد ظل السنين بل الدهور يضع اللبنة فوق اللبنة ، ويقود أصحابه للهلاك خطوة بعد خطوة ، فلما حسب أن بناءه قد تم ، وأن فريسته قد سقطت ، ما يكاد ينعم لحظة بسعاده ، فهذا بناؤه ينهدم فوق رأسه وهذه فريسته تفلت من بين يديه !

ولا يفوتنا أن نلاحظ كيف استفاد ابن القيم من التصوير القرآني فقلوه (أتى الله بنيانا له من أساسه) مقتبس من قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » (١) .

ولكنه لم ينقل الصورة القرآنية نقلا حرفياً بل أضاف إليها إضافة تناسب المقام هنا فجعلنا نرى البنيان - بعد أن أتاه الله من قواعده - يسقط على من قضى عمره في بنائه ، ويتهدم على رأسه هو من دون الناس جميعاً ليكون ذلك أبلغ في الحسرة وأمعن في المراجعة .

وكم قدر ما يعلو البناء وينتهى إذا كان يبنيه وذو العرش يهدم ؟

وهكذا يجيء الختام - ختام المشهد - في حكمة حاسمة لا تخلو من تصوير لحركة البناء والهدم .

ولا يخلو من إثارة مشاعر التهكم بهذا الشيطان ، وأمثاله ممن يريدون ليطفئوا نور الله والله مقيم نوره ولو كره الكافرون .

وقد يقول قائل إن هذا البيت الأخير مأخوذ من قول الشاعر
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
ولكنه - أى هذا القائل - لن يستطيع أن يمارى فى أن ابن القيم
قد وظف الفكرة هنا توظيفاً جديداً فى ختام مشهد طريف .

وأخيراً فإن فى الصورة جواً من السخرية فى تصوير الشيطان ،
كما نلاحظ المفارقة بين فرحته العارمة بإتمام جهوده ورؤية بنائه
مختلاً فخوراً ، ثم فى لحظة يختر البنيان فوق رأسه إذ أنعم الله على
عباده بالغفـران .

ولنواصل الرحلة !

* * *

ها هم المحبون قد راحوا إلى الجمع ، وباتوا بالمشعر الحرام ، وصلّوا
الفجر ، وهامهم يتقدمون يحدوهم الشوق إلى الجمرة الكبرى ، ليرموا بها
الشيطان - ذلك الذى تركناه فى المشهد السابق مغتاضاً حسيراً - وهامهم
يصلون العيد بصدور منشرحة ، ثم يتوجهون للنحر ، فإذا نحن فى موقف
جديد ، وأمام مشهد فريد ، ورغم جدته وتفردّه إلا أن الشاعر يكون
قد مهد له أحسن التمهيد . إنه مشهد النحر ، وكما عودنا الشاعر فإنه
لن يلمح فى هذا المشهد ولن يعرض منه إلا ما ينمى به رحلته الروحية ،
فالنحر هنا رمز للخضوع والطاعة ، والرغبة فى الفداء والاستشهاد .
فلو كان يرضى الله نحر نفوسهم لدانوا به طوعاً وللأمر سلّماً

ويربط الشاعر هذا الموقف بموقف آخر قريب منه ، وإن كان أرقى منزلة . . . فيقول :

كما بذلوا عند الجهاد نحو رهسـم لأعدائه حتى جرى منهم الدّم

فإذا كان المحبون هنا - في موقف النحر - يشتاقون لبذل نحورهم بدلاً من النعم ، فإنهم في موقف الجهاد يجودون بها حيث يجري منهم الدم الزاكي دليل محبة وآية أخـلاص .

ثم يعود مرة أخرى لموقف الحج حيث يقدمون دليلاً آخر للمحبة وآية أخرى للإخلاص تناسب موقف الحج .

ولكنهم دانوا بوضع رؤوسهم .

وهكذا نرى الانتقال السريع بين المشهدين ، فإذا هما مشهد واحد . يلتقى فيه دم الأنعام بدم المحبين ، وقطع الرؤوس بوضع الرؤوس حتى ليحق للنفس أن تتساءل : هل نحن في موقف الحجيج لا نزال أم نحن في ساحة الجهاد ؟ ! ثم ها هم يقضون نفثهم ويوفون بنذورهم ويطفون بالبيت العتيق ملبيين دعوة رب البيت زائرين .

(فيا مرحباً بالزائرين وأكرم)

ويا لها من زيارة بهية ، تحصل فيها الجوائز ، وتقسم فيها الفضائل :

ولله أفضال هناك ونعمــــــــــــــــة وبر ، وإحسان ، وجود ، ومرحم

والآن بعد أن تزودوا من أفضال الله ونعمه ، ونالوا المنى والنعم .

وعادوا إلى تلك المنازل من منى ونالوا منها عندنا وتنعموا .

إذا نحن - معهم - في مشهد جديد :

أقاموا بها يوماً ويوماً وثالثاً..... وأذن فبهم بالرحيل وأعلموا
وراحوا إلى رمى الجمار عشية شعارهم التكبير ، والله معهم
فلو أبصرت عينك موقفهم بها وقد بسطوا تلك الأكف ليُرحموا
ينادونه يارب ! يارب ! إننا عبيدك لا ندعو سواك وتعلم
وها نحن نرجو منك ما أنت أهله فأنت الذى تعطى الجزيل وتنعم

والمشهد يتجلى للعين بعد أن هيئته لها الأذن .

لقد سمعوا آذان الرحيل بعد إقامة ثلاثة أيام ، فتوجهوا على
إثر ذلك إلى رمى الجمار ، شعارهم التكبير ، وقلوبهم مع الله ، والله معهم .

وهكذا يجتمع فى المشهد ما يثير السمع والبصر فى آن ، وما يدعو
النفس إلى المشاركة فيه من نداء ودعاء (يارب ! إننا عبيدك لا ندعو
سواك وأنت تعلم ذلك لا يخفى عليك شيء ، سبحانه أنت العليم الخبير)
فالمشهد يزداد وضوحاً وشخوصاً وحياة .

فلو أبصرت عينك موقفهم بها وقد بسطوا تلك الأكف ليُرحموا
ينادونه : يارب .. يارب : إننا عبيدك لا ندعو سواك وتعلم

فترى العين حركة بسط الأكف لطلب الرحمة ، وتسمع الأذن
ذلك النداء الحثيث : يارب ... يارب يفيض خشوعاً ورغبة وتضرعاً .

ثم ماذا بعد أن نالوا مناهم وتنعموا فى « منى » ولم يبق إلا وشك

الرحيل..... ؟

ولما تقصّوا من منى كل حاجته وسالت بهم تلك البطاح تقدموا
إلى الكعبة البيت الحرام عشية وطافوا بها سبعاً ، وصلوا ، وسلّموا

وإذا كانت العبارة مأخوذة عن بيتين قديمين قيلاً في الغزل :

ولما تقصّوا من منى كل منسك ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح (١)

فإن الشاعر ينقلها هنا نقلة واسعة لتناسب المقام ويوظفها كأحسن
ما يكون التوظيف .

ولندع القوم في صلاتهم ، وطوافهم ، وتسليمهم ماشاء الله لهم أن
يصلوا ويطوفوا ويسلموا ، ثم نعود إليهم بعد ذلك لنراهم في حالة نفسية
جديدة أثارتها فيهم لحظات التوديع ، ويالها من لحظات !

فلم تر إلا باهتاً متحسراً وآخر يبدى شجوه يترنم (١)

والشاعر حتى لا يفجأنا بهول تلك اللحظة نراه يمهدها منذ قال
(ولما تقصّوا من منى كل حاجة) فهيأ منا النفوس لتوقع لحظة ينقطع
فيها حبل القرب وتعود فيها العيون للتسجام (٢) ، والأكباد للتحرق
بلهيب النيران ، والقلوب تذيبها انفاس حارة ، تؤججها الصبابة
والهيام .

(١) البيتان لكعب بن زهير . انظر ديوانه ص ٢٤٢ وأخبار الزجاجة تحقيق :
والدكتور عبد الحسين المبارك ص ١١٣ . دار الرشيد للنشر .

(٢) يظهر حزنه غناء .

(٣) التسجام هو سيلان الدمع (لسان العرب (٣/١٩٤٧) .

فلم تر إلا باهتاً متحسراً وآخر يبدي شجوه يترنم

إننا هنا أمام صوره من صور القصيدة الحية الزاخرة بالمشاعر
المتباينة المتكاثفة لإبراز صورة نفسية فسيحة وممتدة .

إننا الآن أمام إنسان أفقدته الصدمة وعيه ، وأصابته بالحيرة
والذهول فلم ينبس ببنت شفة ! إنه نموذج للإنسان محب عاشق لم
يتحمل الصدمة العنيفة ، فوجم ! غير أن هنالك إنساناً آخر عاشق
محب كذلك ولكن الصدمة - وهى الصدمة السابقة عينها - تجعله
يبدي شجوه مترنماً به .

لقد جعلت منه الصدمة شاعراً يبتث الجوى وينشد الآلام .
وهذا نموذج آخر من نماذج المجبين .

والصورة فى جمعها بين النموذجين تعد صورة صادقة فوق أنها
جميلة ورائعة . .

إن النفوس متباينة ، ليست قوالب واحدة متشابهة ، بل لكل
نفس أبعادها ، ولكل نفس أعماقها ، ولكل نفس قدراتها وإمكاناتها
وتجاربها .

كما أن لكل نفس ردود فعلها المتعددة أمام تأثير الفعل الواحد .
والشاعر الملهم اللماح هو الذى يتنبه لهذه الحقيقة ، فيضع يده على هذه
الفروق التى تميز إنساناً عن إنسان ، ونفساً عن نفس ، فلا تأتى
أشخاصه جامدة كأنها تماثيل ، قد تكون جميلة ولكنها فاقدة للحياة .

وإذن فنحن أمام شاعر ، إنسان ، خبير ، متأمل ، متعمق في مسارب النفس الإنسانية ، وعلى صلة بتجاربها الثرية فوق أنه شاعر ، بارع ، متفنن .

* * *

ولنواصل الرحلة !

رحلت وأشواق إليكم مقيمة ونار الآسى منى تشب وتضرم (١)

وتأمل نار الآسى التي تكتف بما يلاقيه الشاعر منها ، بل تتوهج وتشتعل في عنف (تضرم) لتنال من الشاعر بأقصى ما تستطيع

وبرغم إباء الشوق ، ورفضه للفراق ، فإن الشاعر لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، فليودع قلبه أمانة في حمى الأحباب حيث لا تشرب عليه من إعلان أسرار الجوى ، وليستحلف سائق العيس برهم أن يقفوا على تلك الربوع ، مبالغين سلامه وواصفين حاله : حال محب قاده الشوق نحو الحبيب . بل حال مسكين قضى نجه فداءً للمحبوب .

والشاعر يستعير من التراث : مخاطبة سائق العيس والوقوف على ربوع الأحباب . ولكن هذه الأشياء تصبح جديدة في سياقها وتطبع بطابع خاص .

فالعيس : عيس أخـرى

والربوع : ربوع أخـرى

وليس هذا تعسفاً منا في التوجيه ، ولكن السياق - سياق الرحلة الروحية - هو الذى يوجهنا هذه الوجهة .

وحتى الهوى يسمو ويصفو فلا يصبح الهوى الذى يعمى القلوب ويبكمها (٢) كلا ، إنه هوى شريف سام . . هو أصل الهدى ومحوره الذى عليه مداره .

قضى الله رب العرش فيما قضى به بأن الهوى يعمى القلوب ويبكم وحبكم أصل الهدى ، ومسداره عليه ، وفوز للمحب ومغرم

نعم ! فإن كان هوى الأرض عمى وخسارة ، فإن هوى السماء : هدى ، وفوز ، ومغرم .

وأشواق الشاعر مضيئة ، مشرقة وخالدة ، لاتفنى بفناء العظام ولا ينال الموت منها شيئاً .

وتفنى عظام الصب بعد مماته وأشواقه وقفت عليه ، محرم

إنها ملازمة له ملازمة الوقف المختص بصاحبه .

فرفقاً أيها الفؤاد ، دعنى من اللوم والعتاب ! أما كفالك ما بى من عذاب ؟ ! وحتى متى أنت أيها القلب يحرقك الشوق فلاتنهض ، وتجرفك الآلام فلا تصحو ؟

إن المدى قد اقترب ، إن كؤوس السير قد دنت بينما يغط الناس
في نوم عميق .

وهكذا نختم هذه المرحلة من الرحلة . والشاعر يدق على باب
قلبه يدعوهُ إلى النهوض للحاق بقافلة الخير ، ويستحثه ويستنهضه
قائلاً : وختام لا تصحو ؟ !

* * *

نحن الآن في مرحلة جديدة في مسيرتنا مع الشاعر ولكننا نطالعه
في بداية هذه المرحلة فنراه لا يزال واقفاً عند باب قلبه يطرقه
ويدقه بطرقات متلاحقة ، وبدقات متتابعة (بلى سوف تصحو حين ينكشف
الغطا ويبدو لك الأمر الذى أنت تكتم) بلى . إن لم تصح الآن بإرادتك
فسوف تصحو قسراً في يوم آت لا محالة . فيه ينكشف ما كان
مستوراً ، فتبصر ما لم تكن تبصر ، ويبدو لك واضحاً ما كنت تبالغ
في كتمانهِ ، كل هذا سوف يبدو حاضراً ماثلاً تراه الأعين ، وتطالعه
القلوب .

وأنت تنظر هنا إلى حركة انكشاف الغطاء ، تعقبها لحظة الحصو ،
ومثول الأمر حاضراً لا تخطئه العين . كل هذا في سرعة تناسب المقام :
مقام الانتباه من نوم عميق على أحداث مروعة ومذهلة . ولكن هذه
السرعة في الإيقاع سوف تهدأ شيئاً ما عند عرض مشهد انكشاف
السر (ويبدو لك الأمر الذى أنت تكتم) ولذلك المدوّء في الإيقاع
وظيفة حيوية هنا مما يزيد من المساحة النفسية والزمنية في عرض

وكشف الأعمال القبيحة على صاحبها الذى كان يتكتم عليها ويبالغ
كتمانها . ولا شك أن زيادة الزمن هنا تعود عليه بالمرارة والخسرة .

ومن هنا نرى أن تنوع الإيقاع - سرعة وهذوءاً - يفيد في
إشاعة جو نفسى يعبر عن المقام أحسن ما يكون التعبير ، كما يساعد
على نقل القارئ أو السامع إلى المشهد ذاته حتى كأنه أصبح جزءاً من
أجزاء ذلك المشهد الحى المثير ، وليس مجرد مشاهد من بعيد .

والشاعر عندما يلجأ في هذا المقام إلى الوعظ ، لا يلجأ إلى وعظ
مباشر متكلف كعادة شعراء الزهد المصطنع ، أو عادة الوعاظ الرسميين .
كلاً وإنما هو يستخدم طريقة القرآن الفريدة الأثيرة : ألا وهى طريقة
التصوير والظلال ، فيعرض علينا - على سبيل التأمل - صورة
لإنسان يوقد النار ، والإنسان - عادة - يوقد النار الانتفاع بضوئها
والدفع بحرارتها ، مع الحذر البالغ من شرها .

ولكن الرجل الذى معنا في هذا المشهد الطريف . يوقد النار فينتفع
بضوئها الناس جميعاً إلا هو ، لا يستفيد منها شيئاً بينما هى - النار -
تتضرم بين جنبيه دون سائر الناس ؛ فله وحده الغرم ، والناس جميعاً
الغنم .

ثم ينمى الشاعر هذه الصورة بمشهد آخر هو مشهد الغرس ،
فنتخيل صاحب الغرس وهو يرمى البذرة محدثاً نفسه بالأماني حتى
إذا جاء أوان الجنى لم يجد شيئاً وضاع غرسه وكده هباء .

أهذا جنى العلم الذى قد غرسه وهذا الذى قد كنت ترجوه يطعم

لقد ضاع علمه ، ولم يعد يرجى لنفع ، ولم يعد يغنى من جوع !
والشاعر يعقب هذه المشهدين (مشهد النار التي لا تعود على صاحبها
إلا بالدمار ، ومشهد الغرس يضيع على صاحبه سدى) يعقب ذلك
كله بسخرية موجعة وتهكم مرير إيجابه صاحب المشهدين (وهو شخص
واحد وليس شخصين) ، بحالة نفسية مؤلمة :

وهذا هو الحظ الذى قد رضىته لنفسك فى الدارين جاه ودهم ؟ !
وهذا هو الربح الذى قد كسبته لعمرك لا ربح ولا الأصل يسلم !

فهذا هو الذى خرج به صاحب النار المحرقة والغرس الضائع
ومن أجله باع كل شيء (جاه ودرهم) فما قيمة ذلك اليوم بجانب
ما ضيع ؟ !

والشاعر لا يترك هذا المعذب لما يعانيه من الخيبة والمرارة فيما
سبق من مشاهد بل يكيل له الملامة والتوبيخ كيلاً .

بخلت بشيء لا يضرك بذله وجدت بشيء مثله لا يقوم
والمفارقة ظاهرة ، وإيماءاتها عديدة تجعل النفس تذهب كل مذهب
لتفسيرها بعد أن تتأملها ، وتمعن فيها التأمل .

إنه يلوم ذلك الغبي . . ويبين له فساد اختياره وسوء صنيعه لما
انقلبت الموازين عنده ، فيبخل بما ليس لوجوده أو بذله قيمة ، ثم
يجود ويفرط فيما لو خسره لخسر كل شيء ! والشاعر يعبر عن هذا المعنى
العميق بوسيلة فنية تجمع بين المفارقة الطريفة والسخرية اللاذعة .

ثم بعد ذلك يفصل لنا ما أجمله فيقول :

بخلت بهذا الحظ الخسيس دناءة وجدت بدار الخلد لو كنت تفهم
وبعت نعيماً لا انقضاء له ولا نظير . ببخس عن قليل سيعدم

لقد وضحت الصورة الآن واكتملت ، وبهذا تزداد المفارقة
بروزاً : المفارقة بين بخلٍ بحظٍ حقير (الدنيا) ، وتفریط في دار
الخلد (الجنة) ، كما لا يفوت الشاعر أن يعيد التهكم بصورة أخرى
في أسلوب من التلميح أقصى من التصريح (لو كنت تفهم ؟) كما
يبين له ما كان ينبغي عليه عمله - بما يتناسب مع كرامة الإنسان
وعقله . فيقول :

فهلا عكست الأمر إن كنت صادقاً ولكن أضعت الحزم لو كنت تعلم

وهو لا يكتفى بتلك العبارة التقريرية المباشرة ، بل يضيف إليها
ركيزة فنية مُعجبه ، فيقدم لنا مشهداً من مشاهد القصيدة الحية
التي تملأ على النفس أقطارها . . فيقول :

وتهدم ما تبني بكفك جاهداً فأنت مدى الأيام تبني وتهدم

فيبرز لنا صورة إنسان نراه يبني بكفه ، ويعاني صعوبة البناء
في جهاد ومشقة ، ولكننا لا نلبث أن نراه - هو نفسه - يهدم ما يبني ،
ثم يعود فيبني ، ليهدم من جديد . وهكذا على مدى الأيام .

ونستطيع أن نقول إن الصورة مقتبسة من صورة التي نقضت غزلها
من بعد قوة أنكاثاً المذكورة في القرآن في قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتي

نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . . الآية «(١)» .

فيكون هذا مثلاً جيداً للاستفادة من صور القرآن وظلاله في التعبير دون وقوع في النقل المباشر والتقليد ، استفادة ننطلق بها من واقعنا الأدبي المحدود إلى آفاق رحبة .

ثم بعد ذلك نجد أنفسنا أمام مفارقة تصويرية جديدة يقوى بها الشاعرُ المشهدَ وينميه في تناسق وتلاحم مع ما سبقها من مفارقات .

فنرى صاحبنا - صاحب المشاهد السابقة - في صورةٍ عجيبة حقاً !

وعند مراد الله تفنى كميته وعند مراد النفس تسدى وتُلحَمُ

والظلال هنا تمدنا بما يجلي المشهد للعين ويقربه للنفوس . لقد تحدد الفصل الأول من المشهد بتلك الكلمة (مراد الله) وبما توحى من جلال وعظمة تظلل المكان والمشهد جميعاً ، وتكون بمثابة خلفية الأحداث .

وتتلخص تلك الأحداث في صورة فناء صاحبنا كالميت ، فهو ليس ميتاً وإنما متشبه بالأموات ، ولذلك يفقد منا إحساس الشفقة ، ولا يظفر إلا بإحساس الاحتقار من تماوته عند مراد الله . ولنا أن نتخيله في حركة تماوته تلك ، يصطنع العجز والمسكنة وقلة الحيلة . وقد ينجح لبرهة في خداعنا بتماوته ذلك ، ولكن ، ماذا حدث ؟

لقد اختلفت الصورة ، فإذا نحن في فصل جديد لا يظلمه جلال (مراد الله) وإنما يتغير المنظر فتصبح الخلفية عابثة لاهثة ، رسمها الشاعر بكلمة (مراد النفس) فإذا الشخص نفسه الذى كان مماوتاً عاجزاً إذا به يصارع ويسارع ، ويسدى ويلحم بما تشيع كلمتا (يسدى ، ويلحم) من الاستطالة والامتداد مما يزيد من مساحة الحركات . وكذلك بما تدلان عليه من الاستمرار والتزايد في هذا الامتداد السريع العنيف .

وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا ظهيراً على الرحمن للجبر تزعم (١)

وهذه لوحة أخرى تتآزر مع ما سبقها من لوحات يكتمل بها المشهد ورغم صياغة البيت واستخدام مصطلحات علمية كالاحتجاج بالقضاء وزعم الجبر إلا أن الموقف يبرز لنا صورة : هى صورة هذا القزم الحقيق وهو يتناول ويقف ظهيراً على من ؟ . على الرحمن ! والمفارقة واضحة بين الضعف المطلق المتمثل في هذا القزم المتناول وبين القوة المطلقة والعزة العالية : عزة الله جل جلاله . « ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم » (٢) .

* * *

ثم ننتقل إلى سيل من المفارقات التصويرية المتتابعة ، المتلاحقة . تتعاقب في سرعة ، وتشويق ، وإثارة فتجعل النفس في حالة انتباه

(١) سيأتى شرح هذه المصطلحات : الاحتجاج بالقضاء والجبر في شرحنا للقصيدة .
إن شاء الله .

(٢) سورة يونس : الآية ٦٥ .

دائم وحضور حقيقى ، مستغرقة فيما يتتابع أمامها من صوم وأخيلة .
تتراءى لها فى بروز وشخص .

فمفارقة تتمثل فى تبرئة النفس الأمانة بالسوء مع اتهام الأقدار
الصادرة من منبع الحكمة الإلهية ! .

وأخرى تتمثل فى حل أمور عقدها الشرع من جهة ، وإبرام
أمور أمر الله أن تقطع ، فتأمل النفس حركتى الحل والإبرام بعد
أن تتابع الحركات النفسية فى البيت لصورة القصد وإرادة الحل
والإبرام .

ومفارقة ثالثة بين طاعة الغنى ، وعصيان الرشد ، مع تطور بهذه
المفارقة ، وامتداد بعرضها حتى تصل إلى ساحة أخرى أجل وأسمى .
إنها ساحة العرض الأكبر ويوم يرجعون . وكذلك مفارقة بين البطء
عن الطاعات والإسراع إلى الخنا والشور ، ثم إبراز هذه السرعة
فى صورة اندفاع السيل المتدفق فى مجراه لا يتشعب ، بل ينحدر فى
اتجاه واحد ليكون أقوى وأسرع ! .

ونلاحظ هنا أن العلاقة الشعورية بين حركة الإسراع إلى الشر
وحركة مجرى السيل إلى أسفل واضحة فى أن كليهما هبوط وانحدار !

ويختتم الشاعر هذه المفارقات جميعاً فى ختام موجز ومباشر
كأنما هو النطق بالحكم بعد مداولة طالت . ولا بأس أن يكون
الحكم مباشراً بعد أن مهد له بوسائل فنية متعددة .

فإن كنت لاتدرى فتلك مصيبة وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

ثم يأخذنا الشاعر إلى عالم جديد من التصوير الفائق الموحى .
« تصوير الدنيا » .

وهذا موضوع وغرض من أغراض الزهد والوعظ . فهل يتناوله
الشاعر بأسلوب شعراء الزهد المشهورين ؟ كلا . إنه يرتفع ويسمو
- فنياً - مستخدماً الطريقة القرآنية الأثيرة (الصور والظلال) .

ولو تبصر الدنيا وراء ستورها رأيت خيالاً في منام سيُصْرَمُ (١)

وتصوير الدنيا بالخيال المنصرم (الزاهب) ليس جديداً ، وإنما الجدة
في تركيب البيت بطريقة تشخص لنا هذا الخيال وتوحى بحركته
ما يضيف على الصورة حياة جديدة .

كما أن في الصورة عمقاً وبعداً في محاولة إبصارك للدنيا من
خلف ستورها الظاهرة الخادعة الخلابة . . فأنت حتماً تمثلاً بالبيت
سوف تحاول وتجهد نفسك لاستكشاف ما وراء الستور . .

وماذا وراء هذه الستور ؟ .

إنه الخيال - مجرد خيال في منام ، سوف يذهب وينقضي .

كحلُم بطيف زار في النوم ، وانقضى

المنام ، وراح الطيف . والصب مغرم

(١) انصرم الليل وتصرم : ذهب . (المصباح المنير : (٥١٨)) .

تصوير دقيق غاية في الدقة ، ومشهد حى غنى بالحالات الشعورية المتعددة . كل ذلك من خلال إيقاع فنى بارع ، وظلال ثرية للكلمات .

تتجلى دقة التصوير فى الاهتمام والعناية بالتفاصيل الخاصة للمصورة ، فالحلم ليس حلماً عادياً بشئ حقيقى - رغم أن الحلم الحقيقى أيضاً لا يدوم - ولكنه حلم بمجرد طيف ومحض خيال .

ثم يضيف الشاعر على هذا الطيف حياة فيجعلنا نتبعه فى رحلة سريعة ، ومثيرة . وذلك بتنويعه فى الإيقاع المصاحب لها . لاحظ سرعة الإيقاع فى تتابع الأفعال : (زار ، انقضى ، راح) فى سرعة وعنف ، فيوحى لنا ذلك بعنصر المفاجأة فى زيارة الطيف ، ثم المفاجأة عند انقضائه كذلك .

ويختلف الإيقاع فى حالة التعبير عن معاناة الصب المسكين الذى يتابع فى دهشة ، وذ هول . زيارة الطيف المفاجئة ، ثم انقضائه المباغت ، تاركاً إياه فى تحرق وعذاب (والصب مغرم) .

فترى الشاعر يستخدم هنا الجملة الاسمية بعد أن كان يستخدم - فى تتبع حركة الطيف - الجمل الفعلية فلماذا ؟

يقول البلاغيون : إن الفعل يفيد التجدد لدلالته على الزمان ويمثلون لذلك بقول الشاعر (طريف بن تميم) .

(١) الطيف : ما أظاف بالإنسان من الجن والإنس والخيال . المصباح ٥٨٥ .
الصب : من الصباغة : وهى رقة الشوق وحرارته ، مغرم : أغرم بالشئ : أولع به فهو مغرم .

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم^(١)

فاستخدم الشاعر هنا الفعل المضارع « يتوسم » ليدل على أن هذا العريف إنما يصدر عنه تفرس الوجوه ، وتأملها شيئاً فشيئاً ، ولحظة فلحظة فهذا التوسم يصدر منه متجدداً (٢) .

أما الفعل فإنه - بعكس ذلك - يدل على إفادة الدوام والثبوت كقول الشاعر :

لا يَأْلَفُ الدرهم المضروب صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق

فتعبيره بمنطلق للإشعار بأن انطلاق الدرهم على الصرة (وهي وعاء لجمع الدراهم) أمر ثابت دائم لا يتجدد - وأن الدرهم له استقرار ما في صرته (٣) .

وكذلك ابن القيم عبر هنا بقوله (والصب مغرم) ليشعرنا بثبوت وملازمة هذا الغرام (العذاب) للصب المسكين وذلك ليتيح له فرصة أكبر للمعاناة والألم .

كحلم بطيف زار في النوم ، وانقضى المنام ، وراح الطيف ، والصب مغرم

(١) عكاظ : هو سوق للعرب كانوا يجتمعون فيه فيتنشرون أشعارهم ويتفاخرون (مختصر السعد (١٧٦/١)) ، عريفهم : عريف القوم القائم بأمرهم الذي شهد وعرف بذلك فهو رئيسهم ومتولى أمورهم ، يتوسم : يتفرس في الوجوه .

(٢) انظر مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح ومعه شرح ابن يعقوب (ص ١٧٦/١) .

(٣) السابق : ص ١٧٦/١ .

انظر ! لقد زاره الطيف في المنام فجأة .

انظر ! لقد انقضى المنام . انظر ! لقد راح الطيف ، كل هذا وقد
بقى المسكين واجماً ، قابعاً ، يعاني آلام الحسرة والعذاب .

* * *

ثم يتابع الشاعر تصويره للدنيا في تفنن .

وظل أرته الشمس عند طلوعها سيقلص في وقت الزوال ويفصم (١)

هذه الصورة تقوية للصورة التي قبلها ، يعرض علينا رحلة الظل
منذ طلوع الشمس إذ يراه الناس مطمئنين به ، مستظلين تحته
يحسبونه ساكناً ، منخدعين بمظهره الساكن . فإذا به يرتفع عندما
يأذن الله له بذلك ، ويدركون أنهم قد خدعوا ، وأن الظل كان يسير من
تحتهم دون أن يفتنوا لحركته !

وظلال الكلمات تبين لنا طبيعة الظل في مسيرته .

فالشاعر قد استخدم الفعل « أرته » وظلاله النفسية مناسبة
لمقام طلوع الشمس التي تعم الكائنات بالضياء ، فمن شأنها أن تكون
مصدراً للرؤية .

أما حين يعبر عن ارتحال هذا الظل فإنه يستخدم الفعلين
(يقلص) أي يرتفع ، والفعل (يفصم) أي ينكسر ، وهما يوحيان معاً

(١) يقلص : قلص الشيء ارتفع . مختار الصحاح (٥٤٨) . يفصم : فصم الشيء :
كسره من غير أن يبين قال تعالى : « لا انفصام لها » (البقرة ٢٥٦) .

بالقوة ، والصرامة في حركة الارتفاع ، والانقطاع ، وهذا يناسب
جو الزوال ، فكأن الظل صار يعانى السكرات والنزعات قبل موت فطيع .

ومزنة صيف طاب منها مقيلا فالت سريعاً والحرور تضرم (١)

الشر الأول من البيت يمدنا بظلال نفسية طيبة ، ومريحة ،
تصور العيش الرغيد ، والنوم اللذيذ .

يتألف المشهد من مزنة صيف وهى السحابة الندية الغنية ، ولكن
نسبتها للصيف تمهد - مجرد تمهيد - إلى وشك الزوال والتولى . غير أن
هذا الزوال رغم توقعه لا يزال بعيداً ، لا يخطر لبال النائم في وقت
القيولة ، مستظلاً بسحابته الرطبة ، وقد غرق في نعاس لذيذ .

ولكن المشهد ينقلب فجأة ، فإذا السحابة تولى سريعاً وإذا الحرور
تضرم ، وتلتهب كالنيران ، فيفيق النائم منزعجاً متحسراً على تولى
سحابته التى كان منذ لحظة واحدة ناعماً تحت ظلها .

لقد ذهبت السحابة وبقي هو فى الحرور تلتهب .

ولاحظ استخدام صيغة الفعل المضارع فى « تضرم » وهى لإفادة
التجدد كما سبق أى أنها تلتهب التهاباً بعد التهاب ، كما أن ظلال
كلمة « التولى » تشي بعنصر المفاجأة التى تركت صاحبنا فى ذهوله ! .

(١) مزنة حيف : قطعة سحاب بيضاء أو ذات ماء . القاموس ٢٧١/٤ . مقيلا :
القائلة نصف النهار . قال قتيلا ومقيلا . نام فيه الحرور : الريح الحارة وهى بالليل .
قال أبو عبيدة وقد تكون بالنهار . مختار الصحاح (١٢٩) تضرم : تلتهب وشدد للمبالغة .
مختار الصحاح (٣٨٠) .

وإلى صورة تمثيلية جديدة :

ومطعم ضيف لذ منه مساعه وبعد قليل حاله تلك تعلم (١)

والفكرة فى البيت قديمة ، والكناية فيه معروفة . فالكل يعرف الطعام والحالة التى يصير إليها بعد هضمه .

ولكن الطريف هنا هو إشاعة جو تمثلى لهذه الفكرة القديمة فإذا هى جديدة وطريفة .

إننا هنا أمام ضيف نسى نفسه فى منزل مضيفه ، لما رأى الطعام الشهى . وهو باعتباره ضيفاً كان عليه أن يتوقع الرحيل ولكنه كان أكثر نهما وانشغالا بالطعام .

ومهما طال المقام به ، ومهما ساغ الطعام له ، فإن حالة الضيف إلى ذهاب ، وحال الطعام بعد هضمه إلى ما نعرف ونعلم !
كذا هذه الدنيا كأحلام نائسهم ومن بعدها دار البقاء ستقدم

الفكرة واضحة . ولكنه يعرض علينا صورة دار البقاء وهى تتقدم لتحل محل دار الأحلام والأوهام .

* * *

(١) مساعه : ساغ الشراب سوغاً أى سهل مدخله . القاموس (١٠٨/٣) والشطرة الثانية كناية عن إخراج فضلات هذا الطعام السائغ .

ونحن الآن ندرك لماذا كان الشاعر يقدم لنا كل هذه الصور التعبيرية ، إنه يقدمها لنا ليهيئنا لتقبل نصائحه الغالية ، ونصائحه الغالية ليست مباشرة وإنما هو - كعادته - يعرضها في جو تصويري محبب ، يثير الخيال بصور متتابعة ، متطورة ، نامية حتى يصل بنا إلى الذروة .

فجزها ممراً لا مقراً وكن بها غريباً تعيش فيها حميداً وتسلم (١)
أو ابن سبيل قال في ظل دوحة وراح ، وحلى ظلها يتقسم (٢)
أخا سفر لا يستقر قراره إلى أن يرى أوطانه ، ويسلم
تطالعنا أولاً - صورة الغريب يعاني مرارة الغربة والاعتراب في دار غربته ، بين أناس يعدونه غريباً عنهم .

ثم تطالعنا صورة أرقى وهي صورة ابن السبيل الذي هو أكثر غربة ، فالغريب قد يقيم بين أناس ويعيش بينهم غريباً عنهم ، ولكن ابن السبيل لا يقيم بل هو عابر أبداً .

ثم تطالعنا بعد ذلك صورة أكثر ارتفاعاً ورقياً ، وهي صورة أخى الأسفار ، الملازم لها حتى كأنهما أخوان لا يفترقان .

وهي صورة أكثر تطوراً مما سبقها ، لأنه ليس كابن السبيل يرتبط بسبيل ، وإنما مسافر لا يستقر له قرار في سبيل ، ولا دار .

(١) جاز المكان : سار فيه . وجاوزته : تعديته .

(٢) قال قبلاً ومقيلاً نام في نصف النهار ، يتقسم : يتشعب أجزاء .

وهكذا يرتفع بنا الشاعر من طبقة إلى طبقة ، ومن منزلة إلى منزلة
أعلى حتى نصل معه إلى الذروة .

فما هي الذروة ؟

« إلى أن يبرى أوطانسه ويسلم »

إنها الذروة المحببة إلى كل غريب وكل عابر سبيل وكل مسافر
جوال .

وإنها الغاية السامية التي من أجلها يعاني الغريب ويقاسى ابن السبيل
أهوال السبيل ويكابد المسافر مشاق الأسفار . وبقى أن نقول إن الصور
هنا مأخوذة من الحديث الشريف الذي رواه البخارى عن ابن عمر
رضى الله عنهما :

« كن في الدنيا كأنك غريب . أو عابر سبيل » (١)
ولكن توفيق الشاعر يتجلى في أنه وظَّف الصور توظيفاً بديعاً
فاستفاد من الحديث في تنمية صوره حتى وصل بها إلى الذروة كما
رأينا ، وقد أضاف صورة أخى الأسفار الذي لا يقر له قرار ، ونمى
مشهد ابن السبيل الذي نام في ظل دوحة وراح وخلي ظلها يتقسم
فمزج صورة ابن السبيل في الحديث السابق مع صورة الراكب في الحديث
الآتى :

« عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى

(١) صحيح البخارى (١١٠/٨) مطبعة الشعب .

الله عليه وسلم : (مالى والدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب ، استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (١) .

ولا شك أن المزج بين الصورتين دليل براعة وآية اقتدار .

نرى - إذن - أن الشاعر قد استفاد من تصوير الحديث الشريف مع عدم الوقوف عند حدود النقل المباشر .

إنه يأخذ من الحديث الخطوط الأولى ثم ينطلق بعد ذلك مواصلاً مسيرته الفنية فى براعة واقتدار .

* * *

ثم يتفنن الشاعر فى عرض صورة جديدة للدنيا، غاية فى الطرافة فيقول :

فيا عجباً ! كم مصرع وعظت به	بنيها ! ولكن عن مصارعها عمو (٢)
سقتهم كؤوس الحب حتى إذا نشوا	سقتهم كؤوس السم ، والقوم نوم (٣)
وأعجب ما فى العبد رؤية هذه	العظائم ، والمغمور فيها متم (٤)
وما ذاك إلا أن خمرة حبها	لتسلب عقل الرء منه وتصلم (٥)

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث صحيح . تحفة الأحوذى (٤٨/٧) .

(٢) مصرع : مقتل .

(٣) نشوا : النشو : السكر ونشوا : أى سكروا .

(٤) المغمور : المهمل فى الباطل كأنه مستور فيه والانغمار : الانغماس فى الماء ،

متم :

(٥) تصلم : تستأصل قطعاً .

في الأبيات السابقة يتعجب الشاعر من الدنيا وقد لعبت دور « الواعظة » التي تعظ أبناءها (أبناء الدنيا) ، وبماذا تعظمهم ؟ إنها لا تتخلى عن طبيعتها حتى عندما تمثل دور الواعظة فإنها تعظمهم بالمصارع ، ولكن أبناءها لا يفتنمون فرصة وعظها ، بل يضيعون الفرصة (ولكن عن مصارعها عموا) .

وها هي - الدنيا - لما لم ينفع الوعظ تقوم بدور آخر هو دور الساقى النديم (بعد أن كانت تقوم بدور الواعظ الحكيم) إنها تسقيهم كؤوس الحب ، ويستجيب الأبناء هذه المرة فينشون ويتأيلون من السكر حتى إذا تعبوا (ولابد لهم أن يتعبوا) أعقبت ذلك بكؤوس أخرى هي كؤوس الموت !

وأبناءؤها يتناولون منها ، ويعبون في دعة واطمئنان إليها (والقوم نسوم) !

ويمكن أن تكون الصور أعمق لو تخيلنا الأم (الدنيا) وهي تطوف على أبنائها النائمين لا لتعدهم بالرعاية أو لتطمئن عليهم ، لا لتسقيهم أكواب اللبن - كما تفعل الأم بصغارها عند النوم . وإنما لتسقيهم كؤوس السم ! .

ويزداد عجب الشاعر من هؤلاء الذين يرون كل هذه الأحوال فلا يتحركون ! ويصورهم بصورة (المغمور المتيم) وهي صورة غنية بالظلال ؛ فظلال كلمة المغمور تمدنا بصورة هؤلاء وقد غرقوا في الغفلة التي غمرت قلوبهم حتى بلغت رغوسهم .

وكذلك كلمة المتيم تمدنا بصورة هؤلاء وقد ضلوا بعشقتهم ، فهذا معشوقهم يرميهم بأصناف العذاب وهم مسلوبو الإرادة ، فاقدو العقل بعد أن تعاطوا خمرة الحب والعشق .

وأعجب من ذا أن أحبابها الأولى تهين ، ولأعداء تُراعى وتكرم (١)

فهى - الدنيا - امرأة عابثة ، تهين أحبابها ، وتتذلل لأعدائها .

والصورة مفعمة بجو المفارقة والتناقض بين إهانة الأحباب المساكين ورعاية الأعداء وإكرامهم .

وذلك برهان على أن قدرها جناح بعوض ، أو أدق ، وألأم .

وهذا يعلل مواقفها السابقة ، إنها حقيرة القدر ، خسيصة الشأن كأنها جناح البعوض بل أدق وأخس . وهذه الصورة من الصور المقتبسة ببراعة من الحديث الشريف (٢) وصفها الشاعر لتعليل مواقف الدنيا التى تفنن فى عرضها وتصويرها .

ثم يقتبس من الحديث الشريف صورة تمثيلية رائعة ، وهو هنا يصرح بالافتباس فيقول :

(١) الأولى : الذين الأعداء : أصلها الأعداء .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء . رواه الترمذى وقال حديث حسن . انظر رياض الصالحين ص ٩٩ .

وحسبك ما قال الرسول ممثلاً لها ولدار الخلد والحق يُفهم
كما يدل الإنسان في اليم إصبعاً وينزعها منه فما ذاك يغتم (١)

يبرز لنا المشهد إنساناً واقفاً على شاطئ بحر مهول ، ثم يبرز لنا
حركة هذا الإنسان - وقد راعه هذا اليم - يدل في اليم إصبعة . .

فلم...إذا ؟

لماذا يدل هذا الإنسان إصبعة في اليم ؟ .

إن كلمة « يدل » تشي بالإجابة .

إنه يدل إصبعة في اليم كما يدل أحدنا دلوه فيه ، ليحصل على
الماء الذى هو عماد الحياة .

وفى هذا تصوير لحالة نفسية عميقة ، لإنسان لا يملك أن يحصل
على تلك الحياة إلا بإدلاء إصبعة الصغير ، لأنه يفتقد الوسائل
الأخرى .

ثم ها هو ذلك الإنسان ينزع إصبعة من اليم وهو ينى نفسه
بالغنيمة والكسب كما ينزع الصياد شبكته . ولكن .

(فما ذاك يغتم) ؟ !

أى غنيمة خرج بها ؟ .

يتركنا السياق عند هذا التساؤل العجيب . فلا يجيب !

نحن الآن مع الشاعر فى مرحلة جديدة من الرحلة معالمها :
الأشواق والأحزان .

تظل هذه المرحلة من بدايتها ظلال من اللفهه والرغبة حتى
تنتهى بالظمأ ، والتضرع .

يبدأ الشاعر هذه المرحلة - من رحلة الأشواق - بداية تم عن
مدى لفته والتياحه ، وسنعرف أن اللفهه والالتياح هنا ممتزجان
بالحذر من الدنيا (هذه الدنيا التى رأينا مارأينا من صورها السابقة
السابقة ومواقفها السالفه)

ألا ليت شعرى هل أبىتن ليلة على حذر منها وأمرى مُبرم؟ (١)
إنه يتشوق للأمان، ويتمنى البيات ليلة واجدة ، يطمئن فيها على
نفسه من الدنيا وشروها .

والأسلوب هنا موظف لخدمة إشعارنا بمدى اللفهه ، فقلوه «ألا» .
- وهى أداة استفتاح وتنبيه - يفيد تنشيط المتلقى وتهيته لتلقى
تجربته ، مثيراً فى نفسه إحساساً مماثلاً لما يعيشه هو .

وقوله : « ليت شعرى » . - أسلوب يفيد شدة الرغبة

(١) ليت شعرى : انظر الهامش التالى :

مبرم : محكم . أبرمت العقد إبراماً أحكمته . المصباح ص ٧٤ . والمبرم من الثياب
المفتول الغزل طاقين . مختار الصحاح ص ٥٠ .

والتمنى وأصله « ليت شعري حاضر » وحذف خبر ليت وجوباً
كما يقول النحاة (١) .

وهو كذلك يستخدم الاستفهام المصدر بالأداة « هل » مما يدل
على أن الأمنية بعيدة ، صعبة المنال ، فهو يذهب في توكيدها بشئ
الطرق ، ولهذا نراه يستخدم - بعد كل هذه الوسائل لتوكيد رغبته -
نون التوكيد الثقيلة ، ويبقى الاستفهام بعد ذلك صدى لا جواب
عليه ، يوحي بالأمل الخائف الراجف (٢) .

كما يفيد تنكير كلمة « ليلة » وإفرادها شدة المعاناة عند
الشاعر وقوة إشفاقه ، وكأنه الغريق يتمنى لظفره بالنجاة أن يتعلق
بقشة .. مجرد قشة ! .

ثم تنمو الأمنية وتطور :

وهل أردن ماء الحياة وأرتسوى على ظمأ من حوضه وهو مفعم (٣)

فالرغبة الآن هي الارتواء بماء الحياة - بعد أن كانت مجرد

(١) يقول عباس حسن : وتختص «ليت» بأسلوب يلتزم فيه العرب حذف خبرها
هو قولهم ليت شعري .. ومع حذفهم الخبر فيه بإطراد يلتزمون أن يذكروا اسمها ،
وأن يكون هذا الاسم كلمة «شعر» مضافة إلى ياء المتكلم ، وبعدها الخبر المحذوف
وجوباً ، ثم تذكر بعده جملة مصدره باستفهام . انظر النحو الوافي عباس حسن (١/٦٣٥)
دار المعارف .

(٢) مستفاد من كتاب «قراءة في الأدب الأموي» للدكتور محمد عبد العزيز
الموافي (٧١/٢) دار العلوم .

(٣) أردن : أحضر والنون مخففة من الثقيلة للتوكيد ، مفعم : نملء أفعم الإاء :
ملأه .

النجاح . والشاعر يرسم الأمنية مضمناً عليها أبعاداً إنسانية ، فيصور لنا إنساناً ظامئاً يتشوق في لفة أن يرد ويرتوى من حوض ماء الحيا ، المقعم الغزير ! .

والصورة حية تتحرك فيها مشاعر اللفة ، كما تظهر مشهد ورود الماء - وهو مشهد نفسي لا واقعي - ، وتبرز لنا حوض ماء الحياة في صورة غامضة مثيرة للخيال ، تتركه حائراً في إدراك كنه هذا الحوض وحقيقته بعد أن أدرك الرمز والصورة .

ثم يحس الشاعر بشيء من الاطمئنان بعد أن أفرغ شحنة من الهم في تساؤله العجيب ، وفي ظمأه إلى ماء الحبيب فتتطور الأمنية ، وتظهر في صورة أرقى :

لقد صار يتمنى بدوً وظهور أعلام الوطن (بلاد الأشواق)
وهي أعلامه وعلاماته التي بها يعرف .

وهذه الأمنية تذكرنا بالغريب أنحن الأسفار في صور سابقة ، وتذكرنا كذلك بما أفضنا فيه عند الحديث في جو القصيدة . شعور بالغبية .. ، ثم اشتياق وحنين .. ، ثم رحلة إلى بلاد الأشواق ! .

فالشاعر يتمنى هنا أن تلوح للغريب هذه الأعلام لتكون علامة على بلوغ الديار وانقضاء الأحزان والأكدار ، بعدما سفت السواقي على هذه المعالم فطمستها .

إنه مشهد يبرز لنا الغريب الذي كان يعاني أهوال الغربة ، ويكابد مشاق السفر في صحراء مطموسة المعالم ، فهو يتمنى أن تبدو له

تلك المعالم - أعلام الوطن - ليسعى إليها ويبلغ مشارفها بعد
شدة معاناة .

ثم تأخذ الصور في النمو والتتابع ، فها هو قد صار يتمنى بعد
الوصول إلى الأوطان أن يفرش خده على الأعتاب في خضوع واستعطاف
عسى أن يرحمه الله تعالى .

وهو يطلق الفعلين (يرقوا ، ويرحموا) ، ليكون الإطلاق أشمل
لرغباته العظيمة ، وليشعرنا كذلك بمدى حاجته وعوزه إلى هذه
البرقة المطلقة ولهذه الرحمة العامة .

وها هو يتدرج بأمانيه حتى يصل بها إلى الأبواب . . فيتمنى
أن يرمى نفسه طريحاً بالباب بينما الطيور من فوقه تحوم ! .
وأى طيور ؟ إنها طيور منايا الحب .

وفي إضافة المنايا إلى الحب ما يدل على أن الشاعر لا يزال يعاني
مشاعر قوية عنيفة ، وذلك في مشهد تمثيلي رائع ، يتألف من طريح
مسكين على الباب يعاني مشاعر متباينة من الفرحة بالوصول ، مع
رغبة في الدخول ، بينما طيور منايا الحب من فوقه تحوم وتجول .

ولاحظ أن الأمنيات هنا تأخذ بعداً إنسانياً عميقاً ، لأنها ليست
أمنيات مجردة مطلقة ، بل هي أمنيات مرتبطة بالمكان والكيفية ،
بالع الشاعر في إعطائها التفاصيل الخاصة والدقيقة ؛ فكانت أقرب
إلى كل قلب ، وأدنى من كل إنسان .

وهذا يستطيع القلب أن يلمسها عن قرب ، ويحق للإنسان أن يحياها ويستغرق فيها .

وقد تفيدنا هنا ملاحظة استخدام الشاعر لنون التوكيد الثقيلة في البيت الأول (الأمنية الأولى) ، ثم استخدامه النون الخفيفة فيما تلاها من أُمْنِيَات .

لقد كان - أولاً - بعيداً عن جو التمني ، غريقاً في مشاعر الخوف ، والإشفاق ؛ ولهذا نراه يبالغ في توكيد أُمْنِيَةِ ، لأنه يراها - في حالته تلك - بعيدة ، صعبة المنال : (يؤكدها باستخدام أداة الاستفتاح ، وأسلوب الاستفهام ، ونون التوكيد الثقيلة) .

فلما تجاوز هذه المرحلة ، وشعر بشئ من الاطمئنان ، وهبت عليه نسائم السكينة ، ووصل إلى مراحل متقدمة ، نراه يتمثل أُمْنِيَّاتِهِ أكثر إمكانيةً وتحقيقاً مما لا يحتاج معه إلى المبالغة في التوكيد ، فناسب هذا أن يستخدم النون الخفيفة (١) .

ونحن نلاحظ هنا أن الشاعر استخدم أسلوباً بلاغياً يسميه البلاغيون أسلوب الالتفات (٢) .

(١) هذه الملاحظة مستفادة ، من تحليل الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز الموافي لقصيدة جميل التي مطلعها : ألا ليت ريعان الشاب جديد ...

وذلك نقلاً عن الدكتور شكرى الفيصل . انظر المرجع السابق .

(٢) يقول ابن القيم : هو نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى كالانتقال من الغيبة إلى الحضور ومن الحضور إلى الغيبة كقوله تعالى « مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين » الفاتحة (٤ ، ٥) انظر الفوائد المشوق لعلوم القرآن . صفحة ٩٨ المتنبي .

فقد كان يتحدث عن الأحباب بضمير الغيبة حين كان يشعر
بالبعد وصعوبة الوصول ، أما الآن وقد شعر بالدنو والقرب ، صار
يخاطبهم بضمير الخطاب والحضور .

فما منكم بد ، ولا عنكم غنى . وما لي من صبر ، فأسلو عنكم
ولقد كان الشاعر جديراً بالسعادة بعد تخطي الصعاب ، والوصول
إلى الأبواب ولكنه لا يزال يبدو أسيفاً ، حزيناً كأنما يعاني مرارة
أخرى . فلماذا ؟ .

إن الشاعر هنا صادق كل الصدق في نقل حالته بوصف يبرز لنا
كل ملامحه الإنسانية ، وكأنه يجسدها لنا حية جلية .

إنه لما بلغ الأعتاب والأبواب ، زاد شوقه وتوهج ، وصار في
حالة هائلة من الجيشان العاطفي ، وفي حالة نفسية يعانيتها كل
إنسان محب ، صادق ، أحس بازدياد قربيه من محبوبه .

وهكذا يكون الشاعر في شعوره بالأسى والأسف في مقام الاقتراب .
أقرب إلى الروح الإنسانية الصادقة وإلى تجاربها إحساساً وتعبيراً .
فكيف عبر الشاعر عن هذا الحزن الصادق ؟ .

فيا أسفى ، تفنى الحياة وتنقضى وذا العتب باق مابقيتم وعشتم (١)
فما منكم بد^د ، ولا عنكم غنى وما لي من صبر ، فأسلو عنكم (٢)

(١) ذا : أصلها هذا ، العتب : اللوم .

(٢) أسلو : أنسى .

إنه يأسى ، ويأسف ، ويستعدى إشفاقنا ، لأنه يضع لقصته
عقده تستعصى على الحل . لأنه يبدأها ولا يستطيع أن ينهيها (١)

والعقدة التى بينها لنا الشاعر ، عقدة عميقة حقاً ، وهى كذلك
عقده قاعة وباقية ، لا تنفى بفناء الحياة ، ولا تنقضى بانقضائها .
ويزيد من عمق العقدة وحدتها أنه لا يستطيع لنفسه منها فكاً
ولا عنها سلواً .

فما منكم بد ولا عنكم غنى .

وهذه حالة تستدعى الإشفاق حقاً .

فنار الألم ، ومنايا الحب المحلقة فوق رأسه ، ومرارة العتاب
أهون على الشاعر من أن يصبر أو يسلو ، وما ذلك إلا لأنه إنما يطمح
إلى غاية عليها تهون فى سبيلها المشاق .

ومن شاء فليعتب سواكم فلا أذى إذا كنتم عن عبدكم قد رضيتم (٢)
وعقبى اضطبارى فى هواكم حميدة ولكنها عنكم عقاب ، ومأثم (٣)

الظلال هنا تقوم بوظائفها فى كلمة «اضطبار» التى تصور شدة
الصبر وصعوبته (تلك الصعوبة التى نلمسها فى نطق الصاد والطاء

(١) انظر قراءة فى الشعر الأموى (٢/٦٩) .

(٢) فليعتب : فليلم .

(٣) مأثم : الأمر الذى يَأْثُم به الإنسان ، أو عقوبة الإثم .

من حروف الاستعلاء متجاورين ، تعقبهما سهولة حرف الألف تلك
السهولة التي يتوهمها الصابر أحياناً ، ولكن صعوبة أخرى سوف
تعقب ذلك في نطق الراء وتكريرها في طرف اللسان) .

وهكذا تتآزر الملامح الصوتية في رسم صورة حية لحالة الشاعر
النفسية وهو يعاني مرارة هذا الاصطبار (١) .

ولكن ! أى اصطبار هذا ؟ .

إنه اصطبار في هوى المحبوب ، اصطبار لذيذ تتقبله النفوس
الشريفة وتحمله ، في محبة ورضى .

نقول هذا ، لأن هناك اصطباراً آخر ، ليس فيه إلا الألم والشقاء
ذاك هو الاصطبار عن المحبوب ، اصطبار منفر لأنه عقاب ومأثم

* * *

ثم يستمر الشاعر في نغمة رضى هادئة ، ناعمة وإن كانت
تمتزج بملامح خفية من المرارة والحزن ، ولكن الحزن يصير حزناً
ناعماً شفيفاً بعد أن كان قاسياً وعنيفاً !

وما أنا بالشاكي لما ترتضونه ولكننى أرضى به ، وأسلم

(١) سوف يأتي الكلام عن تنبيه ابن القيم رحمه الله إلى العلاقة بين اللفظة ومدلولها .

إن ظلال كلمة الشاكى هنا - رغم أنها في أسلوب النفى - تشيع
جواً خفيفاً من الشكوى ، أو على الأقل تدل على أن الموقف مناسب
للشكوى ولكن الشاعر سوف يابأها ، ويرفضها ، مستغرقاً فى الرضى
والتسليم ! .

والشاعر بعد أن بلغ به الأسى منتهاه - فيما سبق - يحاول الآن
أن يعزى نفسه ويعللها ، فيفلح حيناً ، ويخفق أكثر الأحيان .
ثم ينتهى من حيث بدأ . . باللهفة ! .

ولكن اللهفة هنا كذلك - ككل ما فى السياق - تبدو هادئة ،
ناعمة بعد أن كانت قاسية ، عارمة .

وحسبى انتسابى من بعيد إليكم ألا إنه حظٌ عظيم ، مُفخِّمٌ (١)
إذا قيل : هذا عبدهم ومحبتهم تهلل بشراً وجهه ، يتبسم (٢)
وها هو قد أبدى الضراعة سائلاً لكم بلسان الحال ، والقليل مُعْلِمٌ (٣)
أحبته ، عطفاً علينا فإننسنا بناظماً ، والمورد العذب أنتم (٤)

(١) مفخم : عظيم القدر .

(٢) تهلل بشراً : تهلل وجه الرجل من فرحه ، والبشر : الفرح ، وطلاقة الوجه .

(٣) الضراعة : الذل والخضوع والابتهال لله سبحانه .

القليل : القال والقليل اسمان من قال يقول وقال فى الإنصاف هما فى الأصل فعلان ماضيان
جعلنا اسمين واستعمالاً استعمال الأسماء . المصباح (٨٠١) ، معلم : المعلم : الأثر يستدل به
على الطريق . (مختار الصحاح ٤٥٢) أراد أن لسان القليل دليل على ما يكتنه لسان الحال .

(٤) هذه رواية (طريق المجرتين) والأصل

أحبته عطفاً ١ عليه فإنه لمظماً ، والمورد العذب أنتم
وعطفوا عليه . أى اعطفوا عليه عطفاً . =

النعمة لا تزال هادئة ، فيها آثار باقية من الشكوى والمرارة
الخفية ، وظلال الكلمات تعين على هذا الشعور .

فكلمتا « الضراعة » « والظماً » تشيعان هذا الجو من الأسى .
أما جو الرضى والتسليم والفرح الهادئ المستبشر فتشيعه كلمات :
(أرضى به ، وأسلم) ، و (إنه حظ عظيم مفخّم) ، (التهلل
والبشر والتبسم) .

وأما الرغبة والتشوق الهادئ الناعم ، فتشيعه كلمتا (أحبته
عظفاً عليه) ، و (المورد العذب) .

وهكذا تتآزر الصور ، والظلال مع النعمة ، والإيقاع لنقلنا إلى
مشهد حى ، تقربه إلينا وتطبعه فى الحس والوجدان ، فالوجه يتهلل
فرحاً وتنبسط أساريره ، وتشرق ابتسامته لسماعه انتسابه إلى الحبيب
بكلمة التشريف (عبد الله) ، ذلك لأن الإضافة هنا إضافة تشريف
وتكریم كما تقول بيت الله وناقة الله . وكذلك حركة إبداء الضراعة
والمناجاة بالعين والفؤاد ، الذى لا بد أن تنطبع ملامحها على الوجه
والجوارح ، فتمدنا بمشهد تعبيرى صامت ، ومعبر .

وأخيراً صورة الظامى المتلهف على عطف الحبيب ، وورود المورد
العذب .

وما نكاد نقف مع الشاعر عند هذه المرحلة حتى ندرك مدى

ما عانى وصارع وجاهد حتى وصل إلى تلك الحالة من الهدوء .
(الهدوء الذى يعقب العاصفة) كأنَّ الشاعر قد استنفد كل جهده
فيما سبق ، فلم يعد يملك إلا حشاشة تذوب ، أو كأنَّه الغريق حل
عليه التعب والوهن بعد صراع عنيف ، مع الأهواج ، وضاع
صوته بعد طول استغاثة وصراخ .

لقد حل عليه الوهن تماماً فهو يمد يده فى صمت واستجداء يدعو
ويرجو بنظرات مسكينة بعد أن احتبس صوته وبلغ به الضعف مبلغه .

* * *

ومن هنا . . سوف يأخذنا الشاعر معه إلى رحلة جديدة ولكنها
أصعب وأشدَّ خطورة ، ولكنها كذلك أبعد وأرقى بأكثر مما نتصور .

إنها رحلة إلى العالم الآخر . .

ولهذا فإنه تمهيداً لهذه الرحلة الرهيبة ، يمدنا ببعض النصائح .
كتلك النصائح التى تقدم لركاب الطائرة حين تتأهب للصعود
والتحليق .

فالشاعر هنا ينصحننا بالإفاقة والانتباه ، وهى نصيحة تقابل تنبيه
الركاب « الطائرة تستعد للتحليق » ثم يوصى بالاستمساك بالعروة
الوثقى وهى تقابل « اربطوا الأحزمة » .

وبالطبع فإن العلاقة هنا لم تكن فى ذهن الشاعر أثناء كتابة
تجربته الشعرية ولكن رهافة الحس واستغراق الشاعر فى جو الرحلة ،

كل هذا ارتقى به إلى منزلة من الإدراك السامى ، لا تعترف بحدود الزمان والمكان .

لقد رأى أن الرحلة خطيرة رهيبة ، وأنها تحتاج إلى تقديم النصائح والتوجيهات بالاستعداد والتأهب ، وبالاستمساك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والتحذير من الوقوع فى مراتع الهلاك .

وهذه النصائح والتوجيهات ، لم يقدمها فى أسلوب مباشر ، وإنما عرضها بطريقته الأثيرة ، المحببة ، بالصور والظلال ، فأمدنا بصورة الساعى المغمور فى الجهل والهوى ، وقد وقع صريع الأمانى الكاذبة ! .

كما أمدنا بصورة دنو الوقت ، الذى تعقبه صور أخرى للجنة بكل ما توحى من النعيم والسعادة ، وصورة النار تتضرم وتشتعل ، كما أمدنا كذلك بصورة المستمسك بالعروة الوثقى تمسك البخيل ، الضنين بماله .

ثم صورة العوض عليها بالنواجذ ، وهى صورة توحى بشدة الحرص والتعلق ، ثم صورة مراتع الحوادث الوخيمة ، التى توحى بجو الرهبة والخوف .

وهكذا يستدرجنا الشاعر بهذه الصور المتتابعة ، المتلاحقة حتى نرى أنفسنا فجأة فى مشهد يوم العرض الأكبر . وياله من مشهد ! والشاعر يتلطف بنا فى الدخول إلى هذا المشهد الهائل ، ويطلبنا بالتهيؤ له . بماذا ؟ .

بإعداد الجواب ! هكذا في إطلاق يشير الغموض والجلال ،
ثم لا يكاد يفرغ من هذا التنبيه حتى يفاجئنا نداء جليل رهيب ،
تنخلع لهوله القلوب .

وهىء جواباً عندما تسمع النداء من الله يوم العرض : ماذا أجبتكم (١)
به رسلى لما أتوكم فمن يكن أجاب سواهم . سوف يخزى ، ويندم (٢)

إنه نداء من الله سبحانه ، نداء جليل يرتفع ويسمو على حدود
التصور والإدراك (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٣)

وسوف يكون لآثار النداء جلالة خاصة في الآذان والأفئدة .
إنه نداء رهيب ، لأن من يخطيء إجابته سوف يصاب بالندامة والموان ،
بل إن من علم من نفسه افتقاد الجواب السليم ، فلسوف يبهت ويغرق
في ذهول ، فلا يستطيع قولاً ولا اعتذاراً من هول الموقف وخطورة
المقام .

والآن . فلنحترس ! .

إننا مقدمون على مرحلة من أخطر مراحل الرحلة على الإطلاق
ولابد - والحال هذه - أن نعتصم بجنة واقية .

وخذ من تقى الرحمن أعظم جنة ليوم به تبدو عياناً جهنم (٤)

(١) النداء : النداء .

(٢) يخزى : يذل ويهون .

(٣) سورة الشورى من الآية (١١) .

(٤) جنة : السرة وكل ما وقى من السلاح ، عيانا : عاينه عيانا : مرآة بعينه .

ويُنصب ذاك الجسر من فوق متنها

فهـاـو ، ومخدوش ، وناج مُسَلَّم (١)

والجُنَّة الواقية هي تقوى الله عز وجل .

ولاحظ المناسبة اللطيفة بين ظلال الكلمتين (الجنة ، والتقوى)
فهذه جنة من سهام الحرب ، وتلك وقاية من عذاب الله . فكلاهما
وقاية وتحصن من الشرور والأهوال .

كما أن الكلمتين توحيان بخطورة الموقف، الذى يستلزم الجنة
والوقاية .

والشاهد لا يقدم لنا صورة جهنم - رغم هولها - منفردة، بل إنه
يجعلها أرضية لأحداث رهيبة ، رهيبة .

فهذا جسر ينصب الآن من فوقها ، والناس عليه يعبرون .
فإذا عرفنا أن هذا الجسر أدق من السيف، أدركنا أى مشهد مثير ،
يعرض علينا .

أناس متباينون فى مرورهم بهذا الجسر (البصراط) ؛ فالبعض
يهوى من فوقه منذ البداية بعد ترنح فى محاولة للتوازن قبل السقوط
المروّع .

(١) منها : ظهرها ، هاو : ساقط ، مخدوش : مجروح . وسوف نتحدث عن
هذا بالتفصيل إن شاء الله مع عرض الأحاديث الواردة فيه عند شرح القصيدة .

والبعض يفلح في محاولة التوازن والمرور، ولكن بعد أن تأخذ الكلايبُ التي تحوط الجسر حقها منه ، فتكتفى بخدشه .

وفي خضم هذه المشهد المهول ، تبرز لنا صورة مشرقة ، ولكنها - للأسف - سرعان ما تمر ، تلك هي صورة نجاة البعض وسلامتهم .

ثم يختفى المشهد كله سريعاً ؛ فإذا نحن في موقف آخر ، وفي هول من نوع مختلف ، إنه ليس ناشئاً عن نيران وجسور وكلايب . وإنما الهول ناشئ من خطورة أخرى .

إنه موقف تحديد المصير !

وببدأً الموقف بداية غير عادية ، بداية تفوق التصور وتسمو على التخيل ، ولكنها تثير في النفوس ما تثير .

ويأتى إله العالمين لوعده.....
ويأخذ للمظلوم ربك حقه .
فيفصل ما بين العباد ويحكم
فيابؤس عبد للخلائق يظلم !

وينشر ديوان الحساب وتوضع الموازين بالقسط الذى ليس يظلم (١)
فلا مجرم يخشى ظلامه ذرة ولا محسن من أجره ذاك يهضم (٢)

إنه معرض المشاعر الإنسانية ، المتباينة في هذا الموقف العصيب .
موقف العرض والحساب .

(١) القسط : العدل .

(٢) ظلامه : المظلمة اسماً لما تطلبه عند الظالم ، ذرة : الذر صغار الخمل والواحدة ذرة .

يهضم : ينقص حقه .

يسترجع كل إنسان أعماله في وجل وإشفاق (فيابؤس عبد للخلائق
يظلم) .

ويبلغ الإشفاق مداه ، والمشاعر أوجها عند حركة نشر ديوان الحساب
ووضع الموازين .

ثم تتباين المشاعر ؛ فالمجرم على يقين من أنه لن يظلم مقدار
ذرة فيفد بذلك نعمة كبرى ، يواسى بها المكروب في الدنيا نفسه
ويصبرها بأنه مظلوم ، برىء .

إن مكروب الآخرة ، لن يستطيع أن يخدع نفسه بهذا الشعور
من البراءة ، والإحساس بالظلم ؛ (فلا مجرم يخشى ظلامه ذرة)
والصورة المقابلة لذلك هي صورة المؤمن المطمئن لموعود ربه
(ولا محسن من أجره ذاك يهضم) .

ثم يمدنا الموقف بمشهد مشير وطريف .

إنه مشهد « شهادة الأعضاء » بما يوحى ذلك من إثارة وطرافة .
فترى صاحب هذه الأعضاء الناطقة ، ولا بد أنه رجل متمرس بالكذب ،
والحيلولة ، والدهاء ، وأنه يستعد الآن لإلقاء خطبة براءته المزعومة ،
ولكن المهيمن - سبحانه وتعالى (وبما توحى الكلمة من سيطرة واقتدار)
يختم على فيه ، فإذا الأعضاء - التي كان إنما يدافع عنها ويجادل -
إذا بهذه الأعضاء تشهد عليه بجنائته ، وتففضحه على رؤوس الخلائق !

وبعد عرض هذه الصور والمواقف التي كانت تعرض علينا ،
ولا نقوم فيها إلا بدور المشاهدين ، إذا بالشاعر ينقلنا - فجأة -
إلى خضم الموقف الرهيب فنحن فيه شخوص حاضرين .

وقد توسل الشاعر لذلك باستخدام أسلوب الالتفات وهو كما
قلنا الانتقال بالضمير من حال إلى حال ، وهو هنا ينتقل بالضمير
من حالة الغائب إلى حالة المخاطب الحاضر ، والشاعر لا يختار لنا إلا
موقفاً في غاية الخطورة يزج بنا فيه ، ويقحمنا لنشارك بعد أن حسبنا
أننا سنظل مجرد مشاهدين !

فياليت شعري ! كيف حالك عندما تطاير كُتُب العالمين ، وتُقسَمُ

وها أنت الآن - بنفسك - تشاهد وتتابع حركة تطاير الكتب ،
وها أنت تترقب - في إشفاق وانبهار - انتهاء حركة هذا التطاير
وتتساءل : أبااليمين تأخذه ، فتكون هذه دلالة الفوز ، وشهادة النجاة
أم بالشمال ، فتكون علامة الخسران ؟

وإنه يتلطف فيعرض الصورة الأولى مشرقة ، مطمئنة . فتهدأ
قليلاً بعد أن يكون قلبك قد تطاير مع حركة تطاير الكتب ، وهي فرصة
جيدة لالتقاط الأنفاس !

وتقرأ فيه كل شيء عملت..... فيشرق منك الوجه أو هو مظلم

صحيح أن الصورة لا تزال متداخلة ؛ إشراق وظلمة ، ولكن الإشراق
هو الغالب .

تقول : كتابي فاقروعه ؛ فإن..... يبشر بالفوز العظيم ، ويُعلمُ

إن حركة الفرخ بارزة ، شاخصة ، ومما يزيد من بروزها وحيويتها أنها تثير في النفس حركة أخرى باستدعاء التجارب الماثلة لهذا الموقف وذلك عندما يطير أحدها من الفرخ عند علمه بنجاحه في أمر من أمور الدنيا ، يريد أن يعلم العالم كله به ، ويشهده عليه ، ويريه شهادة نجاحه ودرجته العاليه ، ليشاركه الجميع فرحته العظيمة .

فإن تكن الأخرى فإنك قائل : ألايتنى لم أوتّه » ، فهو مغرم (١)

هذه هي الصورة المقابلة : صورة الخيبة ، والمرارة . حتى ليودّ صاحبها لو لم يكن أوتى هذا الكتاب من الخزى .

ويغتم الشاعر الفرصة - كعادته - فيقدم بعض النصائح ، يعرضها بطريقته الأثيرة في صورة موحية ، سريعة ، تناسب سرعة تتابع نصائحه الحاسمة .

وجدّ ، وسارع ، واغتم زمن الصبا ففي زمن الإمكان .. تسعى ، وتغتم

الإيقاع سريع ، وظلال الكلمات يوحى بالسرعة والحسم . (جد ، وسارع ، واغتم) وكذلك الصورة سريعة تناسب السياق :

وسر مسرعاً ، فالسيل خلفك مسرعاً وهيئات ! ما منه مفرومهمزم (٢)

وهي خطيرة تناسب خطورة المقام .

(١) مغرم : خاسر :

(٢) أى والسيل خلفك يسير مسرعاً .

مفرومهمزم : مهرب وملجأ ، والهزمة هي القرة في الصخر : المصباح ٩٨٧ :

فحركة السيل ، السريعة ، المتدفقة تلاحقك في سرعة ، تريد أن
تودى بك ؛ فعليك أن تسرع ، وتسرع .

فهن المنيا أى واد نـ.....زلته عليها القدوم أو عليك ستقدم
والصورة للمنايا وهى تبحث عنك وتجدُ فى إثرك ، تطاردك
من واد إلى واد حتى تتحين فرصة الإقدام ، والبطش بك فى أى واد
نزلت ، مهما يكن هذا الوادى .

* * *

وأخيراً . . . وصلنا إلى بلاد الأشواق .

بعد رحلة طالت ، ومشاق كابدنائها ، وأهوال عانىنها وقاسينائها

وما ذاك إلا غيرة أن ينالها سوى كفئها . والرب بالخلق أعلم

لقد كان لابد لنا أن نعانى وأن نكابد حتى نصل إلى هذه الغاية
المرجوة ، وهذا الأمل المرغوب الذى كان يلوح لنا به الشاعر أحياناً
فى ومضات تبرق ثم تختفى ثم تبرق من جديد .

وإن ججبت عنا بكل كربة وحفت بما يؤذى النفوس ويؤلم (١)

فهذه هى طبيعة الآمال البعيدة الغالية ، لا يتوصل إليها إلا
بتحمل المكاراة والتذاذ الأذى .

«ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر»

وتلك هى طبيعة الجنة - سلعة الله الغالية - حفت بالمكاره كما
حجبت النار بالشهوات .

وصورة حجب الجنة بالمكاراة ، تشير فى النفس مشاعر غزيرة .
وتشير فيها محاولة تخطى هذه الحجب ؛ لاستكشاف ما وراءها من
مشاهد النعم ، وكذلك تطلق النفس فى طريقها المحفوف بالأذى فى
محاولة الاجتياز والوصول حتى إذا وصلنا - مع الشاعر - طالعنا الجنة
بمسراتها ، وأصناف لذاتها ، فتنعم - معه - ببرد العيش بين خيامها ،

(١) انظر الشرح والأحاديث الواردة أثناء شرح القصيدة إن شاء الله ٥

وتتجول ، وتتنسّم عبير روضاتها في هناء عظيم ، وتَهيم بوديانها في سرور مقيم .

فلله ما في حشوها من مســـــرة وأصناف لذات ، بها نتنعمُ (١)
ولله بـرد العيش بين خيامها وروضاتها، والثغر في الروض يبسمُ (٢)
يستخدم الشاعر طاقته الفنية - وهي طاقة مذهلة - ويحشدها كلها ليقرب إلى قلوبنا هذه الصورة المشرقة للجنة .

فالمسرات ، وأصناف اللذات ليست مبثوثة في جو الجنة وطرقها فحسب ، وإنما هي في حشوها ؛ فتوحى الكلمة بتداخل وامتزاج المسرات وأصناف اللذات في قلب الجنة وحشوها :

ونسمو - مع الشاعر - في الجنة درجات بعد درجات ، فإذا نحن في مشهد يجل عن الوصف ، ويعلو على الإدراك .

فلله وادها ، الذي هو موعد المســـــة . زيد لوفد الحب . او كنت منهم (٣)
بذيالك الوادى يهيم صبا بـــــة محبٌ يرى أن الصبا بة مغم (٤)
ولله أفراح المحبين عندمـــــا يخاطبهم من فوقهم ويسلم

(١) حشوها : الحشو : ما حشى به الشيء .

(٢) الثغر : هو الميسم أى الفم :

(٣) موعد المزيد : انظر الشرح فيما بعد .

(٤) صبا بة : هي حرقه الشوق .

ولله أبصار ترى الله جهنيرة فلا الضيم يغشاها ، ولا هي تسأم (١)
 فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ! أمن بعدها يسلو المحب ، المتيم (٢)
 إنه موعد الأفراح ، والمزيد .

الموعد الذى عرفنا الآن أنه سر هيام الشاعر وشكواه ومعاناته
 فيما سلف .

بدأ الشاعر بتحديد المكان والزمان ؛ فالمكان هو الوادى الذى
 يهيم به المحب صباية ، ويتحرق إليه شوقاً ، وهو يظلل المكان بجو
 من الفرحة والسرور .

أما الزمان ، فإنه يوم المزيد ، وهو اليوم الذى يقابل يوم الجمعة
 كما سيأتى فى سياق الأبيات من الشرح إن شاء الله .

والآن وبعد أن تعرفنا الزمان والمكان ، بقى أن نتابع الأحداث .
 والأحداث تبدأ بقدوم وفد الحب ، تعلق وجوههم بشائر الفرح
 وهم يستمعون لخطاب الله سبحانه من فوقهم ، يسلم عليهم .

والظلال تبرز لنا الجو النفسى الذى يحيط هذا الموقف الجليل
 بكلمة (أفراح المحبين) .

والظلال تبين لنا جلال هذا الموقف بكلمة (من فوقهم) ولم يبق

(١) سوف يأتى تفصيل ذلك والآيات الواردة أثناء سياق الأبيات فى الشرح
 إن شاء الله ، الضيم : المشقة والنصب ، يغشاها : يأتينا ويصيبها ؛
 (٢) نضرة : حسن ، ونضره الله أى نعمة الله .
 يسلو : ينسى ويرضى بالهجر ، المتيم : المنفرد بوجهه .

للخيال إلا أن يحلق في محاولة للوقوف على شيء من عظمة أفراح المحبين في موقف جليل ، جليل .

ولله أبصار ترى الله جهرة فلا الضيم يغشاها ، ولاهى تسأم وهذه لذة أخرى ونعيم ، يفوقان كل ما سبقهما من اللذات ، وما يتلوهما من المسرات .

كيف لا وهى نهاية أشواق المحبين . . وغاية رحلة المهاجرين ؟ !

وسوف نتحدث أثناء الشرح - إن شاء الله - عن الرؤية وإثباتها وما ورد فيها من أحاديث ، ولكن بحسبنا هنا أن نعيش لحظات قصار فى ظلالها .

إنها رؤية عظيمة - جليلة - تجل عن الوصف ، وتسمو على الإدراك وإنها رؤية خالصة ، لا يشوبها الضيم ولا يبلغها السأم .

ومن روعة هذه الرؤية وجمالها أنها تهدى الوجه بضرة ، وأنها تسقى الفؤاد رياً لا ظمأ بعده .

فيانظرة أهدت إلى الوجه بضرة أمن بعدها يسلو المحب المتيم

وعندما نصل - مع الشاعر - إلى هذه الدروة السامقة ، وتلك القمة العالية من النعيم الذى لا نعيم وراءه ، ندرك أسرار تشوقه السابق ، وتذكر - بإعظام - مدى ما لاقى من المعاناة .

فإذا وصلنا - معه - نسينا كل هذه الآلام ، بفيض النعيم الذى بلغة الآن ، فكأنه ما ذاق مشقة قط ! .

وإلى مشهد جديد ، نتوقع من خلاله أن الشاعر سيطوف بنا في
الجنة ، يتنقل بين مظاهر نعيمها المتعددة ، المتجددة :

ولله كم من خيرة لو تبسمت أضواء لها نور من الفجر أعظم

يطالعنا بهذه الصورة العذبة . . صورة النعيم مجسداً في حور
الجنة ، يجليها لنا متبسمة ، يضيء لابتسامها نور الفجر الأعظم ، ثم
يجليها لنا مقبلة ، تقبل لإقبالها اللذة والسعادة . فإذا تكلمت ، أخذت
الأسماع بنصيبها من اللذة والحبور ، أما إذا انثنت ، فإنها الغصن
الرطيب خجلاً وحياءً . فهي تنثنى ولكن في حياء وخَفَر . وتلك إضافة
جديدة وقيمة إلى تشبيه المرأة بالغصن حين تنثنى في الشعر العربي .

وقد وظفه الشاعر هنا ؛ لإكمال الصورة الحية للهور ، في تتبع حركاتها
وسكاتها ، وتبسّمها وحيائها .

والشاعر سعيد بالموقف - وهو يدرك أنه أسعدنا - فلا يمر به
سريعاً ، بل يعيش فيه لحظات متملياً ، متأملاً ، متنعماً .

فإن كنت ذا قلب عليل بحبها فلم يبق إلا وصلها لك مرهم

إن جمالها - فوق أنه متعة للعين وبهجة للآسماع - علاج للقلوب
وشفاء ، وهي إشارة يسيرة خاطفة لكل ما كابده الشاعر من قبل في
رحلة الصعود والارتقاء ، وإنه ليصف لنا هذا العلاج الأكيد في
صورة محبة ، مثيرة ، مشوقة .

ولا سيما في لثمها عند ضرسها وقد صار منها تحت جيدك ، ينعصم
الصورة كاملة ، وغنية بالتفاصيل الدقيقة ، تتأزر فيها الجزئيات
لرسم مشهد حي . . متكامل .

وقد بلغت الصورة (صورة حسن الحور العين وجمالها) الذروة
من القوة والتأثير حتى إنها لتعالج العليل من بُعد بعيد .

يراهنا إذا أبدت له حسن وجهها . . يلذ به قبل الوصال وينعم

هذا نعيم ما قبل الوصال . فكيف بالوصال نفسه ؟ !

وإن حسنها ليس من ذلك الحسن البسيط ، المفرد . . إنه حسن
متعدد ، متجدد ، لا يخبو ، ولا ينفد .

تفكه منها النفس عند اجتلائها فواكه شتى طلعها ليس يعلم (١)

ولنعش في ظلال هذه الصورة لحظات . . ولنتأمل في الكلمات التي

وسمت لنا هذه الصورة (تفكه ، اجتلائها ، فواكه شتى ، طلعها)

فكه الرجل فهو فكه : إذا كان طيب النفس

وبهذه الصورة تطيب العين وتنعم باجتلاء الجمال وتعيش في

نعيم قريب من نعيم طيبة النفس . . ويا له من نعيم !

وقد ربط الموقف بين تفكه العين وبين مظاهر الحسن في التعبير

بكلمة « فواكه شتى »

(١) لثمها : تقبيلها ، جيدك : عنقك ، معصم : موضع السوار من الساعد ،

(١) تفكه : تتعجب ، وتنعم .

والاجتلاء يوحى بالظهور للعين والوضوح والانكشاف ، كما يوحى
بانجلاء الهم أى ذهابه .

وبهذا تظهر لنا صورة الحور مجلوة ، فى سعادة ، وهناء وكذلك
كلمة « طلعها » التى تشيع جو البساتين والرياض . ذلك الجو الهنىء
وهكذا تتعاون الظلال جميعاً فى رسم لوحة يشيع فيها جو من
طيبة النفس ، وسرورها ، وهنائها .

* * *

ثم يمد اللوحة بتفاصيل جديدة ، فإذا نحن فى البستان حقيقة
وأى بستان !

عناقد من كرم ، وتفاح جنة ، ورمان أغصان بها القلب مُغرْم
وللورد ما قد ألبسته خدوده..... وللخمر ما قد ضمه الريق ، والفم
تقسّم منها الحسن فى جمع واحد فيأعجباً من واحد يتقسّم !

يطالعنا البستان بعناقد الكرم وتفاح الجنة ورمان الأغصان .
وهذه أسماء فواكه الجنة ، تلك الفواكه التى لا يجمع بينها وبين
فواكه الدنيا إلا الأسماء .

وما هذه الأسماء إلا مجرد رموز لأشياء فى الجنة لا يمكن لنا
أن ندركها بالحس ولا بالخيال . . فبحسبنا أن نعيش فى ظلها
-- ظلال الجنة -- بمساعدة هذه الأسماء والرموز !

ويعود الشاعر إلى وصف حسن الحور ، وتقريبه لنا بتشبيهات مألوفة :

وللورد ما قد ألبسته خدودها وللخمر ما قد ضمه الريق، والفم

ثم يتعجب من تجمع حسنها في تناسق ونظام مع تفرقه وتعدد
وتشعبه ، فتتساءل العين : هل هو حسن واحد أم متعدد ؟

تقسم منها الحسن في جمع واحد فيأعجباً من واحد ينقسم
إنه حسن واحد، ولكن العجب في تشعبه كالشعب الواحد يتشعب
في الوديان ليعم خيريه على الجميع .

وإن لحسنها سطوة تذكر ناظرها باستحالة السلو عنها، وتدهش
اللسان فلا يملك إلا التسبيح

تذكر بالرحمن من هو ناظر بجملتها أن السلو محرم
لها فرق شتى من الحسن أجمعت فينطق بالتسبيح ، لا يتلثم !

ثم يمدنا الشاعر بصورة جديدة لسحر جمالها وسلطانها على القلوب :

إذا قابلت جيشَ الموم بوجهها تولى على أعقابها الجيش ، يهزم !

إن جيش الموم - على قوته - لا يستطيع الصمود أمام سطوة
ذلك الجمال ، جمال وجهها الآسر ؛ فنراه يعزم على الفرار في فوضى
وذعر وانهمام ، وهذا الانهمام هو شر أنواع الهزيمة ؛ لأنه انهمام من
داخل ، أمام سلطان أشعر هذا الجيش - منذ البداية - بالأقبال له
بمواجهته أو الوقوف أمامه !

ثم يلتفت إليك الشاعر - كعادته - بضمير الخطاب ليشركك

معه في روعة هذه المشاهد ، كما ينبهك إلى دورك فيها ، وأن مهمتك ليست مجرد المشاهدة .

فياخاطب الحسناء إن كنت راغباً فهذا زمان المهر ، فهو المقدمُ
ولاحظ أسلوب الشاعر (إن كنت راغباً) ، وانظر ماذا يقصد
منه ، إن السياق سوف يجيبك إجابة واحدة ، إنه لا يقصد إلا
ترغيبك وتشويقك ، ولا ينبغي إلا أن يهزم دواعي الكسل والغفلة
فيك ، وذلك كما يقول الطبيب لمريضه : « إن كنت راغباً في الشفاء »
فهو بذلك لا يخيره ، وإنما يحفزده ، ويُحمّسه .

والتحميس ظاهر ، جلي في أسلوب النداء « ياخاطب الحسناء ؛
فإنه تنبيه على علو شأن المرغوب فيه (الحسناء) ، وإشارة على وجوب
علو همة الراغب .

(ومن يخطب الحسناء ، لم يغله المهسر)

وفي البيت نوع آخر من الترغيب ، وذلك بالإشعار بندرة
الفرصة المتاحة ، ووجوب الإسراع في اغتنامها (فهذا زمان المهر
فهو المقدم) . وهو يوازن بين أساليب التشويق ، وعرض صورة
جديدة للحسن تغري الخاطب بالإقدام والمنافسة .

ولما جرى ماء الشباب بغصنها تيقن حقاً أنه ليس يهزم

والصورة لجريان ماء الشباب بغصن الحسن والجمال ، توحى
بالتدفق والحياة التي تستعصى على الهرم والفناء ، أو تستعصى على

الجزيمة أمام دواعي الشيخوخة (١) فلا فناء هنالك ولا شيخوخة بل شباب دائم ، خالد ، وغصن حي ، مورق ، نضر وكعادة الشاعر نراه هنا يوازن بين الترغيب والتحذير .

وكن مبغضاً للخائنات لحبها فتحظى بها من دونهن ، وتنعم ذلك أن هناك على الطريق المؤدى إليها عوائق ، ومحاذير فلتحذر من كل ما يعوق سعيك ؛ لتحظى بها وتفوز . فالمشهد يقدم لنا مقابلة بين الحور العين - بكل ما سبق من صفات الحسن الخالد والجمال الدائم - وبين الخائنات لحبها بما توحى الكلمة - كلمة الخيانة - من بشاعة وتنفير . .

* * *

ويستمر الشاعر في العرض والحث .

وكن أيماً مما سواها فإنهم..... لمثلك في جنات عدن ، تأيماً (٢)
إن الشاعر يستخدم في الحث أسلوباً نفسياً ، متعمقاً ، ينفذ منه إلى مسارب النفس ، ومكامن الشعور ؛ وذلك بعرض صورة لواحدة من الحور العين وهي تقيم هناك في جنات عدن ، تتأيم من أجلك أنت ، وفي لفظة الانتظارك ، تعد الليالي والأيام ؛ فلا أقل من أن تتأيم كذلك لها جزاء بجزاء ؛ فلا تكون أقل منها في حفظ العهد والوفاء .

(١) والتوجيه على اعتبار الروايتين (يهرم ، أو يهزم) ؛

(٢) تأيم : أصلها تتأيم ، والأيم : هو للعزب رجلاً كان أو امرأة .

وبهذا يصل الشاعر بينك وأنت على الأرض ، وبينها وهى فى السماء
ويعقد رابطة من الحب والوفاء ؛

وتلك صورة أخرى تهون عليك مشاق التأيم ، بل وتحببه إليك ،
فتلتذ به .

وصم بومك الأدنى لعلك فى غد تفوز بعيد الفطر ، والناس صوم

يعرض عليك الشاعر الأمر - أدر المجاهدة ، والتصبر فى سبيل
الوصول إلى بلاد الأشواق ، يعرض عليك ذلك الأمر فى صورة الصيام ،
وهى صورة محببة للنفوس ، توحى بعبير خاص يعرفه الصائمون ،
ويدركون لذته .

كما يتلطف فى بيان قلة المدة التى ستقضيه فى الصيام ، بها « يوم »
وهو يوم أدنى ، قريب ، سرعان ما ينقضى ، ثم يعقبه الفوز بفرحة
الصائم وجائزته (عيد الفطر) ذلك الفوز الباهر وتلك الجائزة التى
لا يستحقها إلا الصائمون .

ثم يترك الخيال ليرسم صورة الفرح ، المستبشر بالفوز بين قوم
خاسرين ، محرومين (تفوز بعيد الفطر ، والناس صوم) .

وها هو يدعوك - بعد كل هذا التمهيد - إلى الإقدام ، وعدم
القناعة بعيش حقير ، منغص ، يدعوك إلى الإقدام والجسارة ؛ لأن من
طبيعة اللذات ألا يفوز بها إلا المقدم الجسور .

ولنتابع الرحلة :

إننا نلمس الآن بعداً جديداً من أبعاد الرحلة ، ذلك البعد هو بعد الهجرة بما تشع الكلمة من مشاعر وظلال ، هجرة من مكان ضيق ، لا سبيل إلى الإقامة به . . وإلى أين ؟ إلى منازلنا الأولى التى فيها المخيم . إنها هجرة أقرب إلى الفتح والعودة إلى الديار الأولى بعد غربة ، وتشريد !

وإن ضاقت الدنيا عليك بأمرها ولم يك فيها منزل لك يُعلم
يعنى إذا أفقت ، وأدركت حقيقة حالك ، فشعرت بالغربة
فى هذه الدار الدنيا .

فحى على جنات عدن فإنها منازلك الأولى ، وفيها المخيم
فهلم وأقبل إلى جنات عدن التى هى منازلك الأولى قبل النزول
منها ، إنها تناديك بالعودة إليها ، والهجرة من ديار الغربة التى ضاقت
عليك بأمرها ، وأذاقتك منغصاتها !

وهذه الصورة توضح مقصد الشاعر تماماً .

إنها صورتنا نحن وقد وقعنا أسرى فى أيدي عدو لا يرحم .
ويظلل الصورة جو من الشقاء اللازم ، المحتم ، وهو يسألك : هل ترى
فى جمع المأسورين هذا من سعيد ؟ ! وهل يعرف السعادة من وقع فى
أسر العدو ، يحوطه الشقاء ومن كل مكان ؟ ! .

ثم ينتقل إلى مشهد أكثر نمواً ، وتطوراً ، وارتباطاً بجو الغربة ؛
فيذكرنا بمشهد الغريب قد بعدت به الديار ، وغاب عن أوطانه ،
ثم لم يشرك لنفسه يعانى مرارة الغربة ، والجوى ، بل تشتد به الأحوال ،
فنزاه ضعيفاً ، ذليلاً ، مهاناً ، أمره ليس لنفسه ، وإنما للإعداء ،
يتحكمون فيه ، ويتصرفون كما يشاءون !

ذلك لأنه يكون قد أسلم قياده إلى أعدائه ، وباع لهم روحه ونفسه ،
يسومونه الخسف ، وأصناف البلاء .

ولله در ابن القيم ، كأنه يصف الحالة التي وصل إليها العرب ،
والمسلمون في وقتهم الحاضر ، فيصور مأساتهم بصديق !

مرارة الغربة ، وأهوال الأسر ، وتحكم الأعداء .
وبعد أن صور لنا المأساة ، يرسم طريقاً للنجاة .

وحى على روضاتها ، وخيامها..... وحى على عيش بها ليس يُسَام

فإذا نحن في الجنة من جديد ، نعيش بين خيامها وروضاتها
قارن بين عيش منغص ، وعيش لا يُسَام ولا يمل ، وقارن بين الإقامة
وسط أعداء تتحكمهم ، والحياة في الروضات والخيام .

* * *

وما دمنا قد عدنا إلى ذكر الجنة ، فليقف بنا الشاعر قليلاً هنا ،
ويحدثنا عن السوق الذى هو ملتقى المحبين ، وعن يوم المزيد الذى
هو موعد أهل الحب والتكريم ، ويصف لنا الوادي الفسيح ، تربته

المسك ، ومنابره النور والفضة ، ثم يخبرنا عن مقاهد كُثبان المسك
في منزلة دون منزلة منابر النور .

وأعظم من هذا كله ، التشويق للرؤية الخالصة ، مثل بدر التّم
وصحو الشمس ، لا يشوبها الوهم أو الغيم .

ولأنّ الموقف - يأتى في سياق التحضيض والعرض ، ولأنّه يجيء
تلويحاً للغريب المسكين والأسير العاني ، تلويحاً لهما بالنجاة ؛ .

نلاحظ أن المشهد يمر في سرعة ، وتتابع ، بلا توقف ؛ فاللوحات
تمر سريعة هنا ، بعد أن كانت بطيئة هناك ؛ لأنها كانت هناك في
مقام الوصف الخالص ، أما هنا فالموقف قد اختلف . فالتلويح يجب
أن يكون في سرعة ، ووضوح ، والسرعة يبرزها الإيقاع ، والوضوح
تظهره ظلال الكلمات (نور ساطع ، البدر وهو تم ، الشمس في صحوها)

فبيناهم في عيشهم ، وسـرورهم وأرزاقهم تجري عليهم ، وتقسم

لاحظ حركة جريان الأرزاق في سرعة ، ثم لاحظ حركة سطوع
الأنوار فجأة ، ثم رفع الأبصار ومفاجأتهم التي يفيدها التعبير بإذا
الفجائية .

إذا هم بنور ساطع قد بسـدا لهم	وقد رفعوا أبصارهم ، فإذا هم
بربهم من فوقهم ، قائل لهم	: سلام عليكم ، طبتم ، ونعمتم
سلام عليكم ، يسمعون جميعهم	بيآذانهم تسليمه ، إذ يسلم
يقول: «سلوني اماشتهيتم ؛ فكل ما	تريدون عندي ، إننى أنا أرحم
فقالوا جميعاً: نحن نسألك الرضى	فأنت الذى تولى الجميل ، وترحم

ولأنّ المشهد جليل ، غاية في الجلال ، نرى الصورة تبطل شيئاً ما ، ونرى الشاعر يستخدم وسيلة فنية بارعة ، وهى الحوار . والحوار هنا ليس حواراً عادياً ، بل هو حوار متميز وفريد ، إنه حوار مع الذات الإلهية (١) . . فى الجنة .

حوار يبدأ بالتسليم وينتهى بالتكريم ، يظلمه جو الرضى والامتنان من جانب المحبين ، وجو الإكرام والرحمة والتفضل من الله عز وجل . ومن الواضح أن أسلوب الحوار متباين بين منتهى الجلال والكمال والقدرة عند الله عز وجل .

يقول سلوى ما انتهيت فكل ما نريدون عندى إننى أنا أرحم وبين منتهى الخضوع ، والرضى ، والامتنان عند المحبين .

(فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضى فأنت الذى تولى الجميل وترحم فنراهم يهبون جميعاً بالتضرع ، والسؤال الممتزج بالمدح الصادق والثناء العظيم .

وذلك بعكس حوار توفيق الحكيم الذى لم يقدر الله حق قدره ونسب له سبحانه كلاماً وأساليب ، لا يلقىان بجلاله سبحانه . .

(١) لاحظ جلال هذا الحوار فى الأبيات ، وقارن بينه وبين سداجة وتفاهة حوار توفيق الحكيم المزعوم مع الله سبحانه وتعالى عما يصفون : مع التنبيه إلى أن الحوار فى الأبيات ليس متخيلاً وإنما قد وردت أصوله فى الأحاديث الصحيحة كما سترى فى سياق الأبيات من الشرح إن شاء الله .

وهذه آية اقتدار لشاعرنا العظيم ابن القيم الذى استطاع أن يعبر بالحوار عن عظمة الله من جانب ، وتضرع المحبين من جانب آخر ، فى أسلوب فنى رفيع ، فارتفع بهذا وسما على من يزعمون أنهم أصحاب فن الحوار ، وهم لا يعلمون .

وماذا بعد هذا الحوار العظيم ؟

فيعطيهـم هذا ، ويشهد جمعهم عليه تعالى الله ؛ فـالله أكرم فأى تفضل ، وأى تكرم ، وأى فيض فى السماحة والجود !

* * *

والآن وقد انتهى الشاعر من مهمة التلويح بأطواق النجاة ، يُسأل من يرى أسباب النجاة أمامه وتيقنه منها : أله فى القعود عنها عُذر؟ حقاً ، إن المسئلة ، مسألة توفيق ؛ لأن البعض — ممن فارقهـم التوفيق — يرضون بالدنية ، ويتحكم الأعداء ؛ فهم يقدمون ذلهم وهوانهم ويؤثرونه على الهبوب للخلاص والنجاة ، تراهم مقيمين على ما أُريد لهم من ضيم وكأنهم راضون به ، وقد شملهم الهدوء والسكون ، فلا قلق ، ولا ملل ، ولا سخط ، (وما أشبه هذا بحالنا — عرباً ومسلمين — فى الوقت الحاضر !) .

والشاعر يتوجه إلى هؤلاء — وإليـنا — بنصائحه الغالية ، فى أسلوب من التقريع يناسب حال الناعمين ، الغارقين فى الهوان والمذلة .

فـيابائـعاً هذا ببخس معجـل كأنك لا تدري ، بلى سوف تعلم !

وهو يالجاً - كما عودنا - إلى طريقته الأثيرة : التصوير والظلال
فيقدم لنا هذه الصورة العجيبة لبائع لا يعرف أصول البيع والربح
أو هو يعرف ولكنه بائع أحمق ، يبيع الجواهر النفيسة بالشيء الحقير
- فهو يغتر وينخدع بالربح العاجل القليل الحقير عن الربح المنتظر
الوفير - وإذا أدركنا مدى حرص التجار - في واقع الحياة - على
الربح والتفنن في وسائله ، وعدم اغترارهم بصفقات خاسرة .

إذا تصورنا ذلك ، علمنا مدى حمق البائع الذي يعرضه علينا المشهد
ثم يقدم صورة أخرى ليست بعيدة عن جو التجارة (البيع والشراء)
ولكنها هنا التجارة الرابعة .

فقدم - فدتك النفس - نفسك إنها هي الثمن المبذول حين تسلم

تلك هي صورة تقديم النفس ثمناً مبذولاً لبلوغ الآمال والوصول .
والوصول إلى بلاد الأشواق ، يقتضى الصعود والارتقاء مع تحمل
المشاق في رضى والتذاذ .

وخض غمرات الموت ، وارق معارج المحبة في مرضاتهم ، تتنسم

توحى الظلال هنا بمشاق الطريق (خض غمرات الموت) كما
توحى بالصعود والارتقاء (وارق معارج المحبة) ومعارج المحبة
توصل إلى رياض الرفى يفزح فيها النسيم .

ويعود إلى استعارة مصطلحات التجارة (التسليم والمعاقدة)

وسلم لهم ما عاقبك عليه إن تسرد منهم أن يبذلوا وسلموا

إنها صفقة في يدك أنت إجراؤها ، فابدأ بالتسليم ، لتحظى بالربح
الوفير ، والفوز العظيم

وأخيرا ، يدق الشاعر ناقوساً ، كأنه ناقوس الخطر ! إنه لا يريد
أن يتركك قبل أن يستنفد كل وسائل التنبيه حتى يصل إلى هذا
التنبيه الأخير الحاسم . فكأنما يقول :

إننى سوف أتركك الآن ، وإنى خائفٌ أن تتعد بك همتك عن
رحلتك ، رحلة الصعود والنجاة .

فما ظفرت بالوصل نفس مهينة ولا فاز عبد بالبطالة ينعم
المهانة والبطالة ؛ مهانة النفس ، والركون إلى البطالة هما
أكثر ما يخاف عليك منهما الشاعر - حادى الرحلة ودليلها :

* * *

وإذا كان الشاعر قد تركنا في المشهد السابق وقد حذرنا من
معوقات الرحلة من مهانة النفس والإخلاق للكسل والبطالة :

نراه يبين لنا الآن لوناً خطيراً من ألوان التعويق من الارتفاع
والتحليق إنها سُعدى - رمز الأمانى المخادعة - التى سلمتها أنت
قياد قلبك ، فأصبح عندها أسيرا رهينا .

وإن تك قد عاقتك سُعدى فقلبك المعنى رهين فى يديها ، مسلم
ولن تقنع سعادى بكل ما قدمته لها ، فها هى تبالغ فى إيدائك
بوصال أعدائك !

وقد واعدت بالوصل غيرك؛ فالهوى لها منك ، والواشى بها يتنعم
وهكذا تكون المفارقة . منك الهوى والتقرب ، وللواشى النعيم ،
فأى غبن هذا ؟ . .

ومما يزيد من مساحة عرض العذاب، وإفساح أقصى مجال له :
استعارة كلمات من قاموس العشاق مثل « الهوى والوصال » والواشى ،
الذى لا تخلو قصص العشاق منه .

كما أن الظلال تبرز الحركات النفسية وتصورها أبلغ تصوير .
فكلمة عاقتك توحى بما قد وقعت فيه من كارثة محققة !

وكلمة « المعنى » تشى بما يقاسيه قلبك من عناء وعذاب ، وكلمة
« رهين » توحى بقسوة الأسر ومرارة الوقوع ، وقلة الحيلة ، وكلمة
« مسلم » تدل على الانهزام والاستسلام ؛ فالظلال - إذن - ترسم لك
مشهداً مؤثراً .

ثم ينمى الشاعر المشهد ، فترى سعادى تلك التى تتودد إليها
بالهوى ، تراها تميل إلى غيرك ، وقمة المأساة أن يكون غيرك هذا
هو عدوك الواشى ! فأى عذاب وأى شقاء توحى به ظلال الكلمات ؟

* * *

وها أنت الآن قد وقفت على حقيقة سعادى وأدركت خيانتها لك
واستخفافها بشأنك ، وتلاعبها بك . فما جزاؤها عندك ؟ .

فدعها ! وسل النفس عنها بجنة من العلم فى روضاتها الحق يهيم

نعم دعها ! هكذا في حسم وحزم ؛ فليس لها جزاء إلا ذلك .
فإن كانت نفسك لا تزال متعلقة بحبالها ، فاقطع هذه الحبال واصرف
نظرك وقلبك عنها وول وجهك قبلة أخرى ؛ وهذه القبلة الأخرى
هى الجنة التى يختال فيها كل شئ بهناء وابتسام .

وهذه الصورة (فى روضاتها الحق يبسم) صورة مثيرة ، تستجيش الحس
والوجدان بشئى الشاعر ؛ ذلك أن النفس تتصور الحق والحقيقة فى صورة
يحيطها الجفاف ، فينزع الشاعر منا تلك الصورة المنفردة ؛ ليطبع
فى وجداننا صورة للحق باسمه ، مشرقة ، وضيئة ! ويستبدل بتلك
الصورة الجامدة ، المستقرة فى الوجدان ، صورة حية تكاد من الحياة
أن تختال وتتبسم . بل هى حقاً تختال ، وتتبسم .

الرحلة الآن في مظافها الأخير :

لقد وصل بك الشاعر إلى هنا - الجنة ، بلاد الأشواق والأفراح ،
لتبدأ أنت بعد ذلك رحلة أخرى ، تعاني فيها ما عانى الشاعر من
التعب ، وتحرق ، واضطراب ، وتحمل للمشاق . وإقدام لا ينظر للمخاطر ،
وانطلاق لا يبالي بالعوائق .

ولكن الشاعر لا يتركك لتبدأ رحلتك الجديدة إلا بعد أن
يُفرغ ويصب في نفسك ، وقلبك ، ووجدانك كل كؤوس الترويح
والتشويق ؛ لتكون هذه الكؤوس المفعمة هي زادك الذي تتزود به
في رحلتك الطويلة ، إلى بلاد الأشواق ، البلاد التي فتحت لك
الأبواب في استقبالك ، واستعدت وتزينت للقائك .

وقد ذلت منها القطوف فمن يرد جناها ، ينله كيف شاء ويُطعمُ
وقد فتحت أبوابها وتزينت لخطابها ، فالحسن فيها مقسم
وقد طاب منها نزلها ، ونزيلها فطوبى لمن حلوا بها ، وتنعموا
أقام على أبوابها داعي الهدى هلموا إلى دار السعادة ، تغنموا (١)

* * *

إن كل شيء هنا يدعوك إلى الإقبال ، فالقطوف دانية تدنو منك
وتغريك ، والأبواب قد فتحت وتناديك ، والجنة من أجل خطابها

(١) في البيت اضطراب إذا أعربنا « داعي » فاعلا أما إذا عرّبناه مفعولا به فلا
اضطراب ويكون المعنى أقام الله على أبوابها داعي الهدى : والله أعلم .

- إن كنت من خطابها - قد تزينت والمنازل فيها قد طابت ، تحثك على القدوم .
فإن بقي في قلبك بعد كل هذا ذرة من تقاعس ؛ فإن داعي الهدى
يناديك بالنداء الحثيث (هلموا إلى دار السعادة تغنموا) ومن هنا
يجيء الختام - ختام المطاف - في حكمة حازمة ، حاسمة فيها
التشويق لمزوج بنوع رهيب من الترهيب .

وقد غرس الرحمن فيها غراسه من الناس ، والرحمن بالخلق أعلم
ومن يغرس الرحمن فيها فإنه سعيد ، وإلا فالشقاء مُحْتَمٌّ
إن الصور والظلال تتحدث :

فصورة غرس الرحمن الجنة بمن ينتقى - وهو أعلم بمن ينتقى -
وتعبير بالغرس يوحى بالصورة كاملة ، كما يوحى بانتقاء البذور
قبل غرسها وعمد المواءمة بين هؤلاء الذي يصطفئهم الله وبين
الجنة ، كالعلاقة التي بين البذور وتربتها الصالحة .

ولكن الشاعر يظلل المشهد بجو من الترغيب والترهيب بكلهتي
(السعادة ، والشقاء المحتم) .

وهكذا يجيء الختام - ختام رحلتنا - رحلة الأشواق والحنين .

إنه الختام الذي يلخص القصيدة ، ويلخص الرحلة .
إنه الإيقاع الأخير في القصيدة التي حوت ذلك الحشد من
الإيقاعات المتواكبة والصور المتتابعة في تناسق رائع ، ونظام بديع .
وكأن الشاعر قد أراد أن يكشف تجربته كلها بجميع جوانبها وأبعادها
قبل أن يتركك ، لتبدأ أنت الرحلة من جديد !

ملاحم نقدية سريعة

تحت هذا العنوان سوف نتناول - إن شاء الله - الخطوط العريضة للقصيدة ؛ فنحدث عن عاطفة الشاعر ، وسير القصيدة ، وعن أسلوب الشاعر ، ونعني به التراكيب ثم نحدث عن اللغة ونعني بها الألفاظ المفردة ، كما نحدث عن مظاهر الطبيعة في القصيدة ، وقيمتها ، وبراعة الشاعر في استخدامها ، ثم نختم بالكلام عن الصور والظلال ، وريادة الإمام ابن القيم فيهما على المستويين النظرى والتطبيقي ، والله الموفق .

أولاً - العاطفة . . وسير القصيدة

تبدأ القصيدة بمشاعر الالتئاع ، والشوق ، واللهفة ، والحنين فندرك أن وراء القصيدة إنساناً يعانى ، ويكابد ، ويتحرق .

فيذا انتقلنا مع الشاعر إلى موقف جديد أصبحت مشاعر المحبة ، والإجلال والتعظيم هي البارزة ، ولكنها لا تزال ممتزجة بمشاعر الشوق والحنين ، تعقب ذلك عاطفة جديدة هي الغبطة والانبهار بالسعداء الفائزين ، ثم نعود في موقف الوداع إلى عاطفة الغرام المتأجج .

وتجىء مشاعر الصحو ، واليقظة ، والانتباه ، ممتزجة بمشاعر الشفقة مع مشاعر الاستهزاء والسخرية اللاذعة بالخائبين الخاسرين . ثم نعود مرة أخرى إلى العاطفة الملتاعة الحزينة في حسرة ومرارة

ولكنها تهدأ قليلاً فتبدو لنا عاطفة رضى هادئة ، ناعمة ، متزجة
بملايح خفية من المرارة والحزن ، ولكنه الحزن الشفيف فى قالب
من الشكوى الهادئة .

فإذا تقدمنا مع الشاعر أصبحت العاطفة هى عاطفة الإجلال
والتعظيم ، يعقبها الخوف ، والرغبة ، والإشفاق فى مشاهد يوم القيامة .
بعد ذلك تبرز عاطفة الفرح المستبشر ، المطمئن عند الحديث
عن الجنة ونعيمها .

ونصل بعد ذلك إلى الشعور بالغربة والاغتراب ، وبالمأساة
مأساة الوقوع فى الأسر والمحن والكوارث ، مع الرغبة فى النجاة
والخروج .

وأخيراً نلاحظ مشاعر الحرص على الحث والتحضيض لبلوغ
هذه النجاة والوصول إلى بلاد الآشواق .

* * *

فالعاطفة - إذن - مناسبة فى القصيدة ، بارزة فيها . وهى
لا تقف على حالة واحدة لا تتعدها ، بل هى حية ، متطورة ، تنمو
مع الموقف ، وليس معنى تعددها هذا أنها مجموعة من المشاعر قد
اجتمعت فى القصيدة كلها وإنما هى مشاعر متواكبة ، تتابع فى نمو
وتطور من درجة إلى درجة حتى تصل إلى الذروة .

ونستطيع أن نلخصها كما يلى :

١ - مشاعر الالتئاع واللهفة ، التى تمثل الانطلاق .

٢ - مشاعر الحزن والضيق والغربة والشعور بالمأساة وهى تمثل « العقيدة » .

٣ - مشاعر التنعم والرضى بالوصول إلى بلاد الآشواق والأفراح التى تمثل مرحلة الذروة والحل .

وهكذا نتبين أن العاطفة فى القصيدة توائم سير القصيدة متطورة ، نامية ، فى تجانس وتناسق وانسياب .

* * *

الأسلوب

ونعنى بالأسلوب الجمال والتراكيب التى يستخدمها الشاعر لنقل تجربته ومعاناته .

ولقد جاء الأسلوب معبراً عن التجربة والمعاناة ، ومصوراً للعاطفة . فهو متناسب ، ومتناسق مع التجربة التى عاناها الشاعر ، وكابدها .

ولهذا نستطيع أن نقول : إن الأسلوب هنا يعتبر وسيطاً ماهراً لنقل هذه التجربة للقارئ ، يشير لديه الشعور المماثل لشعور الشاعر فى تجربته ، ويهـى له الجو النفسى الذى ينتشله من واقعه ليخلق به فى آفاق رحلته الروحية ، رحلة الآشواق .

كل هذا بالتعاون مع الوسائل الفنية الأخرى من ظلال وتصوير وحسوار ومناجاة . . .

وبعض الأساليب - كما رأينا - مقتبس من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، وبعضها منتزع من ديوان الشعر العربى ، ولكن الشاعر يوظف هذه الأساليب التوظيف الحيوى الملائم لتجربته الفريدة الفذة . كما رأينا فى الاستعراض العام للقصيدة .

ويتراوح الأسلوب بين الخبر والإنشاء ، ويتفرع الأسلوب الإنشائى فنرى النداء ، والاستفهام ، والتمنى ، كما يستخدم الشاعر أسلوب المناجاة استخداماً جيداً فى تعليل نفسه وإيهامها بالوصال والتلاقى ، ليعينها على مشاق الرحلة ، وكذلك يستخدم أساليب التعجب فى بمهارة وتفنن

(فلله كم من خيرة ، لله ذاك الموقف الأعظم ، لله ما أبهى زيارتهم)
كما يتفنن فى استعمال أساليب السخرية والتقريع ، فى المواقف المناسبة للسخرية والتقريع .

ويعود إلى أسلوب التمنى الذى يخفى وراءه أشواقه ورغباته ومخاوفه (ألا ليت شعرى هل أبیتن ليلة . . .)

ويستخدم الشاعر الجملة الفعلية فى الوصف والتصوير ليضفى الحركة والحياة على المشاهد كأنها تعرض عليك ، فإذا أراد أن يصف حالة لازمة ، ثابتة ، استخدم ما يناسب ذلك وهو الجمل الاسمية .
كما يستخدم الشاعر أساليب الحث والعرض والتحفيز ، وأساليب التحذير ببراعة واقتدار .

وأخيراً ، يختم القصيدة بأسلوب خبرى حاسم يظلمه الشقاء ، والسعادة فى تجاوز عجب .

اللغة

وهي الألفاظ والكلمات المفردة ، وقد رأينا كيف أن المفردات في القصيدة ، مكثفة ، موحية ، غنية بالظلال ، زاخرة ، بالإشعاعات المتعددة الدرجات ، كل هذا في تناسب مع الموقف والسياق ، فالمفردات في القصيدة تقوم بوظائفها العضوية ، الحيوية كما رأينا في كلمة (يستسعى) وفي كلمة (اضطبار) وغيرهما من الكلمات التصويرية التي تشيع جواً خاصاً ، مثيراً ، ومعظم المفردات مقتبس من قاموس العشاق ، وبعضها من البساتين والرياض والبعوض من معجم الطبيعية ، والقليل من مصطلحات التجارة ، وهو يضاف على كل هذه المفردات من روحه العظيمة ما يثبت فيها الحياة والتألق فإذا هي ألفاظ جديدة مشعة ، ذا سحر خاص ، ووميض عجيب .

ونستطيع أن نقول : إن اللغة في مجملها سهلة ، وقريبة ، لا نشعر فيها بالتقعر أو التكلف حتى الألفاظ المعجمية نراها موظفة توظيفاً عضوياً خاصاً وأنه من اليسير فهمها من السياق، مثل رأيت خيالاً في منام سيصرم ، فتوحى بشدة الانقطاع ، مثل : (فولت سريعاً فالحرور تضرم) فتدل على فظاعة اشتعال النيران ولذبتها . وهكذا ..

جانب الطبيعة . . . في القصيدة

الحديث عن الطبيعة ، ودورها في قصيدة ابن القيم ، يمدنا بجانب جديد من جوانب تفردة وسموه ، وذلك بمقارنته بديوان الشعر العربي .

يقول الأستاذ الناقد : سيد قطب (١) .

« يخيّل إلى من مجموعة الشعر العربي أن « الطبيعة » لم تكن - إلا قليلاً - متصلة بإحساس الشعراء العرب ، اتصال الصداقة والألفة به اتصال المجموعة الحية ، فهي في الغالب صلة عدا » .

« وظاهرة أخرى تغلب في الشعر العربي ، وهي الإحساس بالطبيعة عند ألفتها كأنها منظر يوصف ، ويلتذ ، لا شخص تحيا ، وحياة تدب . والمواقع التي أحس فيها الشعراء العرب بالطبيعة هذا الإحساس الأخير تكاد تعد » اه .

هذا هو شأن الطبيعة عند الشعراء العرب .

فما شأنها عند ابن القيم ؟ .

إن العلاقة التي نلاحظها بين ابن القيم والطبيعة هي علاقة الصداقة الحميمة التي تكاد تصل إلى حد الامتزاج .

(١) كتب وشخصيات ، فصل الطبيعة في الشعر العربي ص ٥٨ .

وإن الطبيعة عنده ليست مجرد حليلة أو وصف خارجي ، وإنما تقوم بدور حيوي عضوي في القصيدة .

فهو عندما يذكر طلوع الشمس والنهار ؛ إنما يذكره لأنه علامة تسليمه على الأحباب ، كما أن الروح والريحان يمتزجان بالسلام في كل ساعة وآن .

فإذا تذكر نسيمات الريح ، فإنه يرثي لها ما تحملت ، وكابدت من آلام الصباية حتى لم تعد تطيق كتماناً ، إنه يرى فيها نفسه المعذبة ، فأنشأ بينه وبين نسيمات الريح - وهي مظهر من مظاهر الطبيعة - صلة عميقة تصل إلى درجة التوحد والامتزاج .

سلوا نسيمات الريح كم تحملت محبة صب شوقه ليس يكتم !
وشاهد هذا أنها في هبوبها تكاد تبث الوجد لو تتكلم !

إنه يصور هذه النسيمات المعذبة في صورة حية ، ويضفي عليها حياة ثرية ، فهي في هبوبها تكاد تبث وتنشر أسرار الوجد والحوى .
وبهذا يكون الشاعر قد جمع بين تصوير الطبيعة - متمثلة في نسيمات الريح - في صورة حية ، شاخصة ، وبين مزج نفسه فيها مزجاً كلياً . حتى لنتساءل : هل يتحدث عن عذاب نسيمات الريح أم عن عذابه هو نفسه ؟ !

كما يستخدم الشاعر مظاهر الطبيعة في الوصف التمثيلي الصادق فظل الشمس يشبه الدنيا في الإحياء النفسي لكليهما عند الشاعر (سرعة الزوال رغم الإشعار بعدم التحرك) .

ومزنة الصيف كذلك (فى التولى سريعاً بعد الركون ، والاطمئنان إليها وتصديق ما تمنى به) فوجه الشبه ليس هو الحس والظاهر وإنما العلاقات النفسية الباطنة بين المشبه والمشبه به .

وهو فى أحيان قليلة يتابع الموروث العربى فى استخدام الطبيعة استخداماً ظاهراً حسيّاً، مثل تشبيه الحور العين بالغصن الرطيب، والخدود بالورد ، ولكن مع إضفاء شىء من روحه العظيمة تنقل هذه المتابعات إلى آفاق أسمى وأرحب .

* * *

الصور والظلال

وقفنا أثناء الاستعراض العام - عند الصور والظلال فى القصيدة وكان الوقوف يطول بنا أحياناً للتملى فى روعة هذه الصور ، وتلك الظلال . وأحب هنا أن أشرح بشىء من التفصيل ما قصدناه من هذا التعبير ، إن صاحب هذا التعبير هو الأديب الكبير والناقد الأستاذ سيد قطب الذى يعتبر رائد العصر الحديث فى هذا الشأن .

وإنما قلت رائد العصر الحديث؛ لأنّبه على أن هناك رائداً آخر سبق الأستاذ « سيد قطب » فى هذه الطريقة البديعة - طريقة الصور والظلال - ذلك الرائد هو الإمام ابن القيم نفسه !

وهذه الجولة مع ابن القيم تبين لنا مدى إدراكه وتأثره بهذه الطريقة فى قراءته للقرآن الكريم وفى كتبه جميعاً .

انظر أولاً إلى تعليقه على قول الله تعالى في سورة النور « الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج كإنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شئ عليم (١) يقول : « وضرب الله عز وجل لهذا النور ، ومحلّه ، وحامله ومادته ، مثلاً بالمشكاة ، وهى الكوة فى الحائط فى مثل الصدر (أى صدر المؤمن) وفى تلك المشكاة زجاجة من أصنى الزجاج حتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه ، وصفائه وهى مثل القلب . وشبهها بالزجاج لأنها جمعت أوصافاً هى فى قلب المؤمن : وهى الصفاء والرقّة ، والصلابة . فيرى الحق والمدى بصفائه ، ويحصل منه الرأفة ، والرحمة ، والشفقة ببرقته ، ويجاهد أعداء الله تعالى ، ويغلاظ عليهم ، ويشدّد فى الحق ، ويصلب فيه بصلابته . ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعد ، وتعاضدها » (٢) .

لاحظ كيف يتبع ابن القيم ملامح وجزئيات المشهد فى دقة وصبر ، وينميه مستخدماً فى ذلك ظلال الكلمات ، مع ربط كل ذلك بصورة أخرى ، هى صورة النور فى قلب المؤمن . ويتجلى المشهد مكوناً من النور ومكان هذا النور ، والأشخاص وهم حاملو النور وأصحابه ، ثم مادة النور ، فنتصور المشكاة - الفتحة - فى مكانها بالجدار وقد وضعت فيها الزجاج ، التى هى من أصنى الزجاج مثل

(١) سورة النور الآية ٣٥ .

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب - الطباعة المنيرية ص ٦٩ .

الكوكب الدرى فى بياضه وصفائه ، ثم يتعمق فى ظلال كلمة الزجاج فيراها توحى له بأوصاف متعددة بلا تنافر ، فيراها توحى بالصفاء والرقّة كما توحى بالصلابة فى آن ! وتمده بصورة كاملة لصفات المسلم المتعددة فى تلاحم وتوازن من رأفة ورحمة وشفقة ، مع جهاد وشدة وغلظة وصلابة فى الحق ، دون أن تبطل صفة أخرى ، أو تعارضها بل تساعد ، وتعاضدها !

انظر إليه يتعمق فى الصور والظلال أكثر وأكثر :

« وفى الزجاج مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ، ولذلك النور مادة وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن ، تصيبها الشمس فى أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيوت ، وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار » (١)

إنه يضيف إلى الصورة بعض التفصيلات الخاصة ، التى تساعد على إبرازها متكاملة حية ، كما يقف عند ظلال كلمة (زيت) فيراها توحى بالصفاء ، والبعد عن الكدر ، والشوائب حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار ثم يربط ظلال هذه الكلمة بصورة الوحي فى قلب المؤمن فيقول : وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن ، وهو من شجرة الوحي ، التى هى أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها عن الانحراف .

اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه ، ثم خالط النار فاشتدت به إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نوراً على نورا »

وهذا مثال جيد يدل على مدى إدراك ابن القيم لقيمة الصور والظلال في تفسيره للقرآن الكريم . وهو لا يقف بنا عند هذا الحد بل يتعمق كذلك في ظلال كلمة النور ويراهنا توحى بالحياة فيقول « لأن الحيوان - الكائن الحى - إنما يتكون حيث النور .

ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يتكون البتة »

ثم يربط ذلك بمثال جيد فيقول :

« فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان ميتة ، وقلب فقد منه هذا النور ، ميت ولا بد . . . ولا حياة له البتة ، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه » .

ويستدل على ذلك « بأن الله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور كما فى قوله تعالى : وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا (١) » .

يقول : « أى جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نوراً لما يحصل به من الإشراق ، والإضاءة ، فهما متلازمان ؛ فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة » (٢) .

(١) سورة الشورى من الآية (٥٢) .

(٢) الوابل الصيب ص ٧١ .

ويفرق بين ظلال كلمتي النور ، والنار فيقول في قوله تعالى :
« مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله
بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون » (١)

« قال جل جلاله : ذهب الله بنورهم ولم يقل بنارهم ؛ لأن النار فيها
الإحراق والإشراق ؛ فذهب بما فيه من الإضاءة والإشراق ، وأبقى
عليهم ما فيه من الأذى والإحراق » (٢)

وقد رأينا كيف استفاد ابن القيم من هذه الظلال في قصيدته
وخاصة في الصورة التي شاهدناها في قوله :

ويا موقدا ناراً لغيرك ضـ.....وءها وحر لظاها بين جنبيك يضرهم

فجعل الإشراق لغيره ، والإحراق وقفناً عليه ، بين جنبيه .

ثم يتعمق في ظلال النور درجة أرقى ؛ فيراه يوحى بالصعود والمعراج :
« فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ، ومصدر
عن النور ، ولا من الأرواح إلا الطيبة ، وهي أرواح المؤمنين التي
استنارت بالنور ، ولما كانت مادة الملائكة من نور كانوا هم الذين
يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى » (٣) .

رأينا في هذا المثال ملامح طريقة التصوير والظلال في محاولة

(١) سورة البقرة الآية ١٧ :

(٢) الوابل الصيب ٧٢ .

(٣) السابق ٨٠ .

بناء صورة حية ، غنية باستخدام التفصيلات الدقيقة ، التي تطبع الصورة في الحس والوجدان وإبراز الحركات النفسية ، وراء الصورة والمشهد ، ورأينا كيف يعيش ابن القيم ، ويتعمق في ظلال الكلمات ، يطيل عندها الوقوف ليحظى بكثير مما تشعه الكلمة من إشعاعات وإيحاءات بلا ملل أو سأم .

وإلى مثال آخر :

قال تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين » (١) .

يقول ابن القيم : الصَّيْبُ الذي يصب من السماء : أى ينزل منها بسرعة وهو مثل القرآن الذي به حياة القلوب ، وكالمطر الذي به حياة الأرض ، والنبات ، والحيوان ، فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات ، والمثالات التي حذر بها الله من خالف أمره ، وأخبر أنه مُنزلها بمن كذب رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة كالجهاد ، والصبر على الأمر أو الأوامر الشاقة على النفوس التي بخلاف إرادتها ، فهي كالظلمات ، والرعد ، والبرق . ولكن من علم مواقع الغيث وما يجعل به من الحياة لم يستوحش بما معه من الظلمة ، والرعد ، والبرق

بل يستأنس لذلك ، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب ،
وأما المنافق فإنه عمى قلبه ولم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقاً
يكاد يخطف البصر ، ورعداً عظيماً ، وظلمة ، فاستوحش من ذلك -
وخاف منه ، فوضع أصابعه في أذنيه ؛ لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله
مشاهدة ذلك البرق وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يتخطف
معه بصره ؛ لأن بصره أضعف من أن يثبت معه في الظلمة ، يسمع
أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف فإن أضاء له
ما بين يديه مشى في ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيراً ، لا يدرى
أين يذهب (. .) وأما من أنس بالصيب ، وعلم ما يحصل به من
الخير ، والحياة ، والنفع وعلم أنه لا بد فيه من رعد وبرق وظلمة
بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك
عن أخذه بنصيبه من الصيب » (١) .

هذه صورة ناطقة ، وهذا عرض متكامل . تتبع فيه ابن القيم
كل ملامح الصورة وعرضها في صدق وتفنن ، وهو لم يغفل الحركات
النفسية وراء الأحداث ، لقد استبطن وغاص في أعماق النماذج الإنسانية
التي قدمها لنا .

لقد أعطانا نموذجين نفسيين ، متقابلين ، وهما من الواضح
ما يغنى عن الإعادة ، وعليك أن تتأملهما في المشهد ، وتراقب حركاتهما
الظاهرة والباطنة ، كل ذلك من خلال مشهد حي ، مشير .

لقد بدأ برسم المشهد.. وظروف المشهد.. فعرض علينا الصيب ينزل في سرعة والمطر ينهمر، كما عرض علينا صورة المؤمنين وهم ينهالون من خير هذا الصيب ، دون مبالاة بما بصحب ذلك من مظاهر أخرى للطبيعة من رعد ، وبرق ، وצלّمات ؛ وذلك لاستثنائهم وفرحهم بالحياة والخصب ، وهذا هو النموذج النفسى الأول الذى يفيض بشراً واطمئناناً .

وفى المقابل له نموذج آخر للهلع والجبن ، والعجز ، ويتفنن ابن القيم فى رصد الحركات النفسية فى دقة لهذا النموذج الذى لا يرى إلا الواجهة المظلمة ، ويغفل عن جوانب الإشراق والخير .

أما عن إدراك ابن القيم - رحمه الله - لقيمة الظلال فيتجلى لنا واضحاً فى شعوره بأن كلمة الصيب ، توحى بالسرعة التى تناسب المقام كما أدرك أن الكلمة غنية بظلالها - ولعل هذا سر اختياره لها عنواناً للكتاب ((الوابل الصيب)) .

كما أدرك أن للكلمة إيحاء بالحياة والخصب ، ومن ظلال الرعد والبرق ، والظلمات ما توحى به من تهديد ، وعقوبات ومثلثات بل وما تلقىه فى نفوس المفزوعين من رعب ، ووحشة . كل هذا يجعلنا على ثقة واطمئنان حين نقول إن ابن القيم هو رائد هذه الطريقة الفريدة .

فإذا كان الأمر - كما يقول الأستاذ « سيد قطب » : « رحم الله

عبد القاهر (١) لقد كان النبع منه على ضربة معول ، فلم يضربها .
فإن الإمام ابن القيم قد أدرك النبع وضرب المعول ، في ثقة ويقين
واقترار حتى أخرج لنا منه الماء الزلال .

وإليكم مثالا ثالثاً في ظلال قوله تعالى من سورة الرعد : « أنزل من
السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ،
ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب
الله الحق والباطل ، فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث
في الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال (٢) .

وانتظر كيف يعيش الإمام ابن القيم في ظلال هذه الآية الكريمة ،
وكيف توحى له بمشهد رائع بديع ، ينقله لنا في صدق .

فيقول : « فهذا المثل المائى يشبه الوحي الذي أنزله لحياء القلوب
بالماء الذي أنزله من السما ، وشبه القلوب الحاملة له بالأودية
الحاملة السيل (. .) فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها ، كما سالت
الأودية بقدرها ، ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغشاء
ونحوه مما يمر عليه السيل فيحتمله ، فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً .
يمر عليه متراكباً ، ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض ،
فيقذف الوادي ذلك الغشاء ، إلى جنبه حتى لا يبقى منه شيء ، ويبقى

(١) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني صاحب كتابي
دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة (ولد عام ٤٠٠ هـ وتوفي عام ٤٧١ هـ) .

(٢) سورة الرعد (الآية ١٧) .

الماء الذى تحت الغشاء ، يسقى الله - تعالى - به الأرض « (١) .

ثم يتابع ظلال الكلمات - كعادته - فيراها تستدعى ذكر الكلاء والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض ، ويتابعها بدرجة أرق فيراها توحى باستخراج الكنوز ، والأشجار ، وإلقاء البذور فى أرض قابلة للزرع والنبات ، وورودها كل بحسبه « قد علم كل أناس مشربهم » (٢) .

هكذا يستعرض ابن القيم صور القرآن ، لا تفوته أدنى ملاحظة وإن دقت ، ثم يبين لنا الصورة الحية والعرض المتكامل .

وهو يستطرد مع ظلال الكلمات ، ويتعمقها درجة ، بعد درجة حتى يخرج منها بالإشعاعات الباهرة والإيحاءات الغامرة ؛ فذكر الأودية يصور له منابع السيول فيها الغشاء ونحوه ، مما يمر عليه السيل فيحتمله ، فيطفو على وجه الماء ، زبدًا عاليًا .

ويتصور تحته الماء الفرات الذى يوحى بالخصب ، والحياة . كما يتصور حركة الوادى ، وهو يقذف ذلك الغشاء على جانبيه ، فيبقى الماء الفرات خالصاً ، يسقى الله تعالى به الأرض ، فحي به البلاد والعباد والشجر والدواب . وهو يلتقى الحياة على الكائنات ؛ فيتمثل الغشاء وهو يلتقى جفاء مطروحاً على شفير الوادى .

ولا يقف بنا عند هذا المدى من التصوير الرفيع - وإنما يعطى

(١) الوايل الصيب ص ٧٥ .

(٢) جزء من الآية (٦٠) سورة البقرة . وانظر الوايل الصيب ص ٧٧ .

لكل رمز مدلوله النفسى ، ليزيد من مجال العرض بعداً نفسياً وإنسانياً عميقاً . بل ويسمو به الخيال ، ويتطوح به عالياً ؛ فيرى الأناس يتسابقون على هذه الأوديه وقد علم كل أناس منهم مشربهم .

ونحن - إذ نكتفى بهذه الأمثلة الثلاثة هنا - نحيل القارى المتشوق إلى المزيد ، نحياه إلى كتب ابن القيم كلها ، فهى غنية بهذه النماذج الحية الرائعة .

بل إن عناوين كتب ابن القيم نفسها غنية بهذه الناحية التصويرية الموحية ، مما يدل على تشبع خيال ابن القيم بها واستحضارها فى ذهنه على الدوام .

وهذا كتاب « الوابل الصيب من الكلم الطيب » دليل على ما أقول إلى كما رأينا فى ظلال كلمة الصيب ، وما توحى من سرعة فى النزول والإغاثة . وما تحمل من معانى الغنى ، والثراء ، والخصب ؛ فجمعت بذلك بين التصوير والتظليل ؛ تصوير الوابل وهو ينزل من السماء سريعاً ليدرك الملهوفين ، المستغيثين ، وظلال الكلمة التى توحى بالخصب والحياة والنماء ، فلا تملك النفس إزاء هذه الصورة ، وتلك الظلال إلا أن تتأمل فى انبهار ، وتشوق .

ومثال آخر من عناوين كتب ابن القيم ، وهو كتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » الذى ألفه فى وصف الجنة والتشويق إليها

فالعنوان ، صورة وظلال ، إنه مشهد يعرض علينا حذاء الأرواح كأنها القافلة يتقدمها الحادى ، يحدو خطاها ، يطربها ويشوقها ويعينها

على مشاق الطريق ، بالحداء العذب الجميل ، حتى نصل أخيراً إلى بلاد الأفراح بما توحى من النعيم والسعادة .

فالبلاذ : تدل على الأمل . . أمل القافلة المتعبة - قافلة الأرواح في الوصول ، وكلمة الأفراح توحى بعاقبة الرحلة ونهايتها من فوز محقق ، وسرور عميم .

ومثال ثالث وهو كتاب : « إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان إنه كذلك صورة حية وعرض متكامل ، نطالع فيه ذلك الملهوف المسكين واقعاً في حبال الشيطان ومصائده ، يستغيث ويصرخ فإذا الاستغاثة تنزل عليه وتدركه ، وتخلصه مما وقع فيه .

* * *

لهذا . . . ولأمثلة أخرى كثيرة كنا نصف طريقة ابن القيم في التصوير والظلال بأنها الطريقة الأثيرة لديه ، لأنها مختارة عنده ، محببة إلى نفسه ، يلجأ إليها في مختلف المجالات ؛ فمثلاً عندما أراد أن يفسر لنا معنى الاستعاذة في قولنا « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نراه يلجأ إلى التصوير والتظليل كذلك . فيقول : « أعوذ : مأخوذة من الستر ، أو مأخوذة من لزوم المجاور ، فأما من قال إنه مأخوذ من الستر فقال : « العرب تقول للبيت الذى فى أصل الشجرة ، التى استتر بها (عوذ) فكأنه لما عاذ بالشجرة ، واستقر بأصلها وظلها سموه (عوذا) ، فكذلك العائد ، من استتر من عدوه بمن استعاذ به منه ، واستجن به منه ، ومن قال : هو لزوم المجاورة ،

قال : العرب تقول للحم إذا أُلصق بالعظم ، فلم يتخلص منه :
(عوذ) لأنه اعتصم به ، واستمسك به ، فكذلك العائد ، قد استمسك
بالمستعاذ به ، واعتصم به ، ولزمه ، فهما قولان » (١) .

والإمام ابن القيم يرى أن القولين حق ، ولكنه لا يدلي برأيه هذا
في صورة مباشرة وإنما يلجأ - كما عودنا - إلى طريقته المحببة ، الأثيرة
فيقدم لنا ذلك المشهد الحى ، والعرض المتكامل ، والصورة الغنية
بالحركة النفسية ، والحياة . مستفيداً من ظلال الكلمة أعظم
الاستفادة .

يقول : « والقولان حق ، والاستعاذة تنتظمها معاً ؛ فإن المستعيز
مستتر بمعاذه ، مستمسك ، معتمص به ، قد استمسك قلبه به ، ولزمه
كما يلزم الولد أباه ، إذا أشهر عليه عدوه سيفاً ، وقصده به ، فهرب
منه ، فعرض له أبوه في طريق هربه ، فإنه يلتقى نفسه عليه ، ويستمسك
به أعظم استمسكاً ؛ فكذلك العائد قد قرب من عدوه الذى يبغى
هلاكه إلى ربه ، ومالكه ، وفر إليه ، وألقى نفسه بين يديه ، واعتصم
به ، والتجأ إليه » (٢) .

هكذا يعرض ابن القيم المشهد الملىء بالحركة ، النابض بالحياة
مع إبراز الحركات النفسية - فى جلاء ووضوح - لشخصيات المشهد ،
أولاً : الطفل وهو خائف ثم وقد اطمئن لرؤية أبيه فيفزع إليه
يتمسك به ، ويلقى نفسه بين يديه ، ملتقطاً أنفاسه ، والعدو وهو

(١) تفسير المعوذتين لابن القيم ص ٦ المطبعة السلفية .

(٢) تفسير المعوذتين ص ٦ .

طاغ أولاً ثم يعروه الخزي عند ظهور الوالد ، والوالد وهو يتلقى ولده الذى كان قد أشرف على الهلاك .

ولزيد من الأمثلة ، نحيل القارئ إلى كتب الإمام ابن القيم جميعاً

* * *

والخلاصة : أن الإمام ابن القيم هو رائد طريقة الظلال والصور ، فى تراثنا العربى ، ليس بالأمثلة والنماذج التى قدمها فى تفسيره للقرآن ، ووقوفه متأملاً لصوره وظلاله ، ليس هذا فحسب ، وإنما لتشبهه الكامل بهذه الطريقة فى نثره ، وشعره على السواء ، ولا سيما فى قصيدته الميمية (الرحلة . . إلى بلاد الأشواق) التى رأيناها معرضاً غنياً للصور والظلال إلى

* * *

(١) إن مجالات الريادة عند ابن القيم متعددة ، فهو رائد التفسير الموضوعى واكتشاف الوحدة العضوية للسورة فى القرآن الكريم .
انظر : منهج ابن القيم فى التفسير تأليف محمد أحمد السنباطى مجمع البحوث الإسلامية .

ونعود الآن لنستأنف الحديث عن الملامح النقدية السريعة .

اللامح الإنسانية . . في القصيدة

يقول الأستاذ الناقد « سيد قطب » في كتابه : كتب وشخصيات تحت عنوان (النفس الإنسانية في الشعر العربي) .

« فإذا نحن نظرنا إلى الشعر العربي ، بهذه العين - يعنى من جهة البحث عن الملامح الإنسانية فيه - وجدناه فقيراً في الظلال الإنسانية والحالات النفسية ، بمقدار ما هو غنى بالأفكار والمعاني ، والاستجابات الحسية المباشرة ، التي لا تتعمق النفس الإنسانية إلى مدى بعيد » .

« والتعبير العربي ، وبخاصة في الشعر ، تعبير مباشر ، أقرب ما يكون إلى الاستجابة الحسية ، فهو يؤدي الفكرة ، أو المعنى ، ثم لا تلمح وراءه مخلوقاً إنسانياً إلا نادراً » .

« إنك تلمح ولا شك فكراً أو حساً ، ولكن المخلوق الإنساني الذي يشتمل الفكر والحس ، ويشتمل بجوارها حياة آدمية ، كاملة . قلما تلمحه وراء التعبير » .

« فهي - أى اللغة العربية - في شعرها ، لا تلتقي حولها ظلاً (١) .

(١) إن العبارة تشير إلى أن العيب في اللغة العربية ، وهذا خطأ فادح ، لأن اللغة العربية - كما رأينا في كل ما سبق - هي لغة الظلال والتصور ، إنما العيب في شعراء العرب الذين لم يستغلوا هذه القيمة في شعرهم . وهذا هو ابن القيم قد أخرج لنا قصة زائراً بالظلال والرؤى التي تثير شتى الخيالات .

ليس هناك ما يسمونه (بين السطور) كل لفظ ، وكل تعبير يقابله معنى أو فكرة ، ثم لا شيء وراء المعنى ، ووراء الفكرة ، لا ظل ، ولا صورة ، ولا رؤى سحرية تشير في النفس شتى التخيلات ، وشتى الاهتزازات « (١) .

هذا هو ما لاحظته الناقد الكبير على ديوان الشعر العربي ، ولكننا بقراءة قصيدة ابن القيم - واسترجاع ، كلماتها التصويرية ، ومشاهدها الحية ، وغماذجها الإنسانية الشاخصة الحاضرة ، يتبين لنا مدى سمو هذه القصيدة على ديوان الشعر العربي جميعاً في هذا الجانب ، بلا أدنى مبالغة .

وأحب أن أذكر بأن هذا هو الحكم الصحيح اعتماداً على المقاييس الصحيحة التي تراعى الصدق الفني ، والقيم الإنسانية ، وليس بالمقاييس الزائفة التي هاجمناها فيما سبق .

* * *

إن القصيدة الميمية ، تكشف عن ثراء لغتنا في جانب التصوير والظلال ، كما تدين الشعراء الذين لم يروا فيها إلا الجانب العسّي المباشر الفقير .

ولهذا نقول : إن هذه القصيدة دعوة إلى الانطلاق إلى آفاق عظيمة ، رحبة .

* * *

الرحلة . . . إلى بلاد الأشواق

« القصيدة الميمية »

١ - أشواق

- إذا طلعت شمسُ النهارِ ، فإنَّها
أَمارةٌ تسليميَّ عليكم ، فسَلِّمُوا (١)
سَلامٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
وَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ ، وَفَضْلٌ ، وَأَنْعَمُ (٢)
عَلَى الصَّحْبِ ، وَالْإِخْوَانِ وَالْوَلَدِ وَالْأُتَى
دَعْوُهُمْ بِإِحْسَانٍ ، فَجَادُوا ، وَأَنْعَمُوا (٣)
وَسَائِرُ مَنْ لِلْسَّنَةِ الْمُحَضَّةِ اقْتَفَى
وَمَا زَاغَ عَنْهَا ، فَهُوَ حَقٌّ مُقَدَّمُ (٤)
أُولَئِكَ أَتْبَاعُ النَّبِيِّ ، وَحِزْبُهُ
وَلَوْلَاهُمْ مَا كَانَ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمُ (٥)

(١) الأَمارة : هي العلامة وزناً ومعنى . المصباح المنير :

(٢) روح ، وريحان : الروح بإسكان الواو : الراحة ، والرحمة ، ونسيم الريح ، والريحان : نبت طيب الرائحة ، أو كل نبات كذلك ، أو أطرافه ، أو ورقه . القاموس المحيط .

(٣) جادوا : جاد الرجل يجود ، جوداً (بالضم) : تكرم فهو جواد

وجاد بنفسه أى سمح بها عند الموت . المصباح المنير ، والألى : الذين .

(٤) السنة المحضه : أى الطريقة المحموده ، الخالصة . والمحض هو الذى لم يخالطه غيره ، ومحضته الود أى صدقته ، زاغ : مال .

(٥) حزبه : الحزب هو الطائفة من الناس ، والجمع أحزاب والمقصود هنا أهله وأتباعه صلى الله عليه وسلم .

- وَلَوْلَا دُمُّ كَادَتْ تَمِيدُ بِأَهْلِهَا
(٦) وَلَكِنْ رَوَّاسِيهَا ، وَأَوْتَادُهَا هُمْ
- وَلَوْلَا هُمْ كَانَتْ ظَلَامَا بِأَهْلِهَا
(٧) وَلَكِنْ هُمْ فِيهَا بُدُورٌ ، وَأَنْعَجُسُّمُ
- أُولَئِكَ أَصْحَابِي ؛ فَحَىٰ هَلَا بِهِمْ
(٨) وَحَىٰ هَلَا بِالطَّيِّبِينَ ، وَأَنْعِمَسُّمُ
- لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ سَلَامٌ يَخْصُصُهُ
(٩) يُبْلَغُهُ الْأَدْنَىٰ إِلَيْهِ ، وَيَنْعَمَسُّمُ
- فِي أَمْرٍ مَحْسِنًا ، بَلِّغْ سَلَامِي ، وَقُلْ لَهُمْ :
(١٠) مُجِيبُكُمْ يَدْعُو لَكُمْ ، وَيُسَلِّمُ
- وَيَلَايِمِي فِي حُبِّهِمْ ، وَوَلَائِهِمْ
(١١) تَأَمَّلْ - هَذَاكَ اللَّهُ - مَنْ هُوَ الْوَمُّ
- بَيَّأَى ؟ دَلِيلٌ أَمْ بَيَّاسَةٌ حُجَّاسَةٌ
(١٢) تَرَى حُبَّهُمْ عَارًا عَلَى ، وَتَنْقِمُ ؟

(٦) تميد : تتحرك وتميل : رواسيها : أوتادها .

بدور : جمع بدر .

(٨) حى هلا : قال ابن قتبية : معناه : هلم ، يقال : حى على الفداء أو إلى الغداء أى أقبل وهلم (المصباح المنير) .

وقال فى القاموس المحيط : « حى : أى اعجل ، وهلا أى حثيثاً أو أسرع ، وحى هلا بقلان : أى عليك به ، وأنعم : أى وأنعم بهم .

(٩) الأدنى : القريب .

(١٢) تنقم : تعيب ، وتكره أشد الكراهية ، قال تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (البروج : ٨) أى وما طعنوا فيهم وقد حووا .

- وما العارُ إِلَّا بُغْضُهُمْ ، واجْتِنَابُهُمْ
وَحُبُّ عِدَائِهِمْ ذَاكَ عَارٌ ، وَمَائِمْ (١٣)
- أما وَالَّذِي شَقَّ الْقُلُوبَ وَأَوْدَعَ ، أَلَا
مَحَبَّةٌ فِيهَا حَيْثُ لَا تَتَصَرَّمُ (١٤)
- وَحَمَلَهَا قَلْبَ الْمُحِبِّ ، وَإِنَّهُ
لِيَضْعَفُ عَنْ حَمْلِ الْقَمِيصِ ، وَيَأْلَمُ (١٥)
- وَذَلَّلَهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ لِصَوْلَةِ الْمَحَبَّةِ ، لَا تَلْوِي ، وَلَا تَتَلَعَّثُ (١٦)
- وَذَلَّلَ فِيهَا أَنْفُسًا دُونَ ذُلِّهَا
حِيَاضُ الْمَنَايَا فَرَقَهَا ، وَهِيَ حَوْمٌ (١٧)
- لَأَنْتُمْ عَلَى قُرْبِ الدِّيَارِ ، وَبُعْدِهَا
أَحْبَبْنَا ، إِنْ غَيْبْتُمْ ، أَوْ حَضَرْتُمْ (١٨)

- (١٣) عداهم : أى أعدائهم . مائم : المائم هو الوقوع فى الإثم .
(١٤) شق القلوب : يقال : شق الكلام أى أخرجه أحسن مخرج ، وشق النبت وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض . تتصرم : الصرم هو القطع البائن ، أو أى قطع ، تتصرم : تنقطع . أودع : يقال أودعه مالا أى دفعه إليه ليكون ودعة عنده .
(١٥) يآلم : يتألم .
(١٦) ذلها : قادهها ، وذللت القطوف أى ، استكانت : خضعت .
الصولة : الوثبة ، والقهر ، « واللهم بك أصول » أى أسطو وأقهر ؟
لا تلوى : يقال لا يلوى على أحد ، أى لا يقف ولا ينتظر .
(١٧) حياض المنايا : الحياض جمع حوض ، والمنايا جمع منية وهى الموت ، واشتقاقها من منى له (بالبناء للمجهول) أى قدر له .
حوم : حام الطائر حول الشئ دار ، وهى جمع حائم مثل صائم وصوم .

- سألوا نسماتِ الرِّيحِ كمَ قَدْ تَحَمَّلْتِ
 محبةً صبً ، شوقُهُ لَيْسَ يُكْتَسَمُ ! ! (١٩)
 وشاهدُ هذا أنها في هُبُوبِهَا
 تكادُ تَبُثُّ الوَجْدَ ، لوُ تتكلمُ ! (٢٠)
 وكُنْتُ إذا ما اشْتَدَّ بِي الشَّوْقُ ، والجوى
 وكادتُ عُرَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ تَفْصَمُ (٢١)
 أَعْلَلُ نَفْسِي بالتَّلَاقِي ، وقُـرْبِهِ
 وأوْهَمُهَا ، لَكِنَّهَا تَتَوَهَّمُ (٢٢)
 وأَتْبِعُ طَرْفِي وَجْهَةً أَنْتُمْ بِهِـا
 فِلي بِحِمَاها ، مَرِيعٌ ، وَمُخَيِّمٌ (٢٣)

(١٩) صب : الصبابة : الشوق ، وقيل رقة الشوق وحرارته ، والصب هو العاشق المشتاق . انظر لسان العرب .

(٢٠) تبث : تنثر ، وأبته سره أى أظهره له . . الوجد : يكون في الحزن ، وفي القاموس لأنه في الحب فقط .

(٢١) الشوق : نزاع النفس إلى الشيء . الجوى : الحرقه ، وشدة الوجد من عشق أو حزن . عرى الصبر : جمع عروة وهي ما يتمسك به « فقد استمسك بالعروة الوثقى » : وعروة الدلو ، مقبضه . تفصم : تتكسر . قال تعالى « لا انفصام لها » : أصلها تنفصم وحذف لإحدى التائين .

(٢٢) أعلل نفسي : أشاغلتها ، وألهبها ، وتعلت الصبى ما يتعلل به ليسكت (لسان العرب ، أوهمها : الوهم من خطرات القلب أو مرجوع طرفي المتردد فيه ، . وأوهمه : أدخل عليه الوهم ، وتوهم : ظن .

(٢٣) طرفى : طرف العين : نظرها ويطلق على الواحد وغيره لأنه مصدر الوجهة : هى كل مكان استقبلته ، وتحذف الواو فيقال جهة (مختار الصحاح) :

حماها : هذا شيء حمى أى محظور لا يقرب :

مربع : منزل القوم في الربيع خاصة ، تقول هذه مراعنا ومصايفنا (مختار الصحاح) :
 خيم : خيم بالمكان ، أقام به أو جعله كالخيمة ، أو ضرب به خيمته :

وَأَذْكُرُ بَيْنَنَا قَالَهُ بَعْضُ مَنْ خَلَا
وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُ صَبْرُهُ ، فَهُوَ مُغْرَمٌ (٢٤)

أَسَائِلُ عَنْكُمْ كُلَّ غَادٍ ، وَرَأْسُ حِجٍّ
وَأُوْمِي إِلَى أَوْطَانِكُمْ ، وَأُسَلِّمُ (٢٥)

وَكَمْ يَصْبِرُ الْمُشْتَاقُ عَمَّنْ يُحِبُّهُ
وَفِي قَلْبِهِ نَارُ الْأَسَى ، تَتَضَعَّرُ (٢٦)

* * *

(٢٤) خلا : مضى ، ضل صبره : يقال ضل عن الطريق . وضل عن القصد
(أساس البلاغة)

مغرم : الغرام هو اللازم من العذاب ، والبلاء ، والحب ، والعشق وما لا يستطيع ،
ومنه : رجل مغرم .

(٢٥) غاد ورائح : اسما فاعل من الغدو ، والرواح :
أومى : أشير إليه ، أو ما إليه إيماء أى أشار إليه بحاجب أو يد أو غير ذلك :
(٢٦) الأسى : الحزن . تتضرم : تلتهب ، ضرمت النار : التهمت :

الشرح :

(١) إننى فى غاية الشوق إلى طلوع شمس النهار ، وظهورها ؛ لأن تلك هى علامة تسليمى على الأحباب ، فردوا علينا التحية .

(٢، ٧) فأنا أسأل الله لكم سلاماً فى كل حين ، وهذا السلام الذى أسأله الله لكم ممتزج بالروح والريحان ، والأفضال الجمّة والنعم والوفيرة ، وأبعثه إلى أصحاب الحبيب - محمد صلى الله عليه وسلم - وإخوانه وأهله والذين اتبعوهم بإحسان ، وبذلوا نفوسهم فى محبته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك أبعثه لسائر من اتبع طريقته المحمودّة الخالصة من شوائب البدع والمنكرات ، فأولئك هم أتباع النّبى صلى الله عليه وسلم ، وهم أولى الناس بالانتساب إليه ، وبهم يهدى الله العباد ، ويحفظ الأرض من الشرور والفساد ، كأنهم لها الرواسى والأوتاد ، وهم كذلك نور هذه الدنيا الساطع ولولاهم لعم الظلام بآهلها .

(٨) وإن هؤلاء هم أصحابى فعليكم بهم ، بمحبتهم والالتذاذ بذكر سيرتهم الطيبة .

(٩) إن محبّتى لهم جميعاً ، وإن سلامى إليهم جميعاً .

(١٠) ويبحث الشاعر عن يبلغ تحياته وأشواقه ، يبحث عن محسن يقوم بهذه المهمة الجليلة .

(١١) أما أنت أيها اللائم ، تلومنى فى أمر محبّتى لهم ، ولولائى

وإخلاصى فالعجب منك أنت ، فأولى بك أن تنظر ، وتتأمل ،
لترى من منا أحق باللوم ، وأجدر بالمؤاخذه .

ولماذا تعاتبنى ، وتجادلنى فى حى هم ، ألدبك حجة ، أو إثارة
من علم ، وهل حى هذا الذى تنكر . عار فأتبرأ منه ؟ .

(١٣، ١٢) كلا ؛ بل العار كل العار فى كراهيتهم ، والبعد
عنهم ، والشر كل الشر أن تلجأ إلى غيرهم بالموالة والحب . فأتى
عار ، وأى ذنب !

(١٥، ١٤) ويقسم الشاعر بالله - سبحانه - ، الذى أنبت قلوب
العباد ، كما أنبت الزرع النضير ، وأودع فيها محبته السامية على
سبيل الأمانة لا يصيبها انقطاع أو نفاذ ، ويقسم به - سبحانه -
الذى يسر على القلوب هذه المحبة الجليلة ، فجعلها قابلة لأن
تحملها القلوب البشرية الضعيفة ، وهذا برغم جلال هذه المحبة ،
وبرغم رقة قلوب المحبين . وذلك أنه - سبحانه - أخضع هذه القلوب
فانقادت لسلطان محبته ، وسطوتها دون إبطاء أو انحراف .

(١٧، ١٦) كما ذلل سبحانه فى شأن هذه المحبة ، أنفساً
وأخضعها لها . هذه الأنفس التى ترى الموت والهلاك أيسر لها وأشرف
من الذلة والاستكانة فى أى شىء ، ولكنها تهون ، فى سبيل هذه
المحبة الشريفة .

(١٨) ثم يجىء جواب هذا القسم الجليل :

إنكم أنتم أحببنا فى كل حال ، من قرب أو بعد ، فى غيبة أو حضور .

(٢٠، ١٩) وما هي نسيمات الريح ، سلوها ، كم حملت من رسائل الشوق ! حتى لم تعد تقوى على الكتمان ، وتكاد تنشر أحاديث حبي في كل هبوب لها :

(٢٢، ٢١) وطالما شاغلت نفسي ، وواسيتها - عندما تشتد أزمة الشوق والحرقه ، ويكون الصبر قد أوشك على النفاد ، وتقطعت أسبابه - طالما شاغلته بالمني ، والأوهام ، ولكن هذا كله لم يجد معها شيئاً ، لأنها كانت تنخدع حقاً ، فتتخيل المني قريبة ، فيزيد هذا من لوعتها ، وعذابها .

(٢٣) والشوق يناديني إليكم ، فأتوجه بقلبي ، وبصري إلى قبلتكم التي يربطني بها أقوى الأسباب ، إنها موطن روحي ، وموئل فؤادي .

(٢٥، ٢٤) وإنني لأتمثل هنا بقول الشاعر القديم عندما ضاع صبره وأدرك صعوبة الوصول ، فأتقول : يكفيني أن أشير إلى أوطانكم ، ودياركم ، وأسلم .

(٢٩) وما أكثر ما يحاول المشتاق أن يتصبر ، فيبدو للناس صابراً ، بينما نار الحزن تشتعل في فؤاده .

فوائد :

وصف ابن القيم المحبة في كتابه القيم (مدارج السالكين)

فقال :

« هي قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقرة العيون ، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي من فقدته ، فهو في بحار الظلمات ، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام » . (..) تحمل أثقال المسافرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها ، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها ، وهي مظايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً للحبيب » (١) .

وقد حدثنا عن مراتب المحبة فقال :

١ - العلاقة : لتعلق القلب بالمحبيب :

٢ - الإرادة : وهي ميل القلب إلى محبوبة .

٣ - الصبابة : وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه

صاحبه كانصباب الماء في الحدود ، والصبابة ، الميل اللازم ، وانصباب القلب بكليته (٢) .

٤ - الغرام : وهو الحب اللازم للقلب ، الذي لا يفارقه ،

(١) مدارج السالكين (٦/٣ ، ٧) .

(٢) لاحظ اهتمامه بظلال الكلمة .

بل يلازم كمالزمة الغريم لغريمه ، ومنه سمى عذاب النار غراماً .

٥ - الوداد : وهو صفو المحبة ، وخالصها ، ولبها .

٦ - الشغف : أو وصول الحب إلى شغاف القلب .

٧ - العشق : وهو الحب المفرط الذى يخاف على صاحبه منه .

٨ - التتيم : وهو التعبد ، والتذلل ، وبينه وبين اليتيم الذى

الذى هو الانفراد ، تلاقى فى الاشتقاق ، وتناسب فى المعنى ؛
فإن اليتيم المنفرد يحبه ، وشجوه كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه .
وكل منهما مكسور ، ذليل ، هذا كسرة ييم ، وهذا كسره تيم .

٩ - التعبد : وهو فوق التتيم ، وحقيقة العبودية : الحب
التام . مع الذل التام ، والخضوع للمحبيب ، تقول طريق : معبد
أى ذيلته الأقدام وسهلتة (١) .

١٠ - الخلعة : وهى المحبة ، التى تغللت روح المحب ، وقلبه

حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب . (٢)

(١) انظر لتفصيل هذا الموضوع العظيم ، رسالة العبودية لابن تيمية .

(٢) مدارج السالكين (٣ / ٢٧ ، ٣٠) بتصرف .

مشهد الحجيج

أَمَّا وَالَّذِي حَجَّ الْمُجِبُونَ بَيْنَتِهِ
وَلَبَّيْوا لَهُ عِنْدَ الْمَهَلِّ ، وَأَخْرَمُوا (٢٧)
وَقَدْ كَشَفُوا تِلْكَ الرَّعُوسَ تَوَاضِعاً
لِعِزَّةٍ مَنْ تَعْنُو الْوُجُوهُ ، وَتُسَلِّمُ (٢٨)
يُهْلُونَ بِالْبَيْدَاءِ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا
لَكَ الْمُلْكُ ، وَالْحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُ (٢٩)
دَعَاهُمْ ، فَلَبَّوْهُ رِضَى ، وَمَحَبَّةً
فَلَمَّا دَعَوْهُ ، كَانَ أَقْرَبَ مِنْهُمْ (٣٠)
تَرَاهُمْ عَلَى الْأَنْضَاءِ شُعْثاً رُوسُهُمْ
وَعُغْبَرًا ، وَهُمْ فِيهَا أَسْرُ ، وَأَنْعَمُ (٣١)

-
- (٢٧) : القصد ، واصطلاحاً : قصد مكة للنسك . الحجيج : الحجاج ، جمع حاج .
لبو : أقاموا على الطاعة ، وقال في المصباح : لبي بالحج تلبية إذا قال : لبيك ، ثنى على
معنى التأكيد (لبيك اللهم لبيك) ، الحل : أهل الرجل رفع صوته بذكر الله عند نعمة أو
رؤية شيء يعجبه . والمهل هو مكان الإهلال .
أحرموا : نواو الدخول في حج أو عمرة ، ومعناه أدخل نفسه في شيء ، حرم عليه
به ما كان حلالاً له (المصباح ١/١٣٢)
(٢٨) : تعنو : أي تخضع وتذل قال تعالى (وعت الوجوه للحى القيوم) (سورة طه ١١٠)
(٢٩) : البيداء : الصحراء .
(٣١) : الأنضاء : جمع نضو وهو الجمل المهزول ، المصباح المنير (٢/٦١٠)
شعثاً : متغيرى الشعر .
غبراً : عليهم الغبار .

وَقَدْ فَارَقُوا الْأَوْطَانَ ، وَالْأَهْلَ رَغْبَةً
وَلَمْ يُثْنِيهِمْ لَذَاتِهِمْ ، وَالتَّعْنُمُ (٣٢)
يَسِيرُونَ مِنْ أَفْطَارِهَا ، وَفَجَّاحِهَا
رِجَالًا ، وَرُكْبَانًا ، وَلِلَّهِ أَسْلَمُوا (٣٣)
وَلَمَّا رَأَتْ أَبْصَارُهُمْ بَيْتَهُ الَّذِي
قُلُوبُ الْوَرَى شَوْقًا إِلَيْهِ تَضَرَّمُ (٣٤)
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْصَبُوا قَطُّ قَبْلَهُ
لِأَنَّ شَقَاؤَهُمْ ، قَدْ تَرَحَّلَ عَنْهُمْ (٣٥)
فَلَلَهُ كَمٍ مِنْ عَبْرَةٍ ، مُهْرَاقَةٍ
وَأُخْرَى عَلَى آثَارِهَا ، لَا تَقْدُمُ (٣٦)
وَقَدْ شَرِقتْ عَيْنُ الْمُحِبِّ بِدَمْعِهَا
فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدَّمْعِ ، وَيُسْجِمُ (٣٧)

(٣٢) لم يثنهم : لم يكفهم ، وبصرفهم عن حاجتهم (مختار الصحاح ٨٨)
(٣٣) أفطارها : جوانبها ، ونواحيها ، والمفرد قطر .
فجاجها : الفج هو الطريق الواسع بين الجبلين ، والجمع فجاج .
رجالاً : أى سائرين على أرجلهم .
(٣٤) الورى : الخلق ، تضرم : تلهب وتشتعل تحرقاً ،
(٣٥) ينصوا : يتعبوا ، شقاؤهم : شقاؤهم ، ترحل : ذهب عنهم وانجلى .
(٣٦) عبرة مهراقة : دمعة سائلة ، منصيبة ، أصلها مراقبة ، آثارها : الأثر بفتح
الهمزة ، ما يؤثره كل ما شفى الأرض (المثلث لابن السيد البطليموسى) (٣٣٧/١)
دار الرشيد للنشر .

لا تقدم : لا تتقدم وحذفت إحدى التاءين .
(٣٧) شرقت : امتلأت بالدموع . يسجم : يسيل .

- إِذَا عَايَنَتْهُ الْعَيْنُ زَالَ ظَلَامُهَا
 وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكُتَيْبُ . التَّالِمُ (٣٨)
 وَلَا يَعْرِفُ الطَّرْفُ الْمُعَايِنُ حُسْنَهُ
 إِلَى أَنْ يَعُودَ الطَّرْفُ ، وَالشَّوْقُ أَعْظَمُ (٣٩)
 وَلَا عَجَبٌ مِنْ ذَا فَحِينٍ أَضَافَهُ
 إِلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَنُ ، فَهُوَ الْمُعْظَمُ (٤٠)
 كَسَاهُ مِنَ الْإِجْلَالِ ، أَعْظَمَ حُلَّةٍ
 عَلَيْهَا طِرَازُ بِالمَلَاخَةِ مُعْلِمُ (٤١)
 فَمِنْ أَجْلِ ذَا ، كُلُّ الْقُلُوبِ تُحِبُّهُ
 وَتَخْضَعُ إِجْلَالًا لَهُ ، وَتُعْظَمُ (٤٢)
 وَرَاحُوا إِلَى «التَّعْرِيفِ» يَرْجُونَ رَحْمَةً
 وَمَغْفِرَةً مِمَّنْ يَجْسُودُ ، وَيُكْرَمُ (٤٣)
 فَلِلَّهِ ذَاكَ الْمَوْقِفُ الْأَعْظَمُ الَّذِي
 كَمَوْقِفِ يَوْمِ الْعَرْضِ ، بَلْ ذَاكَ أَعْظَمُ (٤٤)
 وَيَدْنُو بِهِ الْجَبَّارُ جَسَلًا جَلَالُهُ
 يُبَاهِي بِهِمْ أَمْلَاكُهُ ، فَهُوَ أَكْرَمُ (٤٥)

(٣٩) الطرف : البصر :

(٤١) حلة : إزار ورداء : طراز : الطراز الهيئته : الملاحه : الحسن : معلم :

أى جعل له علامة :

(٤٣) التعريف : الوقوف بعرفات وهو موضع وقوف الحجيج :

(٤٤) موقف يوم العرض : يوم القيامة :

(٤٥) يدنو : يقرب : يباهى : يفخر : أملاكه : ملائكته :

يَقُولُ : عِبَادِي قَدْ أَتَوْنِي مَحْبَبَةً
 وَلِإِنِّي بِهِمْ بَرٌّ ، أَجُودُ ، وَأَرْحَمُ (٤٦)
 فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي غَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ
 وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا أَمْلَأُوهُ ، وَأُنْعِمُ (٤٧)
 فَبَشِّرَاكُمْ يَا أَهْلَ ذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي
 بِهِ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ ، وَيَرْحَمُ (٤٨)
 فَكَمْ مِنْ عَتِيقٍ فِيهِ كَمَّلَ عِتْقُهُ
 وَآخِرُ يَسْتَسْعَى ، وَرَبُّكَ أَرْحَمُ (٤٩)
 وَمَا رُؤْيُ الشَّيْطَانِ أَغِيْظَ فِي السُّورِ
 وَأَحَقُّرَ مِنْهُ عِنْدَهَا ، وَهُوَ أَلَامٌ (٥٠)
 وَذَاكَ لِأَمْرِ قَدْ رَأَاهُ فَغَسَاظُهُ
 فَاقْبَلْ يَحْثُو التُّرْبَ غِيْظًا ، وَيَلْطِمُ (٥١)

-
- (٤٦) بر : متفضل ، كريم ، رحيم .
 (٤٧) أشهدكم : أطلعكم . أملوه : ترقبوه ، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله . قال زهير : أرجو وأمل أن تندو مودتها . ومن عزم على السفر إلى بلد بعيد يقول أملت الوصول . المصباح : ص ٣٨ .
 (٤٨) بشراكم : البشرى تكون بالخير .
 (٤٩) عتيق : العتق : الكرم ، وهو أيضاً الحرية ، والعتيق ، هو العبد العتق : يستسعى : يسعى ويكد .
 (٥٠) الأم : اللثيم ، الدناء الأصل ، الشحيح النفس ، والأم . أفعّل تفضيل من اللؤم (الدناءة) .
 (٥١) يحثو التراب : يهبل التراب على وجهه .

- وَمَا عَايَنْتَ عَيْنَاهُ مِنْ رَحْمَةٍ أَتَتْ
وَمَغْفِرَةٍ مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ ، تُقَسِّمُ (٥٢)
بَنَى مَا بَنَى ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ
تَمَكَّنَ مِنْ بُنْيَانِهِ ، فَهُوَ مُحْكَمٌ (٥٣)
أَتَى اللَّهُ بُنْيَانًا لَهُ مِنْ أَسَاسِهِ
فَفَخَّرَ عَلَيْهِ ، سَاقِطًا ، يَتَهَدَّمُ (٥٤)
وَكَمْ قَدَرُ مَا يَعْلُو الْبِنَاءَ ، وَيَنْتَهَى
إِذَا كَانَ يَبْنِيهِ ، وَذُو الْعَرْشِ يَهْدُمُ ؟! (٥٥)
وَرَاحُوا إِلَى جَمْعٍ فَبَاتُوا بِمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَصَلُّوا الْفَجْرَ ، ثُمَّ تَقَدَّمُوا (٥٦)
إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى يُرِيدُونَ رَمِيهَا
لِوَقْتِ صَلَاةِ الْعِيدِ ، ثُمَّ تَيَمَّمُوا (٥٧)
مَنَازِلَهُمْ لِلنَّحْرِ ، يَبْغُصُونَ فَضْلَهُ
وَإِحْيَاءَ نَسْكِ مَنْ أَبِيهِمْ ، يُعْظَمُ (٥٨)
فَلَوْ كَانَ يُرْضَى اللَّهُ نَحْرُ نَفُوسِهِمْ
لَدَانُوا بِهِ طَوْعًا ، وَلِلْأَمْرِ سَلَمُوا (٥٩)

(٥٦) جمع : يقال لمزدلفة جمع إما لأن الناس يجتمعون بها وإما لأن آدم اجتمع هناك بجواء (المصباح المنير : ١٧٠) . ، مشعر الحرام : جبل بآخر مزدلفة ١٤٥ قرح ، والميم مفتوحة على المشهور (المصباح : ٤٨١) .

(٥٧) الجمرة الكبرى : هي مجتمع الحصى بمنى ، تيمموا : قصدوا .
(٥٨) نسك : هو التطوع بقربة لله ، والمقصود بأبيهم هنا هو إبراهيم عليه السلام .
* في الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ما يسمى بالتضمن وهو أن تصل آخر البيت بأول البيت الذي يليه (مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٨٥) .
(٥٩) نحر : ذبح . دانوا : خضعوا .

كَمَا بَدَّلُوا عِنْدَ الْجَهَنَّمَ نُحُورَهُمْ
لِأَعْدَائِهِ حَتَّى جَرَى مِنْهُمْ الدَّمُ (٦٠)

وَلَكِنَّهُمْ دَانُوا ، بِوَضْعِ رُءُوسِهِمْ
وَذَلِكَ ذُلٌّ لِلْعَبِيدِ ، وَمِيسَمُ (٦١)

وَلَمَّا تَقَضَّوْا ذَلِكَ التَّفَثَ السَّيِّئَ
عَلَيْهِمْ ، وَأَوْفَوْا نَذْرَهُمْ ، ثُمَّ تَمَّحُوا (٦٢)

دَعَاهُمْ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ زِيَارَةً
فِيَا مَرْحَبًا بِالزَّائِرِينَ ، وَأَكْرِمُوا ! (٦٣)

فَلِلَّهِ مَا أُنْبِئِي زِيَارَتَهُمْ لَهُ !
وَقَدْ حُصِّلَتْ تِلْكَ الْجَوَائِزُ ، تُقَسَّمُ (٦٤)

وَاللَّهُ أَفْضَلُ هُنَاكَ ، وَنِعْمَةُ
وَبِرٌّ ، وَإِحْسَانٌ ، وَجُودٌ ، وَمَرْحَمٌ (٦٥)

(٦٠) نحورهم : النحر موضع القلادة من الصدر والجمع نحور (المصباح : ٩١٩)
(٦١) وضع رءوسهم : خفضها خشوعاً لله سبحانه . ميسم : اسم لأثر الوسم
وهو الكى . لسان العرب (٦/٤٨٣٨) .

(٦٢) ليقضوا تفثهم : قضاء التفث هو استباحة ما حرم عليهم بالإحرام بعد التحلل :
المصباح : ١٢٠ ، نذرهم : النذر : وهو ما ينذره الإنسان فيجعله على نفسه واجباً .
لسان العرب (٦/١٣٩٠) . تمموا : قال تعالى : « وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » قال
ابن فارس معناه ائتوا بفروضها ، المصباح : ١٢٢ :

(٦٣) البيت العتيق : القديم ، وسمى به لأنه أول بيت وضع للناس

(٦٤) أنبئى : البهأ : الحسن .

(٦٥) بر : البر هو الخير والفضل . ج ود : كرم .

مرحم : الرحمة في بني آدم : رقة القلب وعطفه ، ورحمة الله : عطفه وإحسانه ،

ورزقه .

وَعَادُوا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ مِنْ مَنِيَّ *
 وَنَالُوا مُنَاهُمْ عِنْدَهَا ، وَتَنَعَّمُوا (٦٦)
 أَقَامُوا بِهَا يَوْمًا ، وَيَوْمًا ، وَثَلَاثًا
 وَأُذِّنْ فِيهِمْ بِالرَّحِيلِ ، وَأَعْلِمُوا (٦٧)
 وَرَاحُوا إِلَى رَمَى الْجِمَارِ عَشِيرَةً
 شِعَارُهُمُ التَّكْوِينُ ، وَاللَّهُ مَعَهُمْ (٦٨)
 فَلَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَوْقِفَهُمْ بِهِـا
 وَقَدْ بَسَطُوا تِلْكَ الْأَكْفَ ، لَيُرْحَمُوا (٦٩)
 يُنَادُونَهُ : يَا رَبُّ ، يَا رَبُّ ، إِنَّنَا
 عَبِيدُكَ ، لَا نَدْعُو سِوَاكَ ، وَتَعَلَّمُ (٧٠)
 وَهِيَ نَحْنُ نَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
 فَانْتَ الَّذِي تُعْطِي الْجَزِيلَ ، وَتُنْعِمُ (٧١)

-
- (٦٦) منى : بكسر الميم ، سميت بذلك لما يعنى فيها من الدماء أى يراق .
 انظر تصحيح التنبيه للإمام النووى ص ٥٥ .
 تنعموا : أى أحرموا من التنعيم عند طرف الحرم من جهة المدينة . قيل سمي بذلك
 لأن عن عن يمينه جبلا يقال له نعيم ، عن شماله جبلا يقال له ناعم ، والوادي نعيان
 السابق (٥٧ ، ٥٨) .
 (٦٧) أذن فيهم : أعلموا .
 (٦٩) بسطوا الأكف : مدوها منشورة .
 (٧١) الجزيل : العطاء الواسع .

وَكَمَا تَقْضُوا مِنْ مَنِيَّ كُلِّ حَاجَةٍ
وَسَأَلْتُ بِهِمْ تِلْكَ الْبَطَاحُ ، تَقَدَّمُوا (٧٢)
إِلَى الْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَشِيَّةً
وَطَافُوا بِهَا سَبْعًا ، وَصَلُّوا ، وَسَلَّمُوا (٧٣) *

* * *

(٧٢) تقضوا : بلغوا حاجتهم ونالوا ما يبتغون . ، سألت : جرت بهم *
البطاح : كل مكان متسع ، والأبطح بمكة هو المخصب .
(٧٣) طافوا بها : الطواف من طاف به أى ألم ، والمقصود هنا طواف الوداع ؛
* في البيتين (٧٢ ، ٧٣) ما يسمى بالتضمين وهو أن تصل آخر البيت بأول
البيت الذى يليه ، وعلماء العروض يزعمون أن هذا عيب بناء على اعتقادهم أن البيت
هو وحدة القصيدة ، وخالفهم فى ذلك حازم القرطاجنى .

الشرح :

(٢٧-٢٩) يقسم الشاعر بالله سبحانه ، الذى قصد المحبون بيته الحرام بمكة واستجابوا له ، ودخلوا فى مناسك الإحرام ، وقد كشفوا رءوسهم تواضعاً لعزة الله الذى له يخضع كل من فى السماوات والأرض ، وهم يرفعون شعار التلبية : لبيك اللهم لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

تلبية لدعوته لم بالرضى والمحبة ، يدعونه فيلبى الله سبحانه دعوتهم بالإجابة والتكرم ، ويكون فى تلبيةتهم أسرع منهم وأقرب إليهم .

وهذه إشارة للحديث الشريف :

عن أنس رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : قال : إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ شِبْرًا ، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَى ذِرَاعًا ، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا (١) » رواه البخارى .

(٣٠) وها أنت تراهم راكبين على الجمال المهزولة ، وقد تغيرت شعورهم وتلبدت ، وتعفرت من أثر المشقة ، والجهد فى السفر ولكن هذا كله لا يمنعهم من الشعور بالسعادة الكبرى والسرور العظيم !

(١) البخارى (١٤٨/٩) عن أبي هريرة رضى الله عنه هـ

(٣٢) لقد غادروا الأوطان ، وفارقوا الأهل ؛ رغبة فيما هو أعظم ،
وما منعهم أسباب اللذة ، وما شغلهم أصناف النعيم ، عن اقتحام
هذه المخاطر .

(٣٣) فيها هم يقبلون ، ويقدمون من كل أنحاء الأرض ،
وسبلها ؛ منهم الماشى على رجليه ومنهم الراكب ، وكلهم قد أسلموا
وجوههم ، وقلوبهم لله رب العالمين .

(٣٤) وعندما ظهر البيت ، وتمتعت برؤيته الأبصار (ذلك
البيت الذى تهوى إليه أفئدة الناس وتتحرق إليه شوقاً) .
لما ظهر لهم ، نسوا كل مشقة فكأنهم ما ذاقوا بؤساً قط ، لقد تولى عنهم
الشقاء وانجلى ، ورحل ؛ لتحل محله السعادة العظمى .

(٣٥، ٣٤) وتأمل دموع المحبين ، دمة تجرى وتسيل ، وأخرى
تتبعها فى تمهل وحياء ، لقد امتلأت عيون المحبين بالدموع ، فأصبحت
ترى البيت تتماوج صورته من خلال الدمع المتدفق الشفيف .

(٣٨) إن هذا البيت ، هو نور العيون ، وهو سعادة القلب
الحزين ، عاينته العين فزال ظلامها ، وطالعه الفؤاد فذهب عنه
الهم وانجلت الأحزان .

(٣٧) إن حسن البيت من ذلك الحسن المركب التجدد ، الذى
يدعو إلى معاودة النظر شوقاً وحباً .

أو كما قال ابن القيم : كلما ازدادوا له زيارة ، ازدادوا له
اشتياقاً .

لَا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عَنْهَا حِينَ يَنْظُرُهَا حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهَا الطَّرْفُ مُشْتَاقًا (١)

فعلى الطرف المعاین أن يعود إليه مرة بعد مرة ، يحدوه شوق وحنین .

(٤٠) وكيف لا ، والله — سبحانه وتعالى — قد عظمه ، وشرفه فنسبه إلى ذاته الشريفة ، وذلك عندما نقول : بيت الله وهى نسبة تشريف ، وتعظيم .

(٤١) وقد شمله الله بالتعظيم ، والإجلال ، فكأنما ألبسه ثوباً جميلاً ، ظاهر الملاحاة ، والحسن .

(٤٢) فإن القلوب كلها تحبه ، وتهيم به ، وتستكين إليه ، وتعظمه وتجله ، لإجلال الله له .

(٤٣) ثم يتابع رحلة المحبين فى الحج ، وقد راحوا إلى عرفات الله ، يرجون رحمته ، ومغفرته ، وإحسانه .

ويتعجب الشاعر فى انبهار بعظمة هذا الموقف ، ويراه شبيهاً بموقف آخر جليل هو موقف يوم العرض ، وإن كان موقف يوم العرض أعظم وأخطر .

ويذكر لنا وجه الربط بين موقف عرفات ، وموقف يوم العرض ، بأن فى هذا اليوم ، يباهى الله — سبحانه — ملائكته بعباده المحبين

الذين فارقوا أوطانهم ، وغادروا ملذاتهم سعيًا لله سبحانه وتلبية .
وهذا دليل عظيم على كرم الله سبحانه .

وهو يشير هنا إلى الحديث الذى أخرجه أبو يعلى عن أنس
رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إِنْ اللَّهُ تَطَوَّلَ (١) عَلَى أَهْلِ عِرْفَاتٍ ، يُبَاهِي بِهِ الْمَلَائِكَةُ يَقُولُ :
يَا مَلَائِكَتِي ، انظُرُوا إِلَى عِبَادِي ، شُعْثًا ، غُبْرًا ، أَقْبَلُوا يَضْمُرُونَ
إِلَى مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَجَبْتُ دَعَاءَهُمْ ، وَشَقَّعْتُ
رَغْبَتَهُمْ ، وَوَهَبْتُ مَسِيئَتَهُمْ لِحَسَنِهِمْ ، وَأَعْطَيْتُ مُحْسَنَهُمْ (٢) جَمِيعَ
مَا سَأَلُونِي غَيْرَ التَّبِعَاتِ بَيْنَهُمْ » .

قال ابن حجر : هذا السند ضعيف ، ثم أورد للحديث طرقاً عدة
وقال : وقد ورد ما فى الحديث فى أحاديث أخرى نذكر ما تيسر
منها : فمنها ما أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى وابن ماجه عن
عائشة رضى الله عنها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة
وإنه ليدينو ، يتجلى ، ثم يباهى بهم الملائكة » (٣)

فما أعظم ما تستبشرون به يا أصحاب هذا الموقف العظيم الذى
يغفر الله فيه الذنوب ، ويرحم العباد ! .

(١) يعنى تطول إليهم .

(٢) مفرد فى اللفظ ، وجمع فى المعنى .

(٣) قوة الحجاج فى عموم المغفرة للحجاج للحافظ أبى الفضل أحمد بن على بن حجر
العسقلانى .

وانظر صحيح مسلم بشرح النووى (٣/٤٩٥) .

وما أكثر من يمن الله عليه بالعتق من أسر الذنوب السالفة ،
فيكمل عتقه وتحرره منها كأنما لم يعملها ، وكذلك من لا يزال
يسعى ويكد لينال هذا الشرف العظيم ، ورحمة الله سبحانه من وراء
الجميع ؛ وراء فوز الفائز ومع الساعي تأخذ بيده حتى يصل
إلى مبتغاه .

ثم يصور غيظ الشيطان في هذا الموقف حين يعلم أن الله سبحانه
قد غفر للجميع ، فيتذكر بحسرة جهوده السابقة ، وقد ذهبت هباءً .
فيغتاظ حقيراً ، ذليلاً ، يهبل بيده على رأسه التراب ، ويلطم خده
من الغيظ .

وهو يشير إلى الحديث الذي أخرجه مالك في الموطأ ، عن طلحة
ابن عبد الله بن كريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ما روى الشيطان يوماً هو أصغر ولا أذحر (أى أذل وأبعد)
ولا أحقر ، ولا أغيظ منه ، في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى من
تنزل الرحمة ، وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام « (١) .

قال الحافظ ابن حجر : هذا مرسل وقد وصله الحاكم من حديث
أبي الدرداء وقال محققا كتاب « قوة الحجاج » : هذا المرسل إسناده

(١) انظر الموطأ (ص ٢٧٢) باب جامع الحج . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي كتاب
الشعب : وقال المحقق : هذا مرسل : وقد وصله الحاكم في المستدرک عن أبي الدرداء
رضي الله عنه .

صحيح ، وقد رواه البيهقي من طريق مالك أيضاً (١) .

ويشبه حال الشيطان - في هذا الموقف - بالباني الذي تعب في البناء حتى إذا ظن أنه أتم بنيانه وصار قوياً محكماً ، أخذه الله من قواعده فسقط عليه متهدماً .

وهو يعلل لذلك بالحكمة الخالدة : كيف يتم بناء أراد الله تهديمه ؟!

ويواصل رحلته مع الحجاج ، فيذكر رواحهم إلى جمع الجمار ، وبياتهم في مزدلفة ليلة النحر ، إلى أن يصلوا الفجر ثم إتيانهم المشعر فيذكرون الله عنده ، ثم يسلكون الطريق الوسطى إلى الجمرة وهي جمرة العقبة (٢) ، وجمع هي مزدلفة : فإذا أسفروا انصرفوا إلى منى ، واكثروا من التلبية في سيرهم ، فإذا وصلوا منى قطعوا التلبية عند جمرة العقبة ، ثم رموها .

وبعد الرمي ، ينحرون هديهم ابتغاء فضل الله سبحانه وإحياء لنسك أبيهم إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم . لقد نحروا مناسكهم ، ولو علموا أن في ذبح أنفسهم مرضاة لله لفعلوا وسلموا تسليماً ، وذلك مثلما يجودون برقابهم ودمائهم الزكية في قتالهم لأعداء الله سبحانه في ساحات الجهاد .

(١) قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج للحافظ ابن حجر ، والمحققان هما : الشيخ عبد الله محمد الصديق ، والأستاذ عيد الوهاب عبد اللطيف .
(٢) انظر التحقيق والإيضاح للشيخ عبد العزيز بن باز ،

إن خضوعهم لله عظيم ، فإن كان مظهره في ساحة الجهاد بذل
الدماء ، فإن مظهره هنا خفض الرعوس مبالغة في التعبد ، والتذلل ، والخشوع .
وتلك علامة لمدى تذللهم له سبحانه .

فلما قضوا تفثهم : أى أزالوا وسخهم الذى أصابهم بالإحرام ،
وذلك بالخلق ، والتقصير ، وإزالة الشعث وقص الشارب ، والأظافر
وأوفوا ندورهم أى ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله . وطافوا
بالبيت العتيق طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة ، الذى هو تمام
التحلل ، جاءتهم دعوة الله سبحانه إلى زيارة البيت العتيق جاءتهم
هذه الدعوة المباركة إلى الزيارة العظيمة وأكرم بها من زيارة (١) !

ويتعجب الشاعر من شدة حسن وجلال زيارة المحبين لبيت الله
وقد فازوا بالجوائز العظيمة ، تقسم عليهم فى هذا الموقف الجليل
كما يتعجب من عظمة أفضال الله ونعمه وعطاياه . . وعموم بره ،
ورحمته ، وإحسانه . .

وها هم ينالون ما كانوا يتمنون ، وما كانوا يشاققون إليه وذلك
بعد عودتهم إلى منى . .

ثم يتتبع تفاصيل الرحلة من الإقامة فى منى ثلاثة ليال إلى الإعلام
بالرحيل ، ثم الذهاب إلى رمى الجمار وهم يكبرون ويستشعرون
معيته سبحانه .

فلا تملك النفس ولا تملك العينان إلا متابعتهم - في انبهار -
وقد بسطوا أكفهم طلباً لرحمة الله ، في نداء حثيث ، متواصل ، عامر
بالخشوع ، زاخر بالرجاء في الله سبحانه .

يارب ، نحن عبيدك الضعفاء ، وأنت الغني لألوهاب ، المتفضل
فلا ندعو ، ولا نرجو سواك ، وأنت تعلم .

ها نحن نرجو منك ، ما أنت أهله ، فإنك أنت القادر الذي يعطى
ويوسع في العطاء ، ويمنح ويوجد في فضل وسخاء .

ثم نصل مع الشاعر إلى آلام ما قبل الوداع بعد الفراغ من أعمال
الحج ومناسكه التي استغرق فيها الشاعر بروحه ، ووجدانه .

وانتقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة في رحلتنا - إلى بلاد الأشواق .
بعد رحلة الحج والزيارة .

فوائد :

قال الإمام العلامة الدهلوى ، فى كتابه العظيم (حجة الله البالغة)
اعلم أن حقيقة الحج : اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين فى زمان
يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين
ومكان فيه آيات قد قصده جماعات من أئمة الدين ، معظمين
لشعائر الله ، متضرعين ، راغبين ، وراجين من الله الخير ، وتكفير
الخطايا .

ويقول : « وربما يشواق الإنسان إلى ربه ، أشد الشوق فيحتاج
إلى شيء يقضى به شوقه (١) » .

* * *

الَامُ الْوَدَاع . . .

- وَلَمَّا دَتَى التَّوْدِيْعُ مِنْهُمْ وَأَيْقَنُوا
 بِأَنَّ التَّدَانِي حَبْلُهُ مُتَصَرِّمٌ (٧٤)
 وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَقْفَةٌ لِمُودِعٍ
 فَلِلَّهِ أَجْفَانُ هُنَاكَ تُسَجِّمُ (٧٥)
 وَلِلَّهِ أَكْبَادُ هُنَالِكَ أُوْدِعَ الْـ
 غَرَامُ بِهَا ؛ فَالْنَّسَارُ فِيهَا تَضَرِّمُ (٧٦)
 وَلِلَّهِ أَنْفَاسُ يَسْكَاذُ بِحَسْرَتِهَا
 يَذُوبُ الْمُحِبُّ ، الْمُسْتَهَامُ ، الْمُتَمِّمُ (!٧٧)
 فَلَمْ تَرَ إِلَّا بَاهِتًا ، مُتَحَيِّرًا
 وَآخَرَ يُبْدِي شَجْوَهُ يَتَرَنَّـمُ (٧٨)
 رَحَلَتْ وَأَشْوَاقِي إِلَيْكُمْ مُقِيمَةً
 وَتَارُ الْأَسَى ، مِنْنِي تَشِبُّ ، وَتَضَرِّمُ (٧٩)

-
- (٧٤) التداني : شدة القرب ، متصرم : منقطع .
 (٧٥) أجفان : جفن العين هو غطاؤها من أعلاها ، وأسفلها والجمع أجفان ؛
 سجم : تسيل بالدمع .
 (٧٦) أودع : أعطى على سبيل الأمانة فيصبح الغرام ودیعة فيها .
 الغرام : هو الحب اللازم ، تضرم : تشتعل أصلها تضرم .
 (٧٧) المستهَام : هام يهيم : خرج على وجهه لا يدرى وجهته .
 المتيم : هو المنفرد بحبه وشجوه .
 (٧٨) باهتًا : مدهوشًا متحيرًا ، شجوه : حزنه وهمه .
 يترنم : يرجع صوته بالغناء .
 (٧٩) تشب : توفد .

أودَّعُكُمْ وَالشَّوْقُ يَنْبِي أَعِصْنِي
 وَقَلْبِي أَمْسَى فِي حِمَاكُمْ مُخِيمٌ (٨٠)
 هُنَالِكَ لَا تَشْرِبُ يَوْمًا عَلَى أَمْسَرِي
 إِذَا مَا بَدَأَ مِنْهُ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ (٨١)
 فَيَاسَائِقِينَ الْعَيْسَ ، بِاللَّهِ رَبِّكُمْ
 قِفُوا لِي عَلَى تِلْكَ الرَّبُوعِ ، وَسَلِّمُوا (٨٢)
 وَقُولُوا : مُحِبُّ قَادَهُ الشَّوْقُ نَحْنُ وَكُمْ
 قَضَى نَحْبَهُ فَيْكُمْ ، تَعِيشُوا ، وَتَسْلُمُوا (٨٣)
 قَضَى اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ فِيمَا قَضَى بِهِ
 بَيِّنَ الْهَوَى يُعْمِي الْقُلُوبَ ، وَيُبْكُمُ (٨٤)
 وَحُبُّكُمْ أَصْلَ الْهُدَى ، وَمَمْدَارُهُ
 عَلَيْهِ ، وَفَوْزٌ لِلْمُحِبِّ ، وَمَغْنَمُ (٨٥)

(٨٠) يَنْبِي أعنى : ثنى الشيء ، عطفه وكفه وصرفه عن حاجته ، والأعنة هي
 الجملة الفرس .

نَحْم : مقيم ، وهي هنا مرفوعة وكان حقها أن تصبح خبراً لأَمْسَى ، ويتأول للشاعر بأن
 أَمْسَى هنا فعل تام وليس ناقصاً وتعرب «نَحْم» خبراً مرفوعاً لضمير محذوف . « . والله أعلم .
 (٨١) التَّشْرِبُ : الاستقصاء والمبالغة في اللوم :

(٨٢) الْعَيْسَ : إبل بيض ، في بياضها ظلمة خفيفة ، والفرد عيساء ،

الرَّبُوعُ : الربع هو الدار بعينها حيث كانت ، والجمع رباع وربوع .

(٨٣) قَضَى نَحْبَهُ : مات ، والمعنى مات في سبيلكم كي تعيشوا ، وتسلموا ، فيكم :

في سبيلكم .

(٨٤) الْهَوَى : الحب والتعلق ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء ثم
 استعمل في ميل مذموم فيقال اتبع هواه ، وهو من أهل الأهواء . (المصباح المنير (٩٩٧) ،
 ييكم : يخرس وقيل الأخرس الذي خلق ولا نطق له ، والأبكم : الذي له نطق
 ولا يعقل الجواب والجمع بكم (المصباح : (٩٦) .

(٨٥) مَدَارُهُ عليه : المحور الذي يدور حوله ، مغنم : الغنيمة ونقيضه المغرم .

وَتَفَنَّى عِظَامُ الصَّبِّ بَعْدَ مَمَاتِهِ
 وَأَشْوَاقُهُ ، وَقَفَّ عَلَيْهِ مُحَسَّرٌ (٨٦)
 فَيَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي مَلَكَ الْمَسْوَى
 أَزِمَّتْهُ ، حَتَّى مَتَى ذَا التَّلُومُ ؟ ! (٨٧)
 وَحَتَّامَ لَا تَصْحُو ؟ ! وَقَدْ قَرُبَ الْمَدَى
 وَدَنَتْ كُؤُوسُ السَّيْرِ ، وَالنَّاسُ نَوْمٌ ! (٨٨)

* * *

(٨٦) تفنى : تبلى .

الصب : هو من مال قلبه إلى محبوه ، وانصبابه هي انصباب القلب إلى المحبوب بحيث لا يملكه صاحبه .

(٨٧) التلوم : الانتظار ، والمكث .

(٨٨) المدى : الغاية ، ومدى البصر منتهاه وغايته .

دنت كؤوس السير : كتابة عن اقتراب الرحيل .

الشرح :

(٧٤) ولما اقترب موعد الوداع والرحيل ، وتأكدوا من انقطاع حبل القرب ، وانتهاء أمدّه .

(٧٥) وأنه لم يبق أمامهم إلا تلك الوقفة الأخيرة للوداع ، حين ذاك سالت دموعهم ، وفاضت عبراتهم .

(٧٦) وإني لأشفق على هذه الأكباد المقرحة ، واستغيث الله لها فإن النار تشتعل فيها اشتعالاً ، وتستعر سعيراً .

(٧٧) كما أرثى ، وأشفق ، وأستغيث الله لهذه الأنفاس الحارة التي يكاد لشدة لفحها يذوب الحب كمدأ ، وجوى . هذا المحب الهائم على وجهه ، تقوده قدماءه إلى حيث لا يدرى وقد شغله حبه ، وتعلقه بمحبوبه عن كل ما حوله .

(٧٨) والآن لقد صار الناس قسمين ؛ مدهوشاً حائراً ، أو مسكيناً لم يستطع مغالبة شوقه ، فأعلن حزنه في غناء عذب جميل .

(٧٩) نعم . لقد رحلتُ ، ولكنى لا أزال مقيماً معكم بأشواقى وهذه نار الحزن والأسف تستعر في قلبي وصدري .

(٨٠) وها أنا أحاول الفراق ، فيأبى على الشوق إلا الإقامة في حماكم الطاهر ، الشريف .

(٨١) وهذا موقف عصيب ، ليس لأحد أن يعيب فيه على أحد ، إذا هو أعلن مكنون فؤاده ، وأفشى سر شوقه القديم .

(٨٣، ٨٢) وقفوا يا أصحاب المطايا ، على ديار الحبيب ، ولا
تتعجلوا ؛ فإننى أستحلفكم بربكم أن تبلغوا أشواقى وتحياى ، ثم
لا تنسوا أن تخبروا عن حالة محب كان الشوق قائده إلى محبوبه
حتى إنه ليقضى نجه ، ويموت فى سبيل رضائه .

(٨٥، ٨٤) وإذا كان الله سبحانه قد حكم بأن الهوى سبب فى عمى
القلوب عن الحق ، وحبسها عن الخير ، فإن حبي وهواى من نوع
أسمى ، بل إنه هو أساس الهداية ومحورها الذى حوله تدور ، إنه
فوز للمحبين ، ونجاة لهم .

(٨٦) وإن العظام لتفنى وتبلى بعد ممات المحب الصادق ، ولكن
أشواقه تظل باقية ، دائمة كالوقف المحترم .

(٨٧) فى متى أيها القلب المسكين ، يامن قهوك الهوى ، إلى متى
أنت باقى ، وساكن ؟ وإلى متى تخلد إلى النوم ، وتركن إلى الغفلة ؟
وهذا وعد الله قد اقترب .

وهذه قافلة الحق قد أذنت بالمسير .

فهـل تـلـحـق بـهـم ؟ !

انتفاضة البعث ..

- بَلَى سَوْفَ تَصْحَوُ حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا
وَيَبْدُو لَكَ (*) الْأَمْرُ الَّذِي كُنْتَ تَكْتُمُ (٨٩)
وَيَا مُوقِداً نَاراً لِغَيْرِكَ ضَمَّـوْهُـا
وَحَرَّ لَظَاهَا بَيْنَ جَنْبَيْكَ يَضْرُمُ (٩٠)
أَهَذَا جَنَى الْعِلْمِ الَّذِي قَدْ غَرَسْتَهُ
وَهَذَا الَّذِي قَدْ كُنْتَ تَرْجُوهُ يُطْعِمُ ؟ (٩١)
وَهَذَا هُوَ الْحِظُّ الَّذِي قَدْ رَضَّـيْتَهُ
لِنَفْسِكَ فِي الدَّارَيْنِ : جَاهٌ وَدِرْهَمُ (٩٢)
وَهَذَا هُوَ الرَّبْحُ الَّذِي قَدْ كَسَبْتَهُ ؟
لَعَمْرُكَ لَا رِبْحٌ ، وَلَا الْأَصْلُ يَسْلَمُ ! (٩٣)
بَخِلْتَ بِشَيْءٍ لَا يَضُرُّكَ بِـ...ـذَلِكَ
وَجَدْتَ بِشَيْءٍ مِثْلُهُ لَا يُقْـ...ـوَمُ (٩٤)

- (٨٩) ينكشف الغطا : تزول الحجب عن قلبك وسمحك وبصرك ؛
(٩٠) موقداً ناراً : مشعلاً ناراً ، لظاها : لهيها ، يضرم : يشتعل .
(٩١) جنى : ما يجتنى من الثمر أى يلتقط .
(٩٢) الحظ : النصيب ، الجاه : القدر والمنزلة عند الناس .
الدارين : الدنيا والآخرة .
(٩٣) لعمرك : قال فى المصباح المنير : تدخل لام القسم على المصدر عمر ، فتقول : لعمرك لأفعلن ، والمعنى : وحياتك وبقائك اه .
الأصل : المقصود هنا أصل التجارة أو رأس المال .
(٩٤) بذله : بذل الشيء أى سمع به وأعطاه ، وأباحه عن طيب نفس ، جدت : تكرمت وبذلت .
لا يقوم : أى لا يعدله شيء فى قيمته .
(*) فى الأصل : ذلك ، وهو خطأ ؛

بَخِلْتُ بِذَا الْحِطِّ الْخَسِيسِ دَنَسَاءَ
وَجُدْتُ بِدَارِ الْخُلْدِ ، لَوْ كُنْتُ تَفْهَمُ (٩٥)

وَبِعْتَ نَعِيمًا لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَلَا
نَظِيرَ ، بَبْخَسٍ عَنْ قَلِيلٍ سَيُعْدَمُ (٩٦)

فَهَلَّا عَكَسْتَ الْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا
وَلَكِنْ أَضَعْتَ الْحَزْمَ ، لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ (٩٧)

وَتَهْدِمُ مَا تَبْنِي بِكَفْكَ جَاهِلًا
فَأَنْتَ مَدَى الْأَيَّامِ تَبْنِي ، وَتَهْدِمُ (٩٨)

وَعِنْدَ مُرَادِ اللَّهِ تَفْنَى كَمِيَّتْ
وَعِنْدَ مُرَادِ النَّفْسِ ، تَسْدَى ، وَتُلْجِمُ (٩٩)

وَعِنْدَ خِلَافِ الْأَمْسَرِ تَحْتَجُّ بِالْقَضَا
ظَهِيرًا عَلَى الرَّحْمَنِ ، لِلْجَبْرِ تَزْعُمُ (١٠٠)

(٩٥) الخسيس : الحقير ، دناءة : لؤم ، وخبث .

(٩٦) النظير : المثل ، المساوى ، سيعدم : سيفقد .

(٩٧) الحزم : إتقان الرأى .

(٩٨) مدى الأيام : على مدار الأيام وإلى أن تبلغ نهايتها .

(٩٩) تسدى وتلجم : السدى (وزان حصي) من الثوب خلاف اللحمه ، وهو

ما يمد طولاً في النسيج ، وتسدى : أى تمد يديك نحو الشيء ، لحمه الثوب : (بالفتح)
ما ينسج عرضاً (المصباح المنير) .

(١٠٠) تحتج بالقضا : انظر الشرح ص ١٨٧ .

ظهيراً : منازعاً وخصيماً .

- تَنْزَهُ مِنْكَ النَّفْسُ عَنْ سُوءِ فِعْلِهَا
 (١٠١) وَتَعْتَبُ أَقْدَارَ الْإِلَهِ ، وَتَظْلِمُ
 تُحِلُّ أُمُورًا أَحْكَمُ الشَّرْعِ عَقْدَهَا
 (١٠٢) وَتَقْصِدُ مَا قَدْ حَلَّهُ الشَّرْعُ ، تُبْرِمُ
 وَتَفْهَمُ مِنْ قَوْلِ الرَّسُولِ خِلَافَ مَا
 (١٠٣) أَرَادَ ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مِنْكَ مُعْجَمٌ
 مُطِيعٌ لِدَاعِي الْغَى ، عَاصٍ لِرُشْدِهِ
 (١٠٤) إِلَى رَبِّهِ يَوْمًا ، يُرَدُّ ، وَيَعْلَمُ
 مُضِيعٌ لِأَمْرِ اللَّهِ قَدْ غَشَّ نَفْسَهُ
 (١٠٥) مُهِينٌ لَهَا ، أَنَّى يُحِبُّ ، وَيُكْرِمُ ؟
 بَطِيءٌ عَنِ الطَّاعَاتِ أَسْرَعُ لِلْخَنَاسِ
 (١٠٦) مِنْ السَّيْلِ فِي مَجْزَاهُ ، لَا يَتَقَسَّمُ
 وَتَزْعُمُ مَعَ هَذَا بَأَنَّكَ عَ.....َارِفٌ
 (١٠٧) كَذَبْتَ يَقِينًا فِي الَّذِي أَنْتَ تَزْعُمُ

-
- (١٠٢) تحل : من حل العقدة بمعنى فتحها . فأنحلت ،
 تبرم : من أبرم الشيء أى أحكمه .
 (١٠٣) معجم : أى منقوط بالسواد .
 (١٠٤) الغى : الخيبة والضلال ، يسدد : يرجع .
 (١٠٥) غش نفسه : لم ينصحها وزين لها غير المصلحة (المصباح ٦٨٦)
 (١٠٦) الخنا : الفحش ، ينقسم : يتشعب .
 (١٠٧) مع : ساكنة العين على لغة لبنى ربيعة .
 تزعم : تطلق بمعنى القول ، وعلى الظن ، وعلى الاعتقاد وأكثر ما يكون الزعم
 فيما يشك فيه ولا يتحقق وقال بعضهم هو كناية عن الكذب (المصباح ٣٨٧)

وَمَا أَنْتَ إِلَّا جَاهِلٌ ، ثُمَّ ظَالِمٌ
 وَإِنَّكَ بَيْنَ الْجَاهِلِينَ ، مُقَدَّمٌ (١٠٨)
 إِذَا كَانَ هَذَا نَصْحَ عَبْدٍ لِنَفْسِهِ
 فَمَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُ الْهُدَى يُتَعَلَّمُ؟! (١٠٩)
 وَفِي مِثْلِ هَذَا الْحَالِ قَدْ قَالَ مَنْ مَضَى
 وَأَحْسَنَ فِيمَا قَالَهُ ، الْمُتَكَلِّمُ (١١٠)
 فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ
 وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي ، فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ (١١١)

* * *

وَلَوْ تُبْصِرُ الدُّنْيَا وَرَاءَ سَتُورِهَا
 رَأَيْتَ خِيَالًا فِي مَنَامٍ سَيُضْرَمُ (١١٢)
 كَحُلْمٍ بِطَيْفٍ زَارٍ فِي النَّوْمِ ، وَانْقَضَى الْـ
 مَنَامُ ، وَرَاحَ الطَّيْفُ ، وَالصَّبُّ مُغْرَمٌ (١١٣)

(١٠٨) المقدم : السابق ، ومنه مقدمة الجيش أى الذين يتقدمون .
 (١٠٩) نصيح : النصيح هو الإخلاص ، والصدق ، والمشورة والفاعل ناصح
 قال تعالى - على لسان نوح عليه السلام « ولا ينعكم نصيحى ، إن أردت أن أنصح لكم
 (هود / ٣٤) » .

(١١١) المصيبة : الشدة للنازلة ، وجمعها مصائب .
 (١١٢) ستورها : الستر ، ما يستر به وجمعه ستور وهى الحجب ،
 يصرم : أصرم النخل أى حين قطعه ، وانصرم الليل وتصرم أى ذهب (المصباح ٥١٨)
 (١١٣) طيف : الطائف ، ما أطاف بالإنسان من الجن ، والإنس ، والخيال
 الصب : العاشق ، المشتاق .
 مغرم : الغرام هو اللازم من الحب أو العذاب ، ومنه سمي عذاب النار غراما .

- وَضَلَّ أَرْتَهُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا
 سَيَقْلَصُ فِي وَقْتِ الزَّوَالِ ، وَيُقْصَمُ (١١٤)
 وَمُزَنَةٌ صَيْفَ طَابَ مِنْهَا مَقِيلُهَا
 فَوَلَّتْ سَرِيعًا ، وَالْحُرُورُ تَضُرُّمُ (١١٥)
 وَمَطْعَمُ ضَيْفٍ لَدَى مَنَّهُ مَسَاغُهُ
 وَبَعْدَ قَلِيلٍ حَالُهُ ، تِلْكَ تُعَلِّمُ ! (١١٦)
 كَذَا هَذِهِ الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَائِيَةٍ
 وَمِنْ بَعْدِهَا دَارُ الْقَضَاءِ سَتُقَدِّمُ (١١٧)

* * *

- فَجَزُهَا مَمْسَرًا لَا مَقَرًّا وَكُنْ بِهَـ
 غَرِيبًا تَعِشُ فِيهَا حَمِيدًا ، وَتَسَلِّمُ (١١٨)

- (١١٤) يقلص : يرتفع .
 يقصم : فقص الشيء ، كسره من غير أنه يبين قال تعالى : « لا انفصام لها » .
 والفعل أرتته من الرؤية مسنداً إلى الشمس .
 (١١٥) مزنة صيف : المزن بالضم ، السحاب أو أبيضه أو ذو الماء والقطعة مزنة .
 طاب : طاب الشيء إذا كان لذيذاً أو حالاً فهو طيب .
 مة يلها : القائلة هي نصف النهار ، قال : عيلاً ، ومقيلاً ، نام فيه .
 الحرور : الريح الحارة وهي بالليل وقد تكون بالنهار (مختار ١٢٩) .
 تضر : تشعل ، وتلتهب ، وشدد للمبالغة .
 (١١٦) مساعة : ساغ الشراب سوغاً ، سهل مدخله القاموس (١٠٨/٣) .
 (١١٧) دار القضاء : الدار الآخرة لأن الله يقضى فيها بين العباد .
 (١١٨) جزها : عبرها ، وسر فيها .

أَوْ ابْنَ سَبِيلٍ قَالَ فِي ظِلِّ دَوْحَةٍ
وَرَاحٍ ، وَخَلَّى ظِلَّهَا ، يَتَقَسَّمُ (١١٩)

أَخَا سَفَرٍ لَا يَسْتَقِرُّ قَرَارُهُ
إِلَى أَنْ يَرَى أَوْطَانَهُ ، وَيُسَلِّمُ (١١٢)

فَيَاَعْجَبًا ! كَمْ مَصْرَعٍ وَعَظَتْ بِهِ
بَنِيهَا ! وَلَكِنْ عَنْ مَصَارِعِهَا عَمُوا (١٢١)

سَقَتَهُمْ كُؤُوسُ الْحَبِّ ، حَتَّى إِذَا نَشَوْا
سَقَتَهُمْ كُؤُوسُ السَّمِّ ، وَالْقَوْمُ نَوْمُ (١٢٢)

وَأَعْجَبُ مَا فِي الْعَبْدِ رُؤْيَا هَذِهِ أَلْ
عِظَائِمِ ، وَالْمَغْمُورُ فِيهَا مُتِيَمٌ (١٢٣)

وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ خَمْرَةَ حَبَّهَا
لَتَسْلُبُ عَقْلَ الْمَرْءِ مِنْهُ وَتَصْلِمُ (١٢٤)

(١١٩) قال : أى نام فى نصف النهار ، قال ، يقبل قبالاً ، مقيلاً :

يتقسم : يتفرق ، ويتشعب .

(١٢٠) لا يستقر قراره : لا يبقى على حال ، ولا يهدأ له بال :

(١٢١) مصرع : مقتل ، بنها : أبناءها ، عموا :

نشوا : سكروا .

(١٢٢) المغمور : الممك فى الباطل ، كأنه مستور فيه ، والانغماس هو الانغماس

فى الماء .

متم : منشغل بحبه وهواه :

(١٢٤) تسلب : تأخذه وتنزعه منه .

تصلم : تستأصله قطعاً .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنْ أَحْبَابَهَا . الألى
 تُهينُ ، وَلَلْأَعْدَا ، تُسْرَاعِي ، وَتُكْرِمُ (١٢٥)
 وَذَلِكَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ قَدْرَهُ.....
 جَنَاحُ بَعُوضٍ ، أَوْ أَدْقُ ، وَالْأَمُّ (١٢٥)
 وَحَسْبُكَ مَا قَالَ الرُّسُولُ مُمَثَّلًا
 لَهَا ، وَلِدَارِ الْخُلْدِ ، وَالْحَقَّ يُفْهَمُ (١٢٧)
 كَمَا يُدَلِّي الْإِنْسَانُ فِي الْيَمِّ إَصْبَعًا
 وَيَنْزِعُهَا مِنْهُ ، فَمَا ذَاكَ يَغْنَمُ ؟! (١٢٨)

(١٢٥) الألى : اسم موصول يختص بالعقلاء من جمعي المذكر والمؤنث تقول
 مرنى الألى هاجروا ، وراقتنى الألى خدمن بلادها .
 والألى اسم جمع وتكتب بغير واو بعد الهمزة (النحو الوافى : ٣٤٥/١) :
 (١٢٦) الأم : أخس وأحقر ، وأدنى :
 (١٢٨) يدلى : يرسلها ليستقى بها ، اليم : البحر ، ينزعها : يخرجها :
 يغنم : يكسب ، يصب والمعنى فأى شيء يصيب لإصبعه من ماء البحر ؟ :
 وفى البيت اضطراب ولعله : كأن يدلى .

الشرح :

ومهما يطول بك النوم فلا بد أن تصحو ، وتستيقظ بالرغم
عنك ، وذلك حين يفجأك الموت بالأمر الحق فترى أهوال الآخرة
عياناً ، بعد أن كنت في غفلة عن هذا اليوم العصيب ، وذلك حين يزول
عنك الحجاب ، الذى كان على قلبك ، وسمعك ، وبصرك فى الدنيا ،
فتبصر بصرًا قويًا ، نافذًا ترى به ما كان محجوبًا عنك لزوال
الحجب الموانع (١) وقد انكشف أمرك وسرك للعالمين .

وأنت يا من تسببت فى إهلاك نفسك بإشعال نار ، إن استفاد
بضوئها الناس جميعاً فإنك أنت وحدك الذى يذوق شرها ولطبيها ،

هل هذا هو ما تجنيه ، وتحرص عليه ، مما تغرسه من المعرفة
والتعلم ؟ وهل هذا هو ما كنت تتوقعه من الربح والنفع ؟ وهل تبيع
كل شيء من أجل هذا الثمن البخس ، الجاه والدرهم ؟ فأخبر فى الآن
هل كسبت شيئاً أم خسرت ؟ فلا الربح حصلت ، ولا رأس مالك أبقيت !

لقد بلغ بك سوء الاختيار أن بخلت وضننت بما لا يضررك
أن تجود به ، فى الوقت الذى فرطت فيه بما لا غنى لك عنه .

بخلت بنصيب قليل حقير ، وما ذاك إلا لدناءة طبعك وقعوس
همتك ، وفرطت فى الجنة ونعيمها ،

فهل فهمت الآن أى جناية جنيتها على نفسك أيها المسكين ؟

لقد بعث النعيم المقيم الذى لا ينتهى ولا ينفذ فى مقابل ثمن حقير
سرعان ما يزول !

لقد كان الأولى بل والأجدر إذا كنت من أولى الرأى السيد
أن تعكس الأمر ، ولكنك أضعت رأيك بحمق شديد .

فهل علمت الآن أى حسرة أنت فيها ؟ ! .

وقد هدمت وحطمت ما ظلت تبنيه فى جهد ومشقة ، وهكذا
حالك تبني وتتعب ، ثم تحطم ما بنيت ، على مر الأيام والسنين .

أما إذا دعاك الله إلى مراده وشرعه ، فإنك تماوت ، متقاعس ،
فإذا دعتك النفس إلى شهواتها سارعت ، وصارعت ، ومددت يديك
تمتد فى الأركان طولاً وعرضاً .

فإذا وقعت فى معصية وفساد ، ذهبت إلى الاحتجاج بالقضاء
جهلاً وعناد ، وتقول إن الله قد كتب على أن أفعل كذا ، وتتطاول على
أمر الله وحكمته بزعمك الفاسد أنك مجبور على فعل هذا الشر فأنت
تبرىء نفسك الأماره بالسوء لكى تتهم أقدار الله العليم الحكيم .

يقول الشيخ حافظ بن أحمد حكمى فى وصف هؤلاء :

« هو قول الجبرية الغلاة ، الجفافة (. .) سلبوا العبد قدرته
واختياره وأخرجوا عن أفعال الله تعالى وأحكامه حكمها ، ومصالحها ،
ونفوا عن الله تعالى حكمته البالغة ، وجحدوا حجته الدامغة ،

ونسبوه تعالى إلى الظلم ، وطعنوا في عدله وشرعه » (١) تعالى عما يصفون علواً كبيراً .

ثم يعود الشاعر لاستكمال صفات هؤلاء الذين انكشف أمرهم يوم العرض فيقول :

لقد كنت تقطع ما يأمر الله به أن يوصل ، وتوصل ، ما يأمر الله به أن يقطع .

ولأن قلبك سقيم مريض ، فإنه لا يفهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم وحديثه الشريف على حقيقته ، بل يفهم الفهم المخالف لهديه صلى الله عليه وسلم وسنته ، هوىً منك أو سوء فهم .

إنك تطيع ، وتسارع في طاعة أهل الضلال ، ثم تعصى وتخالف نهج الرشاد والطريق الصواب المستقيم ،

أنسيت أنك راجع إلى ربك فما لقيه ؟ !

لقد ضيعت شرع الله وغششت نفسك وخدعتها ، ولم تخلص لها النصح ، ولم تصدقها المشورة ، فكيف تحظى اليوم بالحب والإكرام لها وأنت أول من أهانها .

أما عن الطاعات والحسنات ، والأعمال الصالحة ، فبطيء كسول .

وأما للفسح والمعاصي فنت أسرع من السيل المتدفق في مجراه لا يتشعب في المنعطفات بل يسيل في طريقه سريعاً عنيفاً .

وبرغم كل هذا لا تنزال تزعم أنك تعرف كل شيء .

كلا . . . إنك كاذب فيما تقول وتزعم .

وإن كان هذا هو شأنك مع نفسك ، وإذا كان هذا هو نصحك لها
فأني لغيرك أن يقتدى بك ؟ وأني لوعظك أن يُنتفع به ؟ وأنت أول من
خالفه !

وما أحسن ما قال الشاعر الحكيم في مثل حالتك هذه :

لو كنت تفعل هذا بنفسك عن جهل وبدون قصد فإنها مصيبة
وكارثة ، وأما إن كنت تدرك حقيقة ما تقوم بها من إهلاك لها ،
فإن النازلة أفدح ، والكارثة أعظم .

* * *

ثم يشرع في بيان ووصف حقيقة الدنيا فيقول :

إنك إن أبصرتها على حقيقتها ، ولم تنخدع بمظاهرها الكاذبة
لرأيتها مجرد حلم ، زائل .

إنها أشبه بحلم مما يطوف بالنائم فما هي إلا لحظات وينتهي
النوم ، ويذهب الخيال ، ويبقى المحب المسكين يعاني آلام الحسرة
والعذاب .

وهي كذلك - أي الدنيا - تشبه الظل الذي يصاحب طلوع
الشمس ، تحسبه ساكناً حتى يرتفع ويزول بزوال الشمس .

وهي كذلك مثل سحابة الصيف ، لا يكاد يستطيع بظلها الإنسان

ويتطلع ويترقب خيرها وغيثها حتى تولى سريعاً بينما الريح تلتهب كالنيران .

ومثلها كذلك كمثل ما يقدم للضيف من أطايب الطعام ثم همضم الطعام ويصير حاله إلى ما تعرف من بقايا وفضلات .

وفي المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحك بن سفيان : « أأستوتئى بطعامك ، وقد ملّح ، وقدح ثم تشرب عليه الماء واللبن قال : بلى ، قال : فإلام يصير ، قال : إلى ما قد علمت ، قال : فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا لما يصير إليه طعام ابن آدم (١) .

وكما رأيت ، فإن هذه الدنيا مثل أحلام النائمين ، وهل تبقى أحلام النائمين ؟ إنها تنقضى ، ويعقبها دار الخلود والبقاء . فاعتبر بما تقدم ، واتخذ الدنيا ممراً للعبور ، لا مستقراً للعود « فإن الحياة معبر إلى الآخرة ، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة ، واللحد هو الركن الثانى على آخرها ، ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومنهم من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها .

وكيفما كان ، فلا بد من العبور ، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها بأصناف الزينة ، وهو يستحث العبور ، فهو في غاية الحمق (٢)

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ١٩٥ دار الكتب العلمية ملح ، وقرح : ملح الطعام : ألقى فيه الملح بقدر الإصلاح وفي الحديث أن الله تعالى ضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلاً وإن ملحه (لسان العرب ٤/٢٥٤) ، وقرح ، من القراح : وهو الماء الذى يشرب إثر الطعام . لسان العرب .

(٢) عدة الصابرين : ص ١٩٤ ،

ثم يشير إلى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى ، فقال « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » (١) .

قال الإمام النووى : أى لا تركز إليها ، ولا تتخذها وطنًا ، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق الغريب به فى غير وطنه ، الذى يريد الذهاب منه إلى أهله » (٢) .

وقال فى فتح المبدى : « عش فى الدنيا كأنك غريب ، قدم بلدًا لا مسكن فيه يأوى إليه خال عن الأهل والعيال .

ثم ترقى عن تشبيهه بذلك فقال : أو عابر سبيل ؛ لأن الغريب قد يسكن فى القرية ، ويقيم فيها بخلاف عابر السبيل ، القاصد للبلد البعيد ، بينه وبينها مفاوز مهلكة ، فإنه لا يقيم فى الطريق » (٣) .

ثم يشير الشاعر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « مالى ، والمدن ما أنا فى الدنيا إلا كراكب ، استظل تحت شجرة ، ثم راح ، وتركها » رواه الترمذى وقال حديث صحيح (٤) .

وقال فى تحفة الأحوذى : أى ليس لى ألفة ، ومحبة مع الدنيا ، ولا للدنيا ألفة ومحبة معى حتى أرغب إليها ، وأنبسط عليها ، وأجمع

(١) صحيح البخارى (١١٠/٨) ؛

(٢) الأربعين النووية للإمام النووى ص ٩٠ .

(٣) فتح المبدى للشرقاوى ، (٣٧٩/٣) .

(٤) تحفة الأحوذى (٤٨/٧) .

ما فيها ولذتها ، ووجه التشبيه سرعة الرحيل ، وقلة المكث ، ومن ثم خص الراكب (١) .

ويقول الإمام ابن القيم : والمرء مسافر فيها إلى الله فاستظل في ظل تلك الشجرة في يوم صائف ، ثم راح وتركها . فتأمل حسن هذا المثال ، ومطابقته للواقع سواء ؛ فإنها في خضرتها كشجرة ، وفي سرعة انقضائها ، وقبضها شيئاً فشيئاً كالظل ، والعبد مسافر إلى ربه ، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها داراً ، ولا يتخذها قراراً ، بل يستظل بها قدر الحاجة ، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق (٢) .

وهو يصف الحالة التي ينبغي أن تكون عليها ، فلا بد أن تكون ملازماً للسفر ، متنقلاً من مكان إلى مكان ، حتى تعود إلى أوطانك سالماً .

كما يتعجب من شأن هذه الدنيا ، ويراهها أمماً تعظ أبناءها بمصارع الطغاة ، ومصائبهم نتيجة لشروهم ، ولكن الأبناء في غفلة عن هذه المواعظ .

فكان الدنيا تسقيهم ، وتسكرهم بكؤوس الحب ، والهوى فإذا سكروا أعقبت هذه الكؤوس بكؤوس أخرى ، وهي كؤوس الموت ، والهلاك ، بينما هم في نومهم مستغرقون !

(١) المرجع السابق .

(٢) عدة الصابرين ، وراجع ما قلناه في جو القصيدة من تعلق ابن القيم بجو الرحلة والسفر .

*والاعجب أن يرى العبد كل هذه المخاطر ثم لا يفريق ، بل يندغمس فيها إلى أذنيه ؛ وذلك بسبب سكرته ونشوته بخمرة حب الدنيا التي تسلب العقول ، وتفسد الأفهام ، وتعمى الأبصار التي في القلوب .

وأعجب من ذلك أن هذه الدنيا تذلل من يبالغ في حبها ، وتكرم وتراعى من يتجنبها ، ويزهد فيها .

وهذا دليل أكيد على خسة قدرها ، وحقارة شأنها حتى إنها لا تساوى جناح بعوضة ، وتلك إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة ماء » (١) ويكفيك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد ضرب مثلاً لهذه الدنيا بالنسبة إلى الدار الآخرة :

« والله ، ما الدنيا في الآخرة ، إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه (وأشار إلى السبابة) في اليم ، فلينظر بم يرجع ؟ ! » (٢) .

ومعنى الحديث - كما يقول الإمام النووي « ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها ، وفناء لذاتها ، ودوام الآخرة ، ودوام لذاتها ونعيمها ، إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصابع إلى باقى البحر » (٣) .

ويقول الإمام ابن القيم ، وهذا أيضاً من أحسن الأمثال فإن الدنيا منقطعة فانية ، والآخرة أبدية لا انقطاع لها ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور (٤) .

(١) رواه الترمذى وقال حديث هذا حديث صحيح غريب (٣٨٣/٣) .

(٢) صحيح مسلم شرح النووي (٧١٢/٥) .

(٣) السابق : (٤) عدة الصابرين ١٩٧/٥ .

فائدة جلية :

يقول الإمام ابن القيم

الدنيا في الحقيقة لا تدم ، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها ، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار . ولكن لما غلبت عليها الشهوات ، والحفظ ، والغفلة فصار هذا هو الغالب على أهلها ، وما فيها ، وهو الغالب على اسمها ، صار لها اسم الذم عند الإطلاق ، وإلا فهي مبنى الآخرة ، ومزرعتها ومنها زاد الجنة ، وما فيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ، ومحبته ، وذكره ابتغاء مرضاته ، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعه فيها ، وكفى بها مدحاً ، وفضلاً لأولياء الله فيها من قرة العيون ، وسرور القلوب ، وبهجة النفوس ولذة الأرواح ، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم بذكره ، ومعرفته ، ومحبته ، وعبادته ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والأنس به والفرح بقربه ، والتبذل له . (١)

وأذكر هنا أبيات لي في هذا الشأن :

ركنت إلى الدنيا فلم تك لي ركناً	أمنت إلى الدنيا ، فلم تعطني الأماناً
ملأت روابيها غناء ، وفـرحـة	بحب بدا مني ، لتملأني حزناً
صدقت لها ودي - وراعت حقها	فلم ترع لي حقاً ، ولم تقض لي ديناً
بثقت لها سرى عساها تصونه	فأفشت - عدواناً - وخيبت الظناً

أُمْنِيَّات

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَّ لَيْلَةً
عَلَى حَدَرٍ مِنْهَا ، وَأَمْرِي مُبْرَمٌ (١٢٩)
وَهَلْ أَرِدُنْ مَاءَ الْحَيَاةِ ، وَأُرْتَوِي
عَلَى ظَمَأٍ مِنْ حَوْضِهِ ، وَهُوَ مُفْعَمٌ (١٣٠)
وَهَلْ تَبْدُونُ أَعْلَامُهَا بَعْدَمَا سَفَتَ
عَلَى رَبِّعِهَا تِلْكَ السَّوَابِي فَتَعْلَمُ (١٣١)
وَهَلْ أَفْرِشُنْ خَدِّي ثَرَى عَتَبَاتِهِمْ
خُضُوعاً لَهُمْ ؛ كَيْمَا يَرْقُّوا ، وَيَرْحَمُوا (١٣٢)

(١٢٩) ألا : أداة تنبيه واستفتاح .

ليت شعري : أسلوب تلتزم العرب فيه حذف خبر ليت باطراء ويلتزمون أن أن يذكروا اسمها ، وأن يكون هذا الاسم هو شعر مضافاً إلى ياء المتكلم ثم تذكر بعده جملة مصدرية باستفهام . وأصلها : ليت شعري حاضرّاً . النحو الوافي (٦٣٥/١١) .
مبرم : محكم من أبرمت العقد إبراهيم أي أحكمته يريد وأمرى غير مشتت وهمي غير موزع .

(١٣٠) أردن : يعنى أبلغ الخوض وأرتوى منه ، والنون هنا نون التوكيد المخففة .

مفعم : ملىء ومزدحم .

(١٣١) سفت : سفت الريح التراب : أذرتة .

ربعها : الربع : هو الدار بعينها .

(١٣٢) ثرى : تراب .

يرقوا : رق الشيء يرق خلافاً غلظ .

وَهَلْ أَرْمِينْ نَفْسِي طَرِيحاً بِيَابِهِمْ
(١٣٣) وَطَيْرُ مَنَايَا الْحَبِّ فَوْقَ ، تُحَسِّمُ

فِيَا أَسْفَى تَفَنَّى الْحَيَاةَ ، وَتَنْقُضِي
(١٣٤) وَذَا الْعَتَبُ بَاقٍ مَا يَقِيمُ ، وَعِشْتُ

فَمَا مِنْكُمْ بُسْدٌ ، وَلَا عَنْكُمْ غِنًى
(١٣٥) وَمَا لِي مِنْ صَبْرٍ فَاسْلُوعَ عَنْكُمْ

وَمَنْ شَاءَ فَلْيَغْضَبْ سِوَاكُمْ ، فَلَا أَذَى
(١٣٦) إِذَا كُنْتُمْ عَنْ عِبَادِكُمْ قَدْ رَضِيتُمْ

وَعُقْبِي اصْطَبَارِي فِي هَوَاكُمُ حَمِيدَةٌ
(١٣٧) وَلَكِنَّهَا عَنْكُمْ عِقَابٌ ، وَمَسَائْتُ

وَمَا أَنَا بِالشَّاكِي لِمَا تَرْتَضُونَهُ
(١٣٨) وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ ، وَأُسَلِّمُ

وَحَسْبِي انْتِسَابِي مِنْ بَعِيدٍ إِلَيْكُمْ
(١٣٩) أَلَا إِنَّهُ حَظٌّ ، عَظِيمٌ ، مُفْعَخَمٌ

(١٣٣) طَرِيحاً : مَلْقَى بِالْأَبْوَابِ ، مِنْ طَرَحَهُ طَرَحاً أَيْ رَيْتَ بِهِ .

الْمَنَايَا : جَمْعُ مَنِيَّةٍ .

تَحْوِمُ : حَامٍ : الطَّائِرُ حَوْلَ الْمَاءِ حَوَانَا دَارَ بِهِ وَفِي الْحَدِيثِ فَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحَمَى يَوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ أَيْ مِنْ قَارِبِ الْمَعَاصِي وَدَنَا مِنْهَا قَرَبَ وَقُوعِهِ فِيهَا (الْمَصْبَاحُ ٢٤٥)

(١٣٤) الْعَتَبُ : اللُّومُ .

(١٣٥) بَدَ : مَفَرٌ ، اسْلُوعَ : أَنْسَى ، وَأَسْلَمْتُ :

(١٣٦) أَذَى : ضَرَرٌ .

(١٣٧) عَقْبِي : عَاقِبَةُ ، اصْطَبَارِي : شِدَّةُ صَبْرِي وَتَحْمَلِي

مَأْتَمٌ : وَقُوعٌ فِي الْإِثْمِ وَهُوَ الذَّنْبُ .

(١٣٩) حَظٌّ مُفْعَخَمٌ : نَصِيبٌ عَظِيمٌ الْقَادِرُ .

إِذَا قِيلَ هَذَا عِبْسُهُمْ وَمُحِبُّهُمْ
تَهَلَّلَ بَشْرًا ، وَجْهُهُ ، يَتَبَسَّمُ (١٤٠)
وَهَا هُوَ قَدْ أَبْسَدَى الضَّرَاعَةُ سَائِلًا
لَكُمْ بِلِسَانِ الْحَالِ ، وَالْقَالَ مُعْلِمُ (١٤١)
أَحْبَتُّهُ ، عَظْفًا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ
لَفِي ظَمَأٌ ، وَالْمُورِدُ الْعَذْبُ أَنْتُمْ (١٤٢)

* * *

-
- (١٤٠) تهلل بَشْرًا : تهلل الوجه من فرحه ، وللبشر : الفرح وطلاقة الوجه .
(١٤١) المضراعة : الذل والخضوع والابتهاال لله سبحانه .
القال : اسم من يقول والمقصود القول وهو يقابل لسان الحال :
معلم : أى دليل .
(١٤٢) المورد العذب : موضع ورود الماء السائغ ، ورود الماء أى بلغه ووافاه
بلغه ووافاه من غير دخول .

الشرح :

يتمنى الشاعر في لوحة ولطفة أن يبيت ولو لمجرد ليلة واحدة ،
يكون آمناً فيها على نفسه من شرور الدنيا وغدرها ، ثم يترق في
أمنيته فيشتهي أن يبلغ ماء الحياة ، ولعله يقصد به هنا الوحي
الذي تتم به حياة القلوب أو ماء الحياة يوم القيامة المذكور في
قوله صلى الله عليه وسلم :

حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج من أراد
من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من كان لا يشرك بالله شيئاً
ممن أراد الله أن يرحمه - وفي الحديث : فيصب عليهم ماء الحياة
فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل» (١) .

والأقرب من هذا أن يقصد الحوض المورد الذي يقف عليه
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويشتاق الشاعر إلى رؤية معالم الأوطان - بلاد الأشواق - بعد
أن طمستها الرياح بالتراب تذروه .

كما يهفو إلى وضع خده على تراب أعتاب المحبوب في مذلة ،
وخضوع عسى أن ينال بذلك رحمته العظمى .

(وهذه كناية عن شدة تذليله إلى الله سبحانه ، فهذا التذلل
لا يجوز إلا لله عز وجل) .

وأخيراً نراه يريد أن يرمى بنفسه على باب الحبيب ، وأن يلتقي بها عند هذا الباب حتى ولو كان الموت يحلق من فوق رأسه .

ويستدرك الشاعر بعد هذه الأمنيات المتلاحقة ، ويلتفت إلى نفسه في أسف وحزن ، وأسى ، إنه يرى الحياة تولى وتصرم (تنقطع) وهو ما يزال يعاني من مرارة البعد ويقول : ليس لي من مفر . . وما أنا في غنى عنكم ، وليس للصبر عنكم من سبيل ، فليغضب كل من يشاء أن يغضب من العالمين ، مادتم أنتم قد رضيتم غنى ، فهل رضيتم حقاً ؟ ! .

ويبين الشاعر هنا أن هناك نوعين من الصبر ؛ صبراً محموداً وهو الصبر في مرضاة الله سبحانه ، والإقامة على حبه وطاعته والصبر المذكور هنا هو من هذا النوع المحمود العاقبة ، أما الصبر الآخر وهو الصبر عن الله - سبحانه - بالبعد عنه ، فإن الشاعر يتبرأ منه ، وجزاؤه العقاب ، والعذاب .

يقول ابن القيم : « الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة والزمها للحبين ، وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة » .

« ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى فحين امتحنهم بالمكاره ، انخلعوا عن حقيقة المحبة ، ولم يثبت منهم إلا الصابرون ، فلولا تحمل المشاق ، وتحشم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم ، وقد تبين لك أن

أعظمهم محبة ، أشدهم صبراً ؛ ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه (١)

ويتحدث الشاعر عن تمام رضائه وتسليمه لكل ما يرضى الله ، وهو يصف لنا هذا الرضى نثراً فيقول

« فالرضى بإلهيته تعالى يتضمن الرضى . بمحبته وحده ، وخوفه ورجائه ، والإنابة إليه ، والتبتل إليه ، وانجذاب قوى الإرادة ، والحب كلها إليه (...) وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له . »

« وأما الرضى بدينه ، فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضى كل الرضى ، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليماً ، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها . »

« وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم ، فإياك أن تستوحش من الاغتراب ، والتفرد (٢) ، فإنه - والله - عين العزة ، والصحبة مع الله ورسوله ، وروح الأنس به ، والرضى به رباً ، وبمحمد رسولا وبالإسلام ديناً . بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب ، وذاق خلوته ، وتنسم روحه قال : اللهم زدنى اغتراباً ووحشة من العالم ، وأتسأ بك (٢) . »

يقول الشاعر ، وإن ما يعيننى على هذا الصبر ، ويساعدنى على

(١) مدارج السالكين (١٦٢/٢) .

(٢) راجع ما قلناه عن سيطرة فكرة الغربة على الشاعر في جو القصيدة .

(٣) مدارج السالكين .

هذا الرضى ، شرف انتسابى إلى الله عز وجل - ويا له من شرف عظيم .. فعندما يقول القائل واصفاً حالى : هذا عبد الله ، وحبيبه فاض منى البشر والفرح .

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه ، وأقربهم إليه ، ووصف أكرم خلقه عليه وأعلاهم عنده منزلة ، بالعبودية فى أشرف* مقاماته فقال تعالى : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده » (١) فذكره بالعبودية فى مقام إنزال الكتاب عليه . وقال :

« وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً (٢) » فذكره بالعبودية فى مقام الدعوة إليه وقال سبحانه : « الذى أسرى بعبده ليلاً . . (٣) » فذكره بالعبودية فى مقام الإسراء (٤) .

وها هو الشاعر يظهر خضوعه ويتوجه بابتهاله لله ، داعياً إياد بلسان الحال والمقال معاً أن يعطف عليه ويرحمه ، فقد طال ظمأه ، وما من سبيل لرد هذا الظمأ القاتل إلا برحمة الله وفضله .

(١) سورة الفرقان الآية (١) .

(٢) سورة الجن (١٩) .

(٣) سورة الإسراء الآية (١) .

(٤) مدارج السالكين (١٠٢/١) .

سَبِيلُ النَّجَاةِ

- فَيَاسَاهِيًا ، فِي غَمْرَةِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى
 صَرِيحَ الْإِمَانِي عَنْ قَرِيبٍ سَتَنَدُمُ (١٤٣)
 أَفِقْ! قَدْ دَنَى الْوَقْتُ الْبَدِي لَيْسَ بَعْدَهُ
 سِوَى جَنَّةٍ ، أَوْ حَرٍّ نَارٍ ، تَضْرَمُ (١٤٤)
 وَبِالسَّنَةِ الْغَرَاءِ كُنْ مُتَمَسِّكًا
 هِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى الَّتِي لَيْسَ تُفْصَمُ (١٤٥)
 تَمَسِّكْ بِهَا مَسْكَ الْبَخِيسِلِ بِمَالِهِ
 وَعَضَّ عَلَيْهَا بِالنَّوْاجِدِ ، تَسْلَمُ (١٤٥)
 وَدَعْ عَنْكَ مَا قَدْ أَحْدَثَ النَّاسُ بَعْدَهَا
 فَمَرَّتِمْ هَاتِيكَ الْحَوَادِثُ ، أَوْخَمُ (١٤٧)

(١٤٣) صريح الأمانى : أى قتيلهما .

(١٤٤) تضرم : تشتعل بشدة .

(١٤٥) الغراء : البضاء ، المطهرة .

العروة الوثقى : الطريقة المثلى والصرائط المستقيم ، وقوله تعالى : (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية ، التى لا تنفصم فهى فى نفسها محكمة ، مبرمة ، قوية ، وربطها قوى شديد « تفسير القرآن العظيم للمجاهد ابن كثير (١/٤٦٠) » طبعة الشعب
 تفصم : تكسر ، وتحل .

(١٤٦) عض عليها بالنواجذ : النواجذ جمع ناجذ ، وهى الضرس الأخير ، وهى كناية عن شدة الملازمة ، والتمسك أو الصبر :

(١٤٧) مرتع : هو موضع الرتوع ، من رتعت الماشية أى رعت كيف شاءت :
 أوخم : يقال للبلد وخيم إذا كان غير موافق فى السكن :

- وَهَئِذَا جَوَابًا عِنْدَمَا تَسْمَعُ النَّدَى
 مِنْ اللَّهِ يَوْمَ الْعَرْشِ: مَاذَا أُجِبْتُمْ (١٤٨)
 بِهِ رُسُلِي لَمَّا أَتَوْكُمْ فَمَنْ يَكُنْ
 أَجَابَ سِوَاهُمْ: سَوْفَ يَخْزَى، وَيَنْدَمُ (١٤٩)
 وَخَذَ مِنْ تَقَى الرَّحْمَنِ أَعْظَمَ جُنَّةً
 لِيَوْمٍ بِهِ تَبْدُو - عَيْنَانَا - جَهَنَّمَ (١٥٠)
 وَيُنْصَبُ ذَاكَ الْجِسْرُ مِنْ فَوْقِ مَتْنِهَا
 فَهَاوٍ ، وَمَخْدُوشٌ ، وَنَاجٍ مُسَلِّمٌ (١٥١)
 وَيَأْتِي إِلَهُ الْعَالَمِينَ لَوَعْبِيدِهِ
 فَيَفْصِلُ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ ، وَيَحْكُمُ (١٥٢)
 وَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ رَبُّكَ حَقَّهُ
 فَيَابُوسَ عَبْدٍ لِلْخَلَائِقِ يَظْلِمُ ! (١٥٣)
 وَيُنْشَرُ دِيوَانُ الْحِسَابِ وَتَوْضَعُ الْ-
 مَوَازِينُ بِالْقِسْطِ الَّذِي لَيْسَ يَظْلِمُ (١٥٤)
 فَلَا مُجْرِمٌ يَخْشَى ظَلَامَةَ ذَرَّةٍ
 وَلَا مُحْسِنٌ مِنْ أَجْرِ ذَاكَ يُهْضَمُ (١٥٥)

(١٤٩) يخزى : يذل ويهون .

(١٥٠) جنة : وقايه ، عَيْنَانَا : أى تبدو للأعين .

(١٥١) متنها : ظهرها . ، هاوٍ : ساقط ، مخدوش : مجروح .

(١٥٣) فيابوس : البؤس : الضر والأسلوب هنا للتحسر أو التوبيخ .

(١٥٤) ينشر : يعرض ، القسط : العدل .

(١٥٥) ظلامه : المظلمة اسماً لما تطالبه عند الظالم

ذرة : واحدة من صغار النمل : ، يهضم : ينقص حقه :

- وَتَشْهَدُ أَعْضَاءُ الْمُسِيءِ بِمَا جَسَسْنِي
 كَذَاكَ عَلَى فِيهِ الْمُهَيِّمُنُ يَخْتِمُ (١٥٦)
 فياليت شعري ! كَيْفَ حَالُكَ عِنْدَمَا
 تَطَايَرُ كُتُبُ الْعَالَمِينَ وَتُقَسَّمُ ؟ (١٥٧)
 أَتَأْخُذُ بِالْيُمْنَى كِتَابَكَ ، أَمْ تَكُنْ
 بِالْآخِرَى (*) وَرَاءَ الظَّهْرِ مِنْكَ تُسَلِّمُ (١٥٨)
 وَتَقْرَأُ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ عَمِلْتَهُ
 فَيُشْرِقُ مِنْكَ الْوَجْهُ ، أَوْ هُوَ يُظْلِمُ (١٥٩)
 تَقُولُ : كِتَابِي فَاقْرَؤْهُ فَإِنَّهُ
 يَبَشِّرُ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ ، وَيُعْلِمُ (١٦٠)
 فَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى فَإِنَّكَ قَائِلٌ :
 أَلَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَهُ فَهُوَ مُغْسِرٌ (١٦١)
 فَبَادِرْ إِذْنِ مَا دَامَ فِي الْعُسْرِ فُسْحَةٌ
 وَعَدْلُكَ مَقْبُولٌ ، وَصِرْفُكَ قِيَمٌ (١٦٢)

(١٥٦) جنى : على قومه جناية أى أذنب ذنباً يواخذ به
 الهين : اسم من أسماء الله تعالى فى معنى المؤمن ، من آمن غيره من الخوف :
 (١٥٧) تطاير : أى تطير الصحف فى الأيدى .
 (١٥٨) تعدل القرطبي : إعطاء الكتاب باليمين دليل النجاة ، لأن اليمين عند العرب
 من دلائل الفرح ، والشمال من دلائل الغم .
 (*) بالآخرى : تقرأ بدون همزة قطع لضرورة الوزن :
 (١٦١) مغرم : من غرم فى تجارته ، خسر .
 (١٦٢) فسحة : سعة . ، عدلك : العدل ، القدية ، ما يفقدى به ،
 صرفك : الصرف : التوبة .

- وَجِدَّ ، وَسَارِعْ ، واغتنم زمن الصِّبا
(١٦٣) فَفِي زَمَنِ الْإِمْكَانِ تَسْعَى ، وَتَغْنَمُ
وَسِيرٌ مُسْرِعًا ، فَالْسَيْلُ خَلْفَكَ مَسْرِعًا (*)
(١٦٤) وَهَيْهَاتَ مَا مِنْهُ مَقَرٌ ، وَمَهْمٌ زَمٌ
فَهِنَّ الْمَنَسِيَا أَيْ وَاذِ نَسْرُتَهُ
(١٦٥) عَلَيَّهَا الْقُدُومُ ، أَوْ عَلَيْكَ سَتَقْدُمُ

* * *

(١٦٤) مقرر : مهرب .

مهزم : ملجأ .

(١٦٥) المنايا : جمع منية وهى الموت :

(*) كذا فى الأصل والتقدير ، يسير مسرعاً .

الشرح :

يا أيها الناسى ، المفرط فى حق الله ، وقد غرقت فى بحار الجهل والهوى ، وذهبت ضحية للأمانى الكاذبة التى لا تسندها الأعمال انتبه ! لقد اقترب الوعد الحق ، وليس وراءه إلا جنة النعيم أو نار الهلاك .

وليس لك من نجاة إلا أن تعتصم بالسنة الشريفة المطهرة سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهى المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وهى العروة الوثقى ، والطريقة المثلى والصراط المستقيم .

ويشير هنا الشاعر إلى الحديث الصحيح الذى رواه أبو داود ، والترمذى عن العرياض بن سارية . قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً ، فإنه من يعش منكم بكم بعدى ، فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » (٢) .

(١) التقدير ، وإن كان عبداً حبشياً بحذف كان واسمها .

(٢) رواه الترمذى وقال حسن صحيح (١٥٠/٤) .

وقال في عون المعبود : وإياكم ومحدثات الأمور : قال الحافظ ابن رجب : فيه تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثّة ، المبتدعة ، وأكد ذلك بقوله : كل بدعة ضلالة ، والمراد بالبدعة ، ما أحدث مما لا أصل له في الشريعة يدل عليه ، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية ، لا الشرعية « (١)

وقد أضاف ابن القيم التشبيه بتمسك البخيل بماله فلا يفرط فيه ، ومدى حرصه عليه حتى إنه لا ينام خوفاً عليه .

ثم يعود الشاعر فينصحك بترك البدع ، ويحذرك من سوء عاقبتها كما يوصيك بالاستعداد من الآن ، للسؤال والحساب يوم العرض الأكبر ، يوم الحشر ، كما يوصيك بإعداد الجواب الذي ينجيك من أهوال هذا اليوم الخطير .

ويشير إلى قوله تعالى :

(ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبت المرسلين) (١)

قال الإمام ابن كثير ، النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربك ؟

(١) عون المعبود (٣٣٠/٤) دار للكتاب العربي :

(٢) سورة القصص : ٦٥ .

ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول ها ها ، لا أدري !

ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

ولهذا قال تعالى : فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون (١)

ثم يرشدك الشاعر إلى ما تبقى به نفسك ، وتتحصن به في هذا اليوم العصيب ، يوم تظهر جهنم للآعين ، دون واسطة أو حجب وهل هناك ما تبقى به نفسك أعظم من تقوى الله عز وجل .

ثم يصف لك أهوال يوم القيامة ، فيذكر الصراط ، ويشير إلى الحديث الذى رواه مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه وفيه : « بضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يُجيز (٢) ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم ، سلم . وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان ، هل رأيتم شوك السَّعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : فإنها مثل شئى السَّعدان غير أنه لا يعلم ما قَدَّرَ عِظَمُهَا إلا الله . تخطف الناس بأعمالهم » (٣) .

وفى رواية : فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق وكالطير ،

(١) سورة القصص الآية : ٦٦ ، ابن كثير (٦ / ٢٦٠) .

(٢) بضم الياء وكسر الجيم معناه أول من يمضى على الصراط ويقطعه .

(٣) صحيح مسلم شرح النووى (١ / ٤٣٠) .

وكأجاويد الخيل والركاب ؛ فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ،
ومكدوس في نار جهنم . . (الحديث ») .

الكلايب : جمع كلوب ، وهو حديدة معقوفة الرأس ، يعاقب
فيها اللحم ، وأما السعدان فهو نبت له شوكة عظيمة من كل الجوانب ،
(فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوش في نار جهنم) .

معناه : أنهم ثلاثة أقسام ؛ قسم يسلم فلا ينال شيء أصلا ،
وقسم يخذش ، ثم يرسل ، فيخلص ، وقسم يكدس ويلقى فيسقط
في جهنم ، ومكدوس ، من تكدست الأشياء أى كانت بعضها على
بعض ، ومنه تكدست الدواب في سيرها إذا ركب بعضها على بعض (١)

ثم يشير إلى قضاء الله بين العباد في هذا اليوم العصيب كما ورد
في تنمة الحديث السابق (حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد) (٢)

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال : لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها حتى تقاد الشاة الجلهاء ، من الشاة
القرنساء (٣) .

قال النووي : الجلهاء هى التى لا قرن لها .

وليس من شرط الحشر والإعادة فى القيامة المجازاة والعقاب

(١) مسلم بشرح النووي (١/٤٣٨) .

(٢) السابق .

(٣) رواه مسلم والترمذى وقال حسن صحيح (تحفة الاحوذى ١٠٤/٧) .

والثواب ؛ أما القصاص من القرناء للجلحاء ، فليس من قصاص التكليف ، بل هو قصاص مقابله (١) .

ثم يشير الشاعر لقوله تعالى :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها . وكفى بنا حاسبين (٢) .

قال ابن كثير : أى ونضع الموازين العدل ، ليوم القيامة والاكثر أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه (٣)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رعوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ يقول لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنةً ، وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة ؟ . ما هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة ،

(١) السابق .

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٤٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٣٩/٥) .

والبطاقة في كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شيء (١) .

وقال في تحفة الأحوذى : (احضر وزنك) أى الوزن الذى لك ، أو وزن عملك ، أو وقت وزنك ، أو آله وزنك ، وهو الميزان ، يظهر لك انتفاء الظلم ، وظهور العدل ، وتحقق الفضل .

(فقال : فإنك لا تظلم) أى لا يقع عليك الظلم .

(فطاشت السجلات) : أى خضعت .

فإن قيل : الأعمال أعراض لا يمكن وزنها وإنما توزن الأجسام ، أجيب بأنه يوزن السجل الذى كتبت فيه الأعمال ، ويختلف باختلاف الأحوال ، أو أن الله يجسم الأفعال ، والأقوال ، فتوزن ، فتثقل الطاعات ، وتطيش (تخف) السيئات ، لثقل العبادة على النفس وخفة المعصية عليها . ولذا ورد « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » (٢) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنه ليأتى الرجل العظيم ، السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرأوا : (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) (٣)

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب ، وقال في تحفة الأحوذى وأخرجه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم ، البيهقى ، وقال الحاكم . صحيح على شرط مسلم (تحفة الأحوذى ٣٩٥/٧) .

(٢) مسلم شرح النووى (٦٨٧/٥) . كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٣) سورة الكهف (١٠٥) . ، مسلم بشرح النووى : (٦٥٢/٥) .

ومعنى لا يزن عند الله جناح بعوضة : أى لا يعدل فى القدر والمنزلة
أى لا قدر له (١) .

* * *

ثم يشير إلى شهادة الأعضاء فى ذلك المشهد العظيم قال تعالى :
« اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما
كانوا يكسبون » (٢) .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ، فقال : هل تدرون مم
أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : من مخاطبة العبد ربه يقول :
يا رب ألم تجرنى من الظلم ، قال : يقول : بلى ، فيقول : فإئز لا أجزى
على نفسى إلا شاهداً منى ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك
شهيداً وبالكرام الكاتمين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ، فيقال
لأركانہ : انطقى ، قال : فتنتطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين
الكلام ، فيقول : بعداً لكنَّ وسُحقاً فعنكن كنت أناضل ، (٣) .

ويذكر تطاير الكتب .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعرض
الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجداول ، ومعاذير

(١) السابق .

(٢) سورة يس (٦٥)

(٣) القرطبي (٤٥٩٢/٩) والحديث صحيح مسلم (١٠٤/١٨) المطبعة المصرية .

وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي ؛ فأخذ بيمينه ،
وأخذ بشماله (١) .

قال تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول : هاؤم اقرءوا
كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية في جنة
عالية ، قطوفها دانية ، كلوا ، واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام
الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله ، فيقول : ياليتني لم أوت
كتابيه ، ولم أدر ما حسابية ، ياليتها كانت القاضية » (٢) .

قال القرطبي : إعطاء الكتاب باليمين دليل النجاة ، (فيقول
هاؤم اقرءوا كتابيه) أى يقول : ذلك ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته ،
لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح ، والشمال من دلائل الغم
ومعنى (هاؤم) : تعالوا ، وقيل إنها كلمة وضعت لإجابة الداعى عند
النشاط والفرح ، والأصل كتابي : فأدخلت الهاء لتبين فتحه الياء (.) .

وأما من أعطى كتابه بالشمال وهذه علامة الشقاء ، والخسران
فيقول إذا رأى قبائح أعماله : ياليتني لم أعط كتابي ، وذلك
لما يحصل له من الخجل والافتضاح ، فيتمنى عندئذ أنه لم يعط
كتاب أعماله ، ويندم أشد الندم ، (٣) .

(١) قال في تحفة الأحوذى (الحديث رواه الترمذى بإسناد منقطع ، وأخرجه البيهقي
في البعث بسند حسن عن عبد الله بن مسعود موقوفاً . أ هـ .

قلت : فيكون للحديث حكم المرفوع لأنه في الغيبيات كما تقرر في علم الحديث .

(٢) سورة الحاقة الآيات (١٩ : ٢٧) .

(٣) تفسير القرطبي (٦٧٤٨ / ١٠) .

وبعد أن نبهك الشاعر إلى خطورة الحساب وشدة الأمر ، بالغ في نصحك بالمسارعة في التزود من الأعمال الصالحة ، قبل أن يأتى يوم لا يقبل فيه عدل ، ولا شفاعة .

قال تعالى : واتقوا يوماً ، لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينصرون (١) .

قال ابن كثير : (واتقوا يوماً) يعنى يوم القيامة (لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) أى لا يغنى أحد عن أحد ، (ولا يؤخذ منها عدل : أى لا يقبل منها فداء ، (. .) كما قال تعالى « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » (٢) .

وفى هذا حث شديد على انتهاز فرصة القبول والتوبة (٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ؛ أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً ، أو هرمًا مفنداً ، أو موتاً مجهزاً . أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر (٤) .

ومن خطبة لأبى بكر رضى الله عنه قال :

ثم أعلموا عباد الله أنكم تغفلون ، وتروحون ، فى أجل قد غيب

(١) سورة البقرة الآية (٤٨) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٤) .

(٣) ابن كثير (١/١٢٦) .

(٤) انظر رياض الصالحين ص ١٢ . والحديث رواه الترمذى عن أبى هريرة وقال :

غريب حسن (٣/٣٧٨) .

عنكم علمه ، فإن استطعتم أن لا تنقضى الآجال إلا وأنتم فى عمل
للّه فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلى بالله . فابقوا فى مهل آجالكم ،
قبل أن تنقضى ، فيردكم إلى أسوأ أعمالكم ، فإن أقواماً جعلوا
آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم .

فالوجاء الوجاء (١) ، النجاء النجاء ، فإن وراءكم طالباً حثيثاً
مره ، سريع (٢) .

(١) الوجاء الوجاء : السرعة السرعة .

(٢) انظر وصية أبى يوسف لهارون الرشيد تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا
دار الاعتصام .

بلاد الأشواق

وَمَا ذَاكَ إِلَّا غَيْرَةٌ أَنْ يَنَالَهَا
 سِوَى كُفَّيْهَا ، وَالرَّبُّ بِالْخَلْقِ أَعْلَمُ (١٦٦)
 وَإِنْ حُجِّبَتْ عَنَّا بِكُلِّ كَرِيمَةٍ
 وَخُفَّتْ بِمَا يُؤْذِي النُّفُوسَ ، وَيُؤْلِمُ (١٦٧)
 فَلَلَهُ مَا فِي حَشْوِهَا مِنْ مَسْرَّةٍ
 وَأَصْنَافٍ لِدَاتِهَا نَتَنَعَّمُ ! (١٦٨)
 وَلِلَّهِ بَرْدُ الْعَيْشِ بَيْنَ خِيَامِهَا
 وَرَوْضَاتِهَا ! وَالتَّغْرِ فِي الرُّوضِ يَبْسُمُ (١٦٩)
 فَلَلَهُ وادِّهَا الَّذِي هُوَ مَوْءِدُ الْوَدَى
 مَزِيدٍ لَوْفِدِ الْحَبِّ ، لَوْ كُنْتَ مِنْهُمْ (١٧٠)
 بِذِيَالِكَ الْوَادِي يَهِيمُ صَبَابَةٌ
 مُحِبٌّ يَرَى أَنَّ الصَّبَابَةَ مَغْنَمُ (١٧١)

-
- (١٦٦) غيرة : الغيور هو الذي يزجر عما يغار عليه ، وغيرته سبحانه عه جنته ، أن يحظى بها من لس أهلها .
 (١٦٧) حُجِّبَتْ ، سترت بالحجب .
 (١٦٨) حَشْوَاهَا : باطنها ، والحشو ما حشوت به الفراش .
 (١٦٩) الثَّغْرِ الْمُبْسَمِ أى التَّم .
 (١٧٠) مَوْءِدُ الْمَزِيدِ : مَوْءِدُ تَضْعِيفِ ثَوَابِ الْأَعْمَالِ وَزِيَادَةِ عَلَى ذَلِكَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّهُ زِيَادَةُ أَعْظَمَ مِنْ جَمِيعِ مَا أَعْطَاهُ .
 (١٧١) يَهِيمُ : أى يَخْرُجُ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ ، الصَّبَابَةُ : ميل القلب .

- ولله أفراحُ المحبين عندهما
 يخاطبُهُم من فوقِهِم ، ويسلِّمُ (١٧٢)
 والله أبصارُ ترى اللهَ جهنَّـرةً
 فلا الضَّيْمُ يَغْشَاهَا ، ولا هي تسأَمُ (١٧٣)
 فيها نظرةٌ ، أهدت إلى القلبِ نظرةً
 أمن بعدها يسلو المُحِبُّ المتيمُّ (١٧٤)
 والله كم من خيرةٍ لو تَبَسَّمتُ
 أضاءَ لها ، نورٌ من الفجرِ أعظمُ (١٧٥)
 فيها لذةُ الأبصارِ إن هي أقبلتُ
 ويا لذةَ الأسماعِ ، حين تكلَّمُ (١٧٦)
 ويا خجلةَ الغُصْنِ الرطيبِ إذا انثنتُ
 ويا خجلةَ البحرَيْنِ ، حين تبسَّمُ (١٧٧)
 فإن كنتِ ذا قلبٍ عليلٍ بحبِّهـما
 فلم يَبْقَ إلا وصلُها ، لك مرهمُ (١٧٨)

- (١٧٢) يخاطبهم : الضمير عائد على لفظ الجلالة وانظر الشرح .
 (١٧٣) الضيم : المشقة ، والنصب ، يغشاها : يصبها .
 المتيم : المنفرد بحبه وشجوه .
 (١٧٥) خير : يقال امرأة خيره بالتشديد والتخفيف أى فاضلة فى الخلق والجمال ،
 وهى هنا بالتخفيف (سكون اتياء) .
 (١٧٧) خجلة الغصن : يعنى يامن تشبهين الغصن الملتف الجميل .
 والحجل : التفاف النبات ، وحسنه (لسان العرب (١١٠٦/٢)
 خجلة البحرين : المقصود بالبحرين المالح والعذب وهذا للتغليب كما تقول الشمسان
 وتعنى الشمس والقمر .
 (١٧٨) عليل : سقيم ، ومريض ، وصلها : قربها ووداعها ولقاؤها .

- ولا سيما في لثَمَها عند ضمِّها
 وقد صار منها تحت جيدك مِعْصَمٌ (١٧٩)
 يراها إذا أبدت له حسنَ وجهِها
 يلدُّ بها قَبْلَ الوصالِ ، وَيَنْعَمُ (١٨٠)
 تَفَكَّهُ مِنْهَا العَيْنُ عند اجتلايها
 فَوَاكِهَ شَتَّى طَلَعُها لَيْسَ يُعْلَمُ (١٨١)
 عناقِدَ من كرمٍ ، وتَفاحَ جَنَّةٍ
 ورمانَ أَغْصَانٍ ، بها القلبُ مُعْرَمُ (١٨٢)
 وللوردِ ما قد أَلْبَسَتْهُ خُصْدُها
 وللخمرِ ما قد ضَمَّه الرِّيقُ ، والفَمُ (١٨٣)
 تقسِّمُ منها الحُسْنَ في جَمْعٍ واحدٍ
 فيا عَجَبًا مِنْ واحدٍ يَتَقَسِّمُ (١٨٤)
 تُذَكِّرُ بِالرَّحْمَنِ مَنْ هُوَ نَاطِلٌ
 بِجَمَلِتها ، أَنَّ السُّلُوَّ مُحَرَّمُ (١٨٥)
 لها فِرْقٌ شَتَّى مِنَ الحُسْنِ أَجْمَعَتْ
 فيَنْطِقُ بِالتَّسْبِيحِ ، لا يَتَلَعَّمُ! (١٨٦)

(١٧٩) لثَمَها : تقبيلها : ، جيدك : عنقك ، معصم : موضع السوار من الساعد .

- (١٨١) تفكَّهُ : تتعجب ، وتتمتع .
 اجتلاؤها : قال في مختار الصحاح : اجتلاها بمعنى نظر إليها . وتجلي الشيء ، تكشف .
 (١٨٥) السلو : طيب نفس الالف عن إلفه ، وسلوت عنه أى صبرت .
 (١٨٦) لا يتلعم : لا يتردد ، ولا يبطن الجواب :

إِذَا قَابِلْتُ جَيْشَ الْهَمَمِ بِوَجْهِهَا
 تَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الْجَيْشُ ، يُهْزَمُ ! (١٨٧)
 وَلَمَّا جَسَرُوا مَاءَ الشَّبَابِ بِغَضْنِهَا
 تَبَيَّنَ حَقًّا أَنَّهُ لَيْسَ يَهْزِمُ * (١٨٨)
 فَيَا خَاطِبَ الْحَسَنَاءِ إِنْ كُنْتَ رَاغِبًا
 فَهَذَا زَمَانُ الْمَهْرِ ، فَهُوَ الْمَقْدَمُ (١٨٩)
 وَكُنْ مَبْغُضًا لِلخَائِنَاتِ لِحُبِّهَا
 فَتَحْظِي بِهَا مِنْ دُونِهِنَّ ، وَتَتَعَسَمُ (١٩٠)
 وَكُنْ أَيْمًا ، مِمَّا سِوَاهَا ، فَإِنَّهَا
 لِمِثْلِكَ فِي جَنَاتِ عَدْنٍ تَأْتِي (١٩١)
 وَصُمْ يَوْمَكَ الْأَذْنَى ، لَعَلَّكَ فِي غَمٍّ
 تَفُوزُ بِعِيدِ الْفِطْرِ ، وَالنَّاسُ صُومُ (١٩٢)
 وَأَقْدَمُ ، وَلَا تَقْنَعْ بِعَيْشٍ مُنْعَصٍ
 فَمَا فَازَ بِاللَّدَاتِ ، مَنْ لَيْسَ يُقْدِمُ (١٩٣)

(١٨٧) تولى على اعقابه : أدبر هارباً .
 (١٨٨) ليس يهزم : لا يكبر ، ولا يضعف ، ولا يشيخ .
 (*) فى الأصل : جاء هذا البيت بعد البيت (١٨٩) وغيرنا فى الترتيب ليستقيم السياق .
 (١٩٠) فتحظى : الحظوة هى الحب ، ورفعة المنزل .
 (١٩١) أيمًا : الأيم : العزب رجلا كان أو امرأة ، سواء تزوج من قبل أو لم يتزوج
 والمقصود هنا الصبر والابتعاد عما يعوق عن الوصول إلى الحور العين ، وليس طلب التأيم
 على الحقيقة .
 (١٩٣) منغص : مكدر ، تنغصت العيشة : تكبدت .
 يقدم : أى يتقدم ، والإقدام : الشجاعة .

وَإِنْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ بِأَسْرِهَا
وَلَمْ يَكُ فِيهَا مَنْزِلٌ لَكَ يُعْلَمُ (١٩٤)

* * *

فَحَى عَلَى جَنَاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا
مَنَازِلُكَ الْأُولَى ، وَفِيهَا الْمَخِيْمُ (١٩٥)
وَلَكِنَّا سَيُّءُ الْعَدُوِّ فَهَلْ نَنبَرِي
نَعُودَ إِلَى أَوْطَانِنَا ، وَنَسْلَمُ (١٩٦)
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْغَرِيبَ إِذَا نَأَى
وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ ، فَهُوَ مُؤَلَّمٌ (١٩٧)
وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غَرْبَتِنَا الَّتِي
لَهَا أَضْحَتْ الْأَعْدَاءُ فِينَا ، تَحَكَّمُ (١٩٨)
وَحَى عَلَى رَوْضَاتِنَا ، وَخِيَامِنَا
وَحَى عَلَى عَيْشِهَا ، لَيْسَ يُسَامُ (١٩٩)
وَحَى عَلَى السُّوقِ الَّذِي فِيهِ يَلْتَقِي الْمَحْبُوبُ ، ذَاكَ السُّوقَ لِلْقَوْمِ يَعْلَمُ * (٢٠٠)

(١٩٥) فحى على : حى على الصلاة : ونحوها دعاء ، وقال ابن قتيبة معناه هلم
إليها (المصباح ٢٤٩) ، المخيم : الإقامة ، سبي : قوم سبي : وصف
بالمصدر ومعناه أسر .

(١٩٦) نأى : بعد ، شطت : الدار أى بعدت ، مؤلم : متألم .

(١٩٨) تحكّم : تتحكم وتتصرف .

(١٩٩) يسام : يمل .

(٢٠٠) انظر الشرح .

* فى الأصل : وحى على السوق الذى يلتقى فيه المحبون ذلك . . . وهى
مضطربة ، والصواب ما أثبتناه .

فما شئت خذ منه ، بـ...لا ثمن له
فقد أسلف التجار فيه ، وأسلموا (٢٠١)

وحى على يـ...وم المسزيد الذى به
زيارة رب العرش ، فاليوم مؤسم (*) (٢٠٢)

وحى على واد هنالك أفىـ...ح
وتربته من أذفر المسك أعظم (**) (٢٠٣)

منابـ...ر من نـ...ور هنالك وفضة
ومن خالص العقيان ، لا تتقسم (٢٠٤)
ومن حولها كثنان مسك مقاعد لمن دونهم ، هذا العطـ...اء المفخم (٢٠٥)
يـ...رون به الرحمن - جل جلاله - كرؤية بدر التم ، لا يتوهم (٢٠٦)
والشمس صحواً ليس من دون أفقها سحاب ، ولا غيم هناك يغيم (***) (٢٠٧)

(٢٠١) أسلف التجار : أى أعجلوا الثمن بعد أن ضبطوا السلعة إلى أجل معلوم ،
واسلموا : بنفس المعنى .

(٢٠٢) مؤسم : سمى بذلك لأنه معلّم يجتمع إليه أهل الجنة .

(٢٠٣) أفىح : فسيح ، واسع ، أذفر المسك : رائحته الطيبة ، مسك أذفرأى جيد .

(٢٠٤) خالص العقيان : الذهب الخالص (مختار الصحاح ٤٤٨) ، لا تتقسم :

لا تنكسر .

(٢٠٥) كثنان المسك ، تلال المسك ، المفخم : العظيم ، لمن دونهم : يعنى

لن هم أقل منهم درجة ، ومنزلة فى الجنة .

(٢٠٦) بدر التم : بدر التمام ، صحو : بلا غيم ، والغيم : السحاب ،

يغيم : يطبق بالسماء .

* فى الأصل زيارة رب العرش حين يكرموا ، والصواب النرواية حادى الأرواح

** رواية حادى الأرواح .

*** لعل الصواب : وكالشمس .

فَبَيْنَا هَمَّ فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ

وَأَرْزَاقَهُمْ تَجْرَى عَلَيْهِمْ ، وَتَقْسَمُ (٢٠٨)

إِذَا هُمْ بَنُورٌ سَاطِعٌ قَدْ بَدَأَ لُحْمٌ

سَلامٌ عَلَيْكُمْ : طِبْتُمْ ، وَنَعَمْتُمْ (٢٠٩)

يَقُولُ : سَلَوْنِي مَا اشْتَهَيْتُمْ فَكُلْ مَا

تَسْرِيذُونَ عِنْدِي ، إِنِّي أَنَا أَرْحَمُ (٢١١)

فَقَالُوا جَمِيعاً : نَحْنُ نَسْأَلُكَ الرَّضَى

فَأَنْتَ الَّذِي تَوَلَّى الْجَمِيلَ ، وَتَرْحَمُ (٢١٢)

فَيُعْطِيهِمْ هَذَا ، وَيَشْهَدُ جَمْعَهُمْ

عَلَيْهِ ، - تَعَالَى اللَّهُ - فَاللَّهُ أَكْرَمُ (٢١٣)

فَبِاللَّهِ مَا عَذِرَ امْرِئٌ هُوَ مُؤْمِنٌ

بِهَذَا ، وَلَا يَسْعَى لَهُ ، وَيَقْدِرُ (٢١٤)

وَلَكِنَّا التَّوْفِيقُ بِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

يَخْصُ بِهِ مَنْ شَاءَ - فَضْلاً - وَيَنْعَمُ (٢١٥)

فِيَا بَائِعاً هَذَا ، يَبِخْسُ مَعْجَلٌ

كَأَنَّكَ لَا تَدْرِي ، بَلَى سَوْفَ تَعْلَمُ (٢١٦)

* * *

(٢٠٩) ساطع : مرتفع .

(٢١٢) تولى : أى تغطى المعروف وتجزل العطاء .

(٢١٥) التوفيق : هو ألا يخلى الله سبحانه بين العبد وبين معاصيه ، وألا يتركه لنفسه

طرفة عين . وعكسه : الخذلان .

(٢١٦) بخس : حقير ، معجل : سريع .

الشرح :

ولما كانت الجنة هي سلعة الله الغالية ، لم يجعلها سبحانه إلا لمن كان أهلاً لها من عباده ، وأهلاً للقائه فيها .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « لا أحد أغير من الله ، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن » (١) .

قال الإمام النووي : العبرة في حقنا الأنفة ، وأما في حق الله تعالى قد فسرنا هنا قوله (وغيره الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله) أى غيرته : منعه ، وتحريمه (٢) .

فمقصود الإمام ابن القيم هنا أن من غيرته سبحانه على جنته النفيسة التى هى جائزته لأوليائه ، ألا يجعلها إلا لمن يستحقها . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات (٣) .

قال الإمام النووي : ووقع في البخارى . حفت ، ووقع أيضاً حجبت وكلاهما صحيح .

(١) والبخارى (١٤٧/٩) ومسلم بشرح النووي (٦٠٤/٥) .

(٢) مسلم شرح النووي (٦٠٤/٥)

(٣) مسلم بشرح النووي (٦٨٧/٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها .

قال العلماء : هذا من بديع الكلام ، وفصيحه ، وجوامعه التي أوتيها صلى الله عليه وسلم من التمثيل الحسن .

ومعناه : لا يوصل الجنة إلا ارتكاب المكاره ، ولا يدخل النار إلا ارتكاب الشهوات ، وكذلك هما محجوبتان بهما ، فمن هنك الحجاب ، وصل إلى المحجوب .

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : لما خلق الله الجنة ، والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها ، وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاءها ، فنظر إليها ، وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها ، فحفت بالمكاره ، فقال ارجع إليها فانظر إليها ، وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال : فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره ، فرجع إليه ، فقال وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد . . الحديث (١)

ويقول الشاعر متعجباً من عظمة النعيم في الجنة :

إن أنواع المذات ، ودواعي السرور في الجنة كثيرة وعظيمة بل هي ممزوجة بها في باطنها كما في ظاهرها .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف الجنة وبنائها :

« لبننة (٢) من فضة ، ولبننة من ذهب ، وملاطها (٣) المسك (٤) »

(١) رواه الترمذی وقال حسن صحيح تحفة الأحوذی (٢٨٠/٧) .

(٢) لبننة : ما يبنى بها ، (٣) ملاطها : ما بين اللبنتين ، (٤) المسك الأذفر : الجيده

الأذفر . وحصباؤها (١) اللؤلؤ ، والياقوت ، وتربتها الزعفران (٢) ،
من يدخلها ينعم ، لا يبأس ، ويخلد لا يموت ، ولا تبلى ثيابهم ،
ولا يفنى شبابهم . (٣)

قال القاضي : ومعناه : أن الجنة دار الثبات ، والقرار ، وأن
التغيير لا يتطرق إليها ، فلا يشوب نعيمها بؤس ، ولا يعترية
فساد (٤) .

ويتعجب الشاعر من عظمة السعادة والسرور وطيب العيش
في الجنة ، والإقامة في خيامها والسير في روضاتها عندما يتلأأ الوجه
ابتساماً في هذه الرياض العذبة .

وفي وصف خيام الجنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن في الجنة لخيمة من درة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً وفي كل
زاوية منها أهل ، لا يرون الآخريين ، يطوف عليهم المؤمن » (٥) .

وفي ذكر رياضها قال تعالى : فأما الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات
فهم في روضة يحبرون » (٦) أى فهم في رياض الجنة ، يسيرون

(١) حصباؤها : أى أن الحصى فيها من اللؤلؤ والياقوت .

(٢) تربتها الزعفران : أى مكان تربتها الزعفران الطيب الرائحة .

(٣) رواه أحمد والدارمي والطبراني في الأوسط وابن حبان في صحيحه انظر
تحفة الأحردى (٢٢٩/٧)

(٤) السابق .

(٥) مسلم بشرح النووي (٦٥٦/٥)

(٦) سورة الروم / ١٥

وينعمون ، وقال تعالى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير» (١)

أى : والمؤمنون الصالحون فى رياض الجنة يتمتعون فى أطيب بقاعها وفى أعلى منازلها ، (لهم ما يشاءون عند ربهم) أى لهم فى الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم (٢) ثم يشير إلى يوم المزيـد ، وقد توسع الشاعر فى الكلام عنه فى كتابه القيم حادى الأرواح (٣)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أتانى جبريل وفى كفه كالمرآة البيضاء يحملها ، فيها — كالنكتة السوداء فقلت : ما هذه التى فى يدك يا جبريل ، قال : هذه الجمعة قلت : وما الجمعة ، قال : لكم فيها خير كثير ، قلت : وما يكون لنا فيها ؟ قال : يكون عيداً لك ، ولقومك من بعدك ، ويكون اليهود ، والنصارى تبعاً لك (٤) قلت : وما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها ساعة لا يسأل الله عبد فيها شيئاً هو له قسم ، إلا أعطاه إياه ، أو ليس بقسم إلا ذخرك فى آخرته ما هو أعظم منه ، قلت : ما هذه النكمة التى فيها ؟ قال : هى الساعة ، ونحن ندعوه يوم المزيـد . قلت : وما ذاك يا جبريل ؟ قال : إن ربك اتخذ فى الجنة وادياً فيه كثنان من مسك أبيض فإذا كان يوم

(١) سورة الشورى : ٢٢ .

(٢) صفوة التفاسير (١٣١١) .

(٣) ص ١٨٤ .

(٤) أى لأنهم اتخذوا السبت والأحد وهما بعد الجمعة .

الجمعة هبط من عليين على كرسيه ، فيحف الكراسى بكراسى من نور ، فيجىء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسى ، ويحف الكراسى بمنابر من نور ومن ذهب مكللة بالجواهر ، ثم يجىء الصديقون ، والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر، ثم ينزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكئبان .

ثم يتجلى لهم - عز وجل - فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى ، وأتممت عليكم نعمتى ، وهذا محل كرامتى فسلونى ، فيسألونه حتى تنتهى رغبتهم » - الحديث (١) .

ويتخيل الشاعر - أو يحاول أن يجعلنا نتخيل - ذلك الوادى الفسيح يسير فيه المحبون هائمين يؤدون حق الغرام والحب والصبابة حيث يكون الغرام ، والحب ، والصبابة كسباً ، وغنيمة ، وفوزاً عظيماً .

وما أشد وأعظم أفراح ومسرات المحبين ، عندما يتكرم المولى سبحانه عليهم ، بالتحية والخطاب .

ثم يصل الشاعر إلى الحديث عن النعمة الكبرى ، واللذة العظمى والزيادة التى ليس وراءها زيادة .

« وهى الغاية التى شمر إليها المشغورون ، وتنافس فيها المتنافسون ،

(١) قال ابن القيم : هذا حديث كبير ، عظيم الشأن ، رواه أئمة السنة ، وتلقوه بالقبول ، وجمل به الشافعى مسنده (حادى الأرواح : ٢١٩) :

وتسابق إليها المتسابقون ، ولثلثها فليعمل العاملون ، إذا نالها أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم (١) .

عن مهيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

إذا دخل أهل الجنة ، الجنة يقول الله . تبارك وتعالى :

تريدون شيئاً أزيدكم ، فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة ، وتنجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم - عز وجل - ثم تلا قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (٢)

وقال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » (٣) : أى : تنظر إلى جلال ربها ، وتهيم في جماله ، فأعظم نعيم لأهل الجنة رؤية المولى - جل جلاله - والنظر إلى وجهه الكريم بلا حجاب .

قال الحسن البصرى : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنظر وهى تنظر إلى الخالق (٤) وقال تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، لا يرهق وجوههم قتر ، ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » (٥) . قال ابن كثير : الزيادة : هى تضعيف ثواب الأعمال

(١) حادى الأرواح : ١٩٦ :

(٢) سورة يونس : ٢٦ :

(٣) سورة القيامة (٢٢ ، ٢٣) :

(٤) صفوة التفسير (١٦٥١)

(٥) سورة يونس : ٢٦ .

بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور ، والحدور ، والرضا عنهم ، وما أخفاه من قرة أعين ، وأفضل من ذلك ، وأعلاه : النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه (١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن ناساً قالوا : لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال فإنكم ترونه كذلك (٢) .

قال النووي : أى : هل تضارون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه ، كما تفعلون أول ليلة من الشهر ، ومعنى المخفف : هل يلحقكم في رؤيته ضمير وهو الضرر ، وفي رواية (تضامون) أى هل يلحقكم مشقة ونصب وقوله صلى الله عليه وسلم (فأياكم ترونه كذلك) معناه تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح ، وزوال الشك ، والمشقة ، والأخلاق (٣) . وأقرب لعبارة ابن القيم في القصيدة ، حديث جرير بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أهل الجنة في نعيمهم ،

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (٤/١٩٨)

(٢) صحيح مسلم (١/٤٢٨)

(٣) مسلم بشرح النووي (١/٤٢٨) وهذه فائدة عظيمة لأن الله تعالى ليس كمثله

شئ ، وهو السميع البصير .

إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم ، فإذا الرب تعالى قد اطلع عليهم فوقهم فقال : « السلام عليكم يا أهل الجنة » فذلك قوله : « سلام قولاً من رب رحيم » (١) . فينظر إليهم ، وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، فيبقى نوره ، وبركاته عليهم ، في ديارهم قال القرطبي : ومعناه ثابت في صحيح مسلم (٢) .

ثم يتحدث الشاعر عن الحور العين .

قال تعالى : « فيهن خيرات حسان » (٣) .

خيرات : جمع خيرة ، وهي المرأة الصالحة ، الحسنة الخلق ، الحسنة الوجه ، قاله الجمهور (٤) . وقال في حادي الأرواح : عن عبد الله بن مسعود قال : لكل مسلم خيرة ، ولكل خيرة خيمه ، ولكل خيمة أربعة أبواب ، يدخل عليها في كل يوم ، من كل باب تحفة ، وهدية وكرامة ، لم تكن قبل ذلك ، لاترحات (٥) ، ولا ذفرات ، ولا نجرات ، ولا طماحات . وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يسطع نور في الجنة ، فرفعوا رءوسهم فإذا هو من ثغر حوراء ضحككت في وجه زوجها (٦) .

(١) سورة يس : ٥٨ .

(٢) تفسير القرطبي : (٥٤٨٩/٩) وانظر روايته وإسنادها في حادي الأرواح ٢٢٣ .

(٣) سورة الرحمن (٧٠) .

(٤) ابن كثير (٤٨٢/٧) .

(٥) ترحات : من الترح وهو الحزن ، طماحات : المرأة الطماحة التي تكره بنظرها يميناً وشمالاً إلى غير زوجها ، ذفرات ، نجرات : متغيرات الرائحة

(٦) حادي الأرواح ١٦٢ .

وقد خصص الإمام ابن القيم باباً في ذكر سماع الجنة ، وغناء
الحدور العين ، وما فيه من الطرب واللذة . صدره بقوله تعالى :
« فهم في روضة يحبرون » وقال : الحبرة : اللذة والسماع (١) .

وعن ابن عمر رضي الله عنه . عن النبي صلى الله عليه وسلم :
[إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها قط ،
إن مما يغنين : نحن الخيرات الحسان ، أزواج قوم كرام ، ينظرن
بقرة أعيان . وإن مما يغنين به ، نحن الخالدات فلا يمتنه ، نحن
الآمنات فلا تخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنهن (١) .

والشاعر يتعجب من حسن قدها الذي يشبه الغصن الرطيب الملتف
الجميل ، وأما حين تبتسم فإنها تذكر بثرأ البحرين وتدفقهما
بالخير والجمال (ولعله يعنى وصف الخدين) .

فإذا كان قلبك قد أحس تباريح الشوق إليها ، وعانى آلام
التعلق بها ؛ فليس ثم إلا علاج واحد ، وهو القرب منها في جنات
النعم . ويلج الشاعر على شدة التشويق إليها بذكر لذة الوصال في
تقبيلها ، والتنعم بحسنها ، وجمالها .

وقد خصص باباً - في كتاب حادى الأرواح - « في ذكر نكاح
أهل الجنة ، ووطئهم ، واللذائهم بذلك أكمل لذة ، ونزاهة ذلك
عن المذى ، والمنى ، والضعف ، وأنه لا يوجب غسلاً » .

(١) حادى الأرواح (١٧٣ - ١٧٧) .

(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر وإسناده صحيح ، انظر صحيح الجامع
الصغير للألباني :

وأورد في هذا الباب الكثير من الأحاديث نذكر منها حديث لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله علام يطلع من الجنة ، قال : أنهار من غسل مصفى ، وأنهار من كنَّس ما بها صداع ولا ندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إهلك مما تعلمون ، وخير ، وأزواج مطهرة ، قلت : يا رسول الله : أولنا فيها أزواج مصدحات ؟ قال : الصالحات للصالحين ، تلذذوا بهن مثل لذاتكم في الدنيا ، وتلذذكم غير ألا توالد .

وعن عكرمة ، في تفسير قوله تعالى : « إن أصحاب الجنة في شغل فاكهون » (١) قال : شغلهم افتضاض العذارى (٢) .

وقد بلغ جمال وجهها حداً يبعث معه في النفس لذة ونعيمًا حتى من قبل الوصال والقرب .

وإن العين لتطالع عند ظهورها ، والتأمل فيها أنواعاً من المسرات وكأنها الفواكه الدائمة الشهية ، التي لا تنتهى ولا تنقطع ، ثم يعدد - في لذة - هذه الفواكه المشتهاة ، التي يحكيها حسن وجهها من عناقيد العنب ، وتفاح الجنة ، والرمان ، وأشياء أخرى لا يزال الفؤاد يعانى من شدة الشوق إليها ، فخدودها جميلة حمراء ناضرة كأنها الورد ، وريقها عذب رائق كأنه الخمر وحسنها متعدد ساحر ، إنه متعدد نعم ولكن في تناسق ونظام ، فجمع بهذا بين التعدد ،

(١) سورة (يس : ٥٥) :

(٢) حادى الأرواح (١٦٤) .

والتنوع ، وبين التناسق والتناغم ، وما أعجب أن يتعدد الشيء
ويجتمع في آن ! والناظر إليها يوقن أنه لا مجال للصبر عنها بعد
ذلك ، أو التلهي عنها بسواها ، وذلك بعد أن يذوق ، ويرى من
حسنها ما يفوق الوصف ، ويسمو على الخيال .

وأن لها أنواعاً متعددة من الحسن تذكر من يراها بقدرة الله
الباريء فلا يملك نفسه من التسبيح .

وبإقبالها تقبل السعادة ، وتفر جيوش الهموم ، والأحزان ناكسة
على أعقابها ، في خزي وانهمام .

ثم ينادى الراغب في هذا الحسن والنعيم ، ويشوقه ، ويحثه
مبيناً له سبيل التقدم ، بدفع المهر .

ولا يزال يشوقه بوصف جمالها ، حيث ينبض قدها ، بالشباب
والحياة والخصومة ، إنه شباب باقٍ دائم لا يفنى .

* * *

وهو يحذره من الخائنات ، قائلاً له : وابغضهن لتحظى ، وتظفر ،
بحسناء الجنة ، وتأمين شرور هاتيك الخائنات .

إن هذه الحسناء ، تنتظرك في الجنة ، وتتهياً لك ، وتستعد
لاستقبالك ، فكن لها بقلبك . كما هي لك ، أعد مهرها ، وتقدم إليها
وكن بمنزلة الأيم العذب ، مصطبراً في انتظار الزواج منها ، وابته
عن كل ما يعوقك في طريق الوصول إليها .

وإنما قلت - بمنزل الأيم - لأنه لا يدعو إلى التأييم والرهينة على الحقيقة، وإنما أن يكون الرجل متزوجا ولكن أعماله وأشواقه وتعلقه بالحدور العين في الجنة ، كأعمال وأشواق وتعلق العزب الذى لم يتزوج بعد فهو في غاية الشوق ، واللهفة .

وكن كذلك ، في انتظارها بمنزلة الصائم ، الذى يصبر ، ويحبس نفسه عما يشتهى فترة قليلة يعقبها الفوز بالجائزة العظيمة ، في عيد الفطر ، فإنك بصومك هذا القليل سوف تحظى بعيد فطر آخر ، وذلك في الجنة فتتعم بينما سواك ممن استعجلوا حظوظهم في الدنيا واستعجلوا الفطر ، يعانون من صيام ومشقة وعذاب ، وفي هذا يقول الإمام أحمد رحمه الله . ألا رجل يصبر ساعة ! .

اللهم اجعلنا من الصابرين الذين يفوزون هذا الفوز العظيم .

ثم يعود إلى النصيح والإرشاد قائلا :

فسارع ، وتقدم ، ولا تقنع ، وترضى بهذا العيش المزوج بالأكدار ، فليس جديرا بحصول المقامات العالية ، إلا الشجاع المقدام ، الجسور ، الذى لا يبالي بالعقبات ، والمخاطر في سبيل الوصول . فإذا شعرت ، وأدركت أن الدنيا قد ضاقت عليك بما رحبت ، وأن أشأتك أعلى وأسمى من حدودها الضيقة ، وأحسست بحقيقة اغترابك فيها ، فعليك بجنات عدن التى عاش فيها أبوك من قبل في أيامه الأولى سعيداً ، منعماً حتى جاءه عدوه الشيطان فأخرجه منها ، فأصبح هو وأبناؤه - وأنت منهم - بمنزلة الأسرى

فلا سعادة لك في هذا الأسر الذليل بل هو البلاء والشقاء المخيم على
الرؤوس ، والقلوب .

إنهم يقولون : إن الغريب لا يهدأ له بال ، ولا يستقر له قرار
إذا نزح عن بلاده وطرد منها . فهل هناك اغتراب أشد من غربتنا
هذه بين أعداء يتصرفون في أمور معيشتنا وخصائص شؤوننا كيف
شاءوا .

فهلهم إلى بلاد الأشواق ، فتنعم في رياضها ، وبين خيامها
حيث النعيم المقيم ، المتجدد الذى لا يُمل ولا ينفد ، قال تعالى :
« وبشر الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، أن لهم جنات تجرى
من تحتها ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً ، قالوا : هذا الذى رزقنا
من قبل ، وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها
خالدون. (١)

أى : وبشر المؤمنين المتقين الذين كانوا فى الدنيا محسنين ،
بأن لهم حدائق وبساتين ، ذات أشجار ، ومساكن تجرى من تحت
قصورها ، أنهار الجنة ، وكلما أعطوا عطاءً ، ورزقوا رزقاً من ثمار
الجنة ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، أى هذا مثل الطعام الذى
م إلينا قبل هذه المرة .

قال المفسرون : إن أهل الجنة يرزقون من ثمارها ، تأتيهم به
الملائكة ، فإذا قدم لهم مرة ثانية قالوا : هذا الذى آتيتمونا به من

قبل ، فتقول الملائكة : كل يا عبد الله ، فاللون واحد ، والطعم مختلف» (١)

ويشير إلى سوق الجنة :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن في الجنة لسوقاً ، يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال ، فتحثو في وجوههم ، وثيابهم ، فيزدادون حسناً ، وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم ، وقد ازدادوا حسناً ، وجمالاً ، فيقول لهم أهلهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً ، وجمالاً (٢) .

وقال الإمام النووي : المراد بالسوق : مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق ، ومعنى يأتونها كل جمعة أى في مقدار كل جمعة من أسبوع ، فخذ مما تبتغى من هذا السوق بلا دفع ثمن ، لأنك قد دفعت الثمن مقدماً ، وهذا أوان الاستلام .

ثم يعود فيذكر يوم المزيد ، ولكن في سياق جديد ، هو سياق التشويق ، والحث على النجاة ، من ضيق الدنيا إلى سعة الجنات ، وما فيها من مشاهد النعيم .

عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن

(١) صفوة التفسير (٤٣/١) قلت : فيجمعون بذلك بين لذة الطعام ، وروعة المفاجأة !

(٢) مسلم بشرح النووي (٦٩٢/٥) .

الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة : فيقولون : لبيك وسعديك ،
والخير في يديك ، فيقول ، هل رضيتم ، فيقولون : وما لنا لا نرضى
بإرب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم
أفضل من ذلك : فيقولون : يارب ، وأى شيء أفضل من ذلك ؟
فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم أبداً » (١) .

قال في دليل الفالحين : لبيك ربنا وسعديك : أى إجابة
بعد إجابة للتكثير ، والتعدد ، وقال الطيبي : الحديث مأخوذ
من قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين ، والمؤمنات ، جنات تجري من
تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ومساكن طيبة ، فى جنات عدن ،
ورضوان من الله أكبر » (٢) .

وقال الحافظ :

فيه تلميح بقوله تعالى : « ورضوان من الله أكبر » . لأن رضاه
سبب كل فوز وسعادة .

وكل من علم أن سيده راض عنه . كان أقر لعينه وأطيب لقلبه
من كل نعيم لما فى ذلك من التعظيم والتكريم (٣) .

وللحديث روايات أخرى أقرب إلى صياغة الشاعر أوردها فى
كتابه حادى الأرواح (صفحة ٢٢٠) .

(١) صحيح مسلم (٥/٦٩٠) ، تحفة الأحوذى (٧/٢٧١)

(٢) سورة التوبة : ٧٢ .

(٣) تحفة الأحوذى (٧/٢٧١) .

والآن أى عذر لمن يصدق ويوقن بكل ما تقدم ثم لا يسارع
ويجاهر ويتقدم ! .

حقاً إن التوفيق والعصمة من عند الله سبحانه يتفضل بهما على
من يشاء من عباده الصالحين .

فيا أيها الخاسر المغبون :

تبيع وتفترط في سلعة الله الغالية متمايل أن تحصل على السلعة
الدنيا الحقيرة .

ألا تدري ما تجلبه على نفسك من خسران ؟ .

ألا تشعر بسوء ما تفعل ؟ .

أم تتجاهل وتتعامى ؟ !

وعلى كل . فسوف تدري فيما بعيد . .

وسوف تعلم تمام العلم .

نهاية المطاف

فَقَدِّمْ - فِدَتِكَ النَّفْسَ - نَفْسَكَ ، إِنَّهَا

هِيَ الثَّمَنُ الْمُبْدُولُ حِينَ تَسْلَمُ (٢١٧)

وَحُضْ غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَارْقَ مَعًا رَجَّ الْـ

مَجْبِيَّةٍ فِي رَوْضَاتِهِمْ ، تَتَنَسَّمُ (٢١٨)

وَسَلِّمْ لِمَا عَاقَدُوكَ عَلَيْهِ

تُرَدُّ مِنْهُمْ أَنْ يَبْذُلُوا ، وَيَسْلَمُوا (٢١٩)

فَمَا ظَفَرْتَ بِالْوَصْلِ نَفْسَ مَهِينَةٍ

وَلَا فَسَازَ عَبْدٌ بِالْبَطَالَةِ يَنْعَمُ (٢٢٠)

* * *

وَأَنْ تَكْ قَدْ عَاقَتَكَ « سَعْدَى » فَقَلْبِكَ الْـ

مُعَسَّنَى رَهْسِينَ فِي يَدَيْهَا مُسَلِّمٌ (٢٢١)

وَقَدْ سَاعَدْتَ بِالْوَصْلِ غَيْرَكَ فَالْهُوَى لَهَا مِنْكَ ، وَالْوَأَشَى بِهَا يَتَنَعَّمُ (٢٢٢)

فَدَعَّهَا ، وَسَلَّ النَّفْسَ عَنْهَا بِجَنَسَةٍ مِنَ الْعِلْمِ ، فِي رَوْضَاتِهَا الْحَقُّ يُبَسِّمُ (٢٢٣)

(٢١٨) خَضَّ : اقْتَحَمَ ، غَمَرَاتِ الْمَوْتِ : شِدَائِدُهُ :

مَعَارِجُ الْحَيَةِ : الْمَعْرَاجُ : السَّلَامُ ، وَمِنْهُ لَيْلَةُ الْمَعْرَاجِ ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا دَرَجَاتُ

الْحَيَةِ وَمَقَامَاتُهَا . ، تَتَنَسَّمُ : تَعْلُو ، وَتَرْتَفِعُ .

(٢١٩) بِمَا قَدَّوْكَ : عَاهَدُوكَ عَلَيْهِ .

(٢٢٠) ظَفَرْتَ : فَازْتَ ، الْوَصْلُ : الْقَرَبُ ، مَهِينَةٌ : ذَلِيلَةٌ :

الْبَطَالَةُ : الْجَهَالَةُ وَاللَّهُوَى (لِسَانُ الْعَرَبِ ٣٠٢/١) ، يَنْعَمُ : يَتَمَتَّعُ

(٢٢٣) سَلَّ النَّفْسَ : صَبَرَهَا .

وَقَدْ ذَلَّلْتُ فِيهَا الْقُطُوفُ فَمَنْ يُرِدْ جَنَاهَا يَنْلَهُ، كَيْفَ شَاءَ وَيَطْعَمُ (٢٢٤)
 وَقَدْ فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَتَزَيَّنَتْ لِحِطَّابِهَا، فَالْحُسْنُ فِيهَا مُقَسَّمٌ (٢٢٥)
 وَقَدْ طَابَ مِنْهَا نُزْلُهَا ، وَنَزِيلُهَا فَطُوبَى لِمَنْ حَلَّوْا بِهَا وَتَنَعَّمُوا (٢٢٦)
 أَقَامَ عَلَى أَبْوَابِهَا دَاعِيَ الْهَدَى هَلُمُّوا إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ تَغْنَمُوا (٢٢٧)
 وَقَدْ غَرَسَ الرَّحْمَنُ فِيهَا غِرَاسَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَالرَّحْمَنُ بِالْخَلْقِ أَعْلَمُ (٢٢٨)
 وَمَنْ يَغْرِسِ الرَّحْمَنُ فِيهَا فَإِنَّسَهُ سَعِيدٌ ، وَإِلَّا فَالشَّقَاءُ مُحْتَمٌ (٢٢٩)

* * *

والآن وقد شارفت الرحلة على الانتهاء . وآن للشاعر أن يتركنا لنبدأ الرحلة من جديد . وقد عرفنا معالمها . وما تطلبه الرحلة من مطالب وآن لنا أن نبدأ السير بأقدامنا بعد أن طوفنا مع الشاعر بخيالنا وأحلامنا ؛ فإن الشاعر لا يتركنا قبل أن يودعنا وأن يقدم لنا النصيحة الأخيرة ، في نهاية المطاف .

(٢٢٤) ذلت قطوفها : أى سويت عناقيدها ، ودليت (مختار الصحاح)
 جناها : حصاها .

(٢٢٥) مقسم : موزع كل حسب نصيبه .

(٢٢٦) طاب : جهز واستوى ، نزلها : ما يقدم للضيف فيها ، نزيلها : ضيفها ، طوبى : اسم شجرة فى الجنة ، ويقال طوبى لك وطوباك وعاء من الطيب (مختار الصحاح) ، حلوا : أقاموا .

(٢٢٧) هلموا : أقبلوا .

(٢٢٨) غرس : هو غرس الشجر ، غراسه : الغراس هو فسيل النخل لـ .

(٢٢٩) محتم : لازم .

(*) المعنى أقام الله على أبوابها داعى الهدى . فتعرب « داعى » مفعول به منصوب بفتحة ظاهرة . وبهذا يستقيم وزن البيت .

وهو يقدم لنا هذه النصيحة في أسلوب عذب جميل مؤثر عميق
هو أسلوب الإغراء والتحذير .

الإغراء بالتقدم وتقديم النفس ثمناً مبدولاً ؛ فداء وتضحية .
حباً وشوقاً .

واقترحام سكرات الموت وشدائده . فالموت في سبيل الله هو باب
السعادة وباقترحامه تبدأ في الصعود وارتقاء سلم المحبة . . حتى تصل
إلى أعلى الغايات . . وتنعم بنسيم الرضا .

إنها صفقة ويالها من صفقة ، إنها صفقة النجاة والفوز العظيم . .

فهيا سلّم واستلم بحسب العقد القرآني الشريف :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب
أليم * تؤمنون الله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم
ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات
تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز
العظيم » (الصف : ١٠ - ١٢) .

ولابد لكي تظفر وتفوز أن تكون ذا نفس شريفة وهمة عالية
لا ترضى إلا بما هو أسمى . أما أهل البطالة والكسل فقد قعدت بهم
أنفسهم المهينة وهمهم القعساء .

واحذر الأمانى الباطلة . . والأحلام الكاذبة (كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ؛ والله سريع الحساب) (النور : ٣٩) .

وأخسُّ الناس همّةً ، وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة واستجلبها لنفسه ، وتحلى بها ، وهى لعمر الله رعوس أموال الفلّسين ، ومتاجر البطالين ، وهى قوت النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أمانى من سَعدى روائٍ على الظمى سقتنا بها سَعدى على ظماء بردا
مُنَى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغدا (١)

وهى أضر شئ على الإنسان ، ويتولد منها العجز والكسل ، وتولد التفریط والحسرة والندامة . والتمنى لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها فى قلبه ، وعانقها وضمها إليه ، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يجدى عليه شيئاً ، وإنما مثله ، مثل الجائع والظمان يصور فى وهمه صورة الطعام والشراب ، وهو لا يأكل ولا يشرب والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها وإنما شرف النفس وزكاؤها وطهارتها وعلوها بأن ينفس عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا يرضى أن يخطر بها بباله ويأنف لنفسه منها (٢) .

(١) فى الأصل : منى إن تكن أحسن المنى . . . والصواب ما أثبتناه .

(٢) الجواب الكافى عن سؤال عن الدواء الشافى لابن القيم ص ١٦٥ - ١٦٦

لقد عرفت الآن سعدى وأدركت مصير ضحاياها فاحذرها
أشد الحذر . وإن تكن قد عملت على تعطيلك عن الرحلة زمناً وأوقعت
قابلك المسكين أسيراً فى حوزتها وقبضتها وراحت تعمل على التلاعب
بك وإهانتك بمناسبة وغير مناسبة .

إنها ترى منك المبالغة فى التقرب منها والتودد إليها . ولكنها
لا تعبأ بك بل وتبالغ فى إهانتك بالتودد إلى عدوك الواشى الساعى
بالوقعة بينك وبينها . فأى هوان وأى مذلة ! اتركها واهملها .
وهل تستحق منك إلا الترك والإهمال ، اتركها وتصر عنها بالجنة
والسعى إلى الجنة وإلى روضات الجنة التى يتبسم فيها الحق مشرقاً وتدنو
فيها القطوف ويسهل حصادها للراغبين .

لقد تزينت الجنات من أجلك وفتحت لك أبوابها إن كنت من
راغبىها وخطأ بها . فهل أنت من راغبىها وخطأها ؟ ! إن كل شئ
فى الجنة طيب . فطوبى لمن استقروا فيها وظفروا بنعيمها .

هيا تقدم . فهذا داعى الهدى . قد أقامه الله على أبوابها ينادى
هلموا إلى دار السعادة . حتى تظفروا بالسعادة الخالصة .

وإياك أن تكون من الأشقياء . وجاهد أن تكون من السعداء الذين
يستحقون أن يكونوا أهل الجنة ؛ فإن كنت منهم فإنك أنت السعيد .
وإلا . . . فليس أمامك سوى الشقاء الملازم . . المحتم .

قال تعالى : ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم
فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .

ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك
لا تخلف الميعاد . (آل عمران (١٩٢) .

الخاتمة

وفي الختام نسترجع معاً أهم معالم الرحلة . . وأغراضها ومقاصدها

١ - الميمنية للإمام ابن القيم والتي أسمىناها « الرحلة إلى بلاد الأشواق » ليست مجرد منظومة دينية وإنما هي قصيدة فنية عالية المستوى . . إنها قصيدة أشواق ومشاعر . . غنية بالصور والظلال . . ذائخة بالأخيلة الجميلة والمشاهد الرائعة وهي فوق ذلك عامرة بالاببعاد النفسية والتجارب الإنسانية .

٢ - لقد خسر تاريخ الأدب العربي خسارة كبيرة بجهله لهذه القصيدة .

٣ - وأسباب هذا الجهل والتجاهل كثيرة . . . أهمها عوامل الانحراف التي أفسدت هذا التاريخ من ممتاييس باطلة وموازين فاسدة .

٤ - إن تاريخ الأدب العربي في حاجة ماسة إلى كتابته من جديد على أسس سليمة . . وقيم سامية .

٥ - لم يعرف تاريخ الأدب من شعر الذهب إلا نماذج منحرفة منه وغريبة على المفهوم الإنساني كزهد أبي العتاهية مثلاً .

٦ - لقد فتح أبوابه للمديح الكاذب واللغو الماجن . . وأغفل القيمة الإنسانية . . ولم يحفل بأشواق الإنسان وتجاربه أدبياً أو قارئاً . وهذا بسبب العوامل التي أشرنا إليها . .

٧ - لا يمكن لهذه التربة الفاسدة - تاريخ الأدب العربي - أن

تعترف بشاعر وجد نفسه ووعى ذاته — واعتز بكرامة عقله ، وفكره
ولسانه ، وأشواقه ، وتجاربه .

٧ — الرحلة إلى بلاد الأشواق . . تعتبر تمثيلاً صادقاً واستجابة
حقيقية لدعوة الأستاذ « سيد قطب » بأن يستفيد الأدب من طريقة
القرآن الاساسية — وهو كتاب العرب الأول — ألا وهي طريقة التصوير
والظلال ؛ للارتفاع بالأدب إلى آفاق رفيعة .

٩ — القصيدة صورة معبرة عن تجربة الشاعر ومعاناته وشعوره
بالغربة والاعتراب ، ثم تعلقه واشتياقه إلى الخلاص المتمثل في بلاد
الأفراح والأشواق ، ثم عزمه على الرحلة والسفر في محبه ولطفه والتباعد .
١٠ — الشاعر يمتلك طاقة فنية هائلة . . وهو يحشد كلها جميعاً
لتمجيد عاطفته ونقل تجربته .

١١ — الأسلوب جاء معبراً عن التجربة والمعاناة . . ومصدراً
للعاطفة يثير لدى القارئ شعوراً قريباً من شعور الشاعر في تجربته .

١٢ — الشاعر يعتمد على بعض الصور القرآنية والحديثية
فينطلق بهما إلى آفاق فنية سامية دون الوقوع في النقل المباشر .

١٣ — حتى في أغراض الزهد يلجأ الشاعر إلى طريقتيه المحببة
الأثيرة : التصوير والظلال .

١٤ — العلاقة بين الشاعر والطبيعة في القصيدة هي علاقة
الصدقة والألفة القوية التي تصل إلى حد الامتزاج والتوحد .

١٥ - الإمام ابن القيم هو رائد طريقة التصوير والظلال على المستوى النظرى والمستوى التطبيقى . وإذا كان عبد القاهر الحرجاني قد كان النبع منه على ضربه معول . فلم يضربها فإن ابن القيم أدرك النبع وضرب المعول فى ثقة ويقين واقتدار حتى أخرج لنا منه الماء الزلال .

١٦ - ابن القيم التفت إلى الوظيفة الصوتية وتنبه إلى العلاقة العجيبة بين الألفاظ ومعانيها .

١٧ - مجالات الريادة عند ابن القيم متعددة ؛ فهو أول من أدرك الوحدة العضوية للسورة القرآنية ، وتكامل سور القرآن وارتباط أجزائها بعضها إلى بعض ضمن إطار عام يمثل الهدف الأساسى الذى تتجه السورة إلى خدمته . . بحيث تكون كل آية فيها تمثل لبنة من اللبنة المتممة لبناء صرح وطيد الأركان (١) .

وقبل أن نفترق أسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذه الرحلة وأن يوفقنا فى رحلتنا إليه وأن يجعل خاتمتنا على الخير .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . . .

مصطفى عراقي

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الخميس : ١٥ ذى الحجة ١٤٠٣ هجرية .

٢٢ سبتمبر ١٩٨٣ .

الفهارس

- ١ - فهرس الآيات القرآنية .
- ٢ - فهرس المراجع .
- ٣ - فهرس الموضوعات .

فهرس آيات القرآن

الصفحة

- ١٠٥ إياك نعبد وإياك نستعين . . (الفاتحة - ٥)
- ١٦١ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً . . . (البقرة - ١٧)
- ١٦٢ أو كصيب من السماء (البقرة - ١٩)
- ٢٦٧ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات . . (البقرة - ٢٥)
- ١٦٦ وإذا استسقى موسى لقوم . . . (البقرة - ٦٠)
- ٢٤٦ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . . . (البقرة - ٤٨)
- ٢٤٦ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد . . . (البقرة - ٢٥٦)
- ٢٣٢ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم . . . (البقرة - ٢٥٤)
- ٢٧٨ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان . . . الآيات (آل عمران - ١٩٢ : ١٩٤)
- ٢٦٩ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات (التوبة - ٧٢)
- ٢٦٩ للذين أحسنوا الحسنى (يونس - ٢٦)
- ٨٤ ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعاً . . . (يونس - ٦٥)
- ٢١٠ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم . . . (هود - ٣٤)
- ١٦٥ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها . . . (الرعد - ١٧)
- ٦٧ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد . . . (النحل - ٢٦)
- ٨ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها . . . (النحل - ٩٢)
- ٢٣١ سبحانه الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام . . . (الإسراء : ١)
- ٢٦٣ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه . . . (الكهف - ١٠٥)
- ١٨٥ وعنت الوجوه للحى القيوم . . . (طه - ١١١)
- ٢٤١ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة . . . (الأنبياء - ٤٧)
- ١٥٧ الله نور السموات والأرض . . . (النور - ٣٥)
- والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة . . . (النور - ٣٩)

الصفحة

- ٢٣١ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده . . . (الفرقان — ١)
- ٢٣٨ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين . . . (القصص ٦٥ ، ٦٦)
- ٢٥٦ فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم فى روضة يجبرون . . . (الروم)
- ٥٠ قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون . . . (يس — ٢٦)
- ٢٦٣ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . . . (يس — ٥٥)
- ٢٦١ سلام قولاً من رب رحيم . . . (يس — ٥٨)
- ٢٤٦ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم . . . (يس — ٦٥)
- ١١٤ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً . . . (الشورى — ١١)
- ٢٥٧ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا . . . (الشورى — ٢٢)
- ١٦٠ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . . . (الشورى — ٥٢)
- ٣٦ فيهن خيرات حسان . . . (الرحمن — ٧٠)
- ٢٧٥ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة . . . (الصف — ١٠)
- ٢٤٦ فأما من أوتى كتابه بيمينه . . . (الحاقة — ١٩)
- ٢٣١ وأنه لما قام عبد الله يدعوه . . . (الجن — ١٩)
- ٢٥٩ وجوه يومئذ ناضرة . . . (القيامة — ٢٠)
- ١٧٦ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا . . . (البروج — ٨)

المراجع

أولاً : القرآن الكريم :

ثانياً : التفسير

- ١ - تفسير القرآن العظيم :
أبو الفداء إسماعيل بن كثير - طبعة الشعب :
- ٢ - الجامع لأحكام القرآن :
أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - طبعة الشعب .
- ٣ - صفوة التفسير :
محمد علي الصابوني - طبعة الشربتلي .
- ٤ - تفسير القاسمي :
محمد جمال الدين القاسمي - طبعة دار الفكر

ثالثاً : الحديث الشريف

- ١ - صحيح البخارى :
محمد بن إسماعيل البخارى - طبعة الشعب .
- ٢ - صحيح مسلم :
مسلم بن الحجاج النسابورى - طبعة الشعب .
- ٣ - المنهاج لشرح صحيح مسلم بن الحجاج :
أبو زكريا يحيى بن شرف النووى - طبعة الشعب :
- ٤ - سنن الترمذى :
أبو عيسى الترمذى : طبعة الحلبي :
- ٥ - تحفة الأحوذى بشرح الترمذى :
أبى العلى محمد عبد الرحمن المباركفورى - السلفية بالمدينة المنورة :

- ٦ — رياض الصالحين :
أبو زكريا يحيى بن شرف النووى — الحلبي .
- ٧ — دليل الفالحين :
محمد بن علان الصديقي الشافعي — الحلبي
- ٨ — شرح الأربعين النووية :
أبو زكريا يحيى بن شرف النووى — دار الأنصار .
- ١٠ — قوة الحجاج في عموم المعفرة :
أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — مكتبة القاهرة .
- ١١ — فتح المبدى شرح مختصر الزبيدي :
للشيخ عبد الله الشرقاوى — الحلبي .

رابعاً : كتب اللغة والأدب

- ١ — لسان العرب :
لابن منظور — دار المعارف .
- ٢ — المصباح المنير في غريب شرح الكبير للرافعي :
أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي — دار المعارف .
- ٣ — مختار الصحاح :
الإمام محمد بن أبي بكر الرازي — دار المعارف .
- ٤ — أساس البلاغة :
أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري — دار المعرفة بيروت .
- ٥ — النحو الوافي :
عباس حسن — دار المعارف

خامساً : كتب الأستاذ سيد قطب

- ١ — في ظلال القرآن .
دار الشروق
- ٢ — التصوير الفني في القرآن .
دار الشروق
- ٣ — كتب وشخصيات :
دار الشروق

سادساً : السيدة عائشة عبد الرحمن

« بنت الشاطئ »

١ - قيم جديدة للأدب العربى . دار المعرفة

سابعاً : كتب الإمام ابن القيم

- ١ - حادى الأرواح . مكتبة المثنى ببغداد
- ٢ - الوابل الصيب من الكلم الطيب . مكتبة الرياض الحديثة
- ٣ - الفوائد . مكتبة المتنبي
- ٤ - مفتاح دار السعادة . مكتبة الفاروق الحديثة
- ٥ - زاد المعاد فى هدى خير العباد . المطبعة المصرية
- ٦ - طريق المهجرتين وباب السعادتين . السلفية
- ٧ - مدارج السالكين . السنة المحمدية
- ٨ - الجواب الكافى . مكتبة السنة المحمدية
- ٩ - روضة المحبين . مكتبة الجامعة
- ١٠ - عدة الصابرين . دار الكتب العلمية
- ١١ - تحفة المودود . المكتبة القيمة
- ١٢ - منهج ابن القيم فى التفسير - محمد أحمد السنباطى - مجمو البحوث الإسلامية

صدر للمؤلف

- ١ — عالم الضياء . ديوان شعر ١٩٨٣
- ٢ — أنشودة أحزاني ديوان شعر ١٩٨٦

تحت الطبع

- ١ — اختلاف الحديث — للإمام الشافعي . . . تحقيق ديوان شعر
- ٢ — إن من الشعر لحكمة . ديوان شعر
- ٣ — وجه المأساة . ديوان شعر
- ٤ — جنة الأطفال . مسرحية شعرية
- ٥ — يوسف . مسرحية شعرية
- ٦ — الشمس تعود للظهور . مسرحية شعرية
- ٧ — عودة سندباد . مسرحية شعرية

فهرس الموضوعات

للصفحة

الموضوع

٧-٣ مقدمة المؤلف

مقدمات :

٩ الدعوة إلى تصحيح واجهة تاريخ الأدب العربي
مناقشة المقاييس الشعرية المنحرفة

١٥ ١ - الشعر تجارة العرب

١٨ ٢ - الشعر نكد بابيه الشر

٢١ ٣ - تحكم القصر في تحديد صنف البضاعة الشعرية

٢٦ ٤ - أعذب الشعر أكذبه

دعوة سيد قطب للاستفادة من طريقة القرآن الأساسية : التصوير

٢٨ والظلال

٣٠ الصورة والظلال في الفن

٣٤ جو القصيدة وسبب التسمية

٣٤ ١ - فكرة الغربة والاعتراب عند ابن القيم

٣٦ ٢ - بواعث الغربة عنده

٣٨ ٣ - صور شوقه

٤١ ٤ - محور السفر

٤٥ ٥ - المحبة زاد المسافر إلى ربه

تحليل القصيدة :

٤٩ استعراض عام لأهم صور القصيدة وظلالها

١١ ١ - العاطفة وسير القصيدة

٢٢ ٢ - الأسلوب

٣٣	٣ — اللغة
٤٤	٤ — جانب الطبيعة في القصيدة
٥٥	٥ — الصور والظلال
	القصيدة :
٦٦٦	الرحلة إلى بلاد الأشواق
٦٦	١ — أشواق
٧٧٧	الشرح
٧٧٧	فوائد
٨٨٨	٢ — مشهد الحجيج
١٦٥	الشرح
١٧٣	فوائد
١٧٤	٣ — آلام الوداع
١٧٧	الشرح
١٧٩	٤ — انتفاضة البعث
١٨٦	الشرح
١٩٤	فائدة جليلة
١٩٤	أبيات للشارح
١٩٥	٥ — أمنيات
١٩٨	الشرح
٢٠٢	٦ — سبيل النجاة
٢٠٦	الشرح
٢١٦	٧ — بلاد الأشواق
٢٢٣	الشرح
٢٣٩	٨ — نهاية المطاف
٢٤٤	الخاتمة